«مجموعة قصصية»









# فوق الغيوم

سبع حكايات

مارك دوقان

ترجمة:
د.محمد القاضي

مارك دوقان

# فوق الغيوم

## سبع حكايات



ترجمة: د. محمّد القاضي

# فوق الغيوم

## سبع حكايات

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة


PQ2664.U3475 E5312 2011
Dugain, Marc
[En bas, les nuages]
فوق الغيوم : سبع حكايات / مارك دوقان؛ ترجمة محمد القاضي. -ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 293 : 15×23 سم.
ترجمة كتاب: En bas, les nuages: 7 histoires
تدمك: 978-9948-01-988-6
1. القصص القصيرة الفرنسية -- القرن العشرون -- مترجمات إلى العربية.
2. القصص القصيرة العربية -- القرن العشرون-- مترجمات من الفرنسية. أ. قاضي، محمد.
ب. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Marc Dugain
En bas, les nuages
© Marc Dugain, Flammarion, 2009




www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

# المحتويات

# أيلين

قلت لها: «شكراً جزيلاً، سيّدتي».

– لا تشكرني، فلستُ واثقة من أنّنا سنصل. وفوق هذا دعك من «سيّدتي» هذه، ادْعُني: «أيلين»، «أيلين برومستد»... ألا يعني لك هذا الاسم شيئاً؟

– لا، أنا آسف، إنّه لا يعني لي شيئاً.

– لعلّك أصغر سنّاً من أن تتذكّر اسمي.

وبغتة أدارت مقود شاحنتها الخفيفة الضخم، فانطرحتُ بكامل جسدي على الباب. ثم تماسكتُ على المقعد الجلديّ الأصفر اللمّاع. وحين نظرتُ إليها من جديد ابتسمَتْ لي.

توقّفنا أمام مجرى ماء كان يمكن أن يكون نهراً أو سيلاً لو أنّ حظّ المكان من المطر كان أكبر. صخور صقيلة تظهر على السطح، فيرسم حضورُها في الماء خيطين صغيرين مزبدين. يكاد الناظر يرى في تلك الصخور تصاوير دينيّة.

– هل ترى الصخرة الكبيرة على الضفّة المقابلة حين تتعذّر علينا رؤيتها؟ فمعنى ذلك أنّه لا يعود بإمكاننا أن نجتاز.

– وحين يحصل ذلك ما الذي تفعلينه إذاً؟

– أحياناً أنتظر، وأحياناً أعود على عقبيّ وأرجع بعد يوم أو يومين، ومن حين لآخر أجازف.

– تجازفين؟

– إنّ المجازفة لمن هو في سنّي ليس كمعنى المجازفة لمن هو في سنك. في تلك الحالة كنت أندفع في الماء إلى أن يبلغ منتصفَ زجاج الشاحنة. لم يحدث أبداً أن تعطّل المحرّك. هذه الشاحنة الخفيفة ليست جديدة، ولكن في زمانها كانت المصانع تنتج محرّكات لا تخشى شيئاً.

تأملتها بدقة. لم تكن الفرصة قد سنحت لي حقّا أن أتأمّلها منذ أن أخذتني

معها في سيّارتها عندما استوقفتُها، قبل ساعتين، على الطريق الرئيسيّة التي تخترق الجزيرة. ولم تنقضِ نصفُ ساعة على بدء حديثنا حتّى عرضتْ عليّ أن تؤويني. كانت قد سألتني عندئذ: «ما الوجهة التي تقصدها؟». فأجبتها: «ليست لي وجهة محدّدة».

كانت لها هيئة امرأة أربتْ على الثمانين، عَرفت السمنة والحميات المتتابعة وتغيّرات الوزن. لم يكن أديم وجهها المترهّل المستسلم يحفظ من ملامحه الماضية إلاّ دلائل تشي بها روحها. غير أنّ لها من الطاقة ما لحصان الجرّ. إذ تُواصِل الجرَّ حتّى وهي مجهدة.

تأمّلَتِ الصخرةَ مطوّلاً كما لو كانت طوطما هندياً، ثم ألقت كلمات بلغة أهل الجزيرة، كأنّها الدعاء الذي تتضرّع به إلى قوى علويّة أن تقينا. وإذا نحن في الماء وقد غمر أسفل الشاحنة. انزلقت السيّارة على الصخور الصقيلة، ووثبت قبل أن ترتفع على طريق الضفّة الأخرى، الذي لم يكن بأفضل حالاً من سابقه. وارتسمت على جانب شفتيها ابتسامة صغيرة تعبّر عن نصر متواضع.

– ذات مرّة ظللتُ عالقة ثلاثة أيّام. كان النهر قد بلغ أقصى درجات تدفّقه، وكان يمكن أن يجرفني كما يجرف أيّ غصن عاديّ. خيّمتُ في سيّارتي واتّخذتُ من جذور النباتات غذاء، ولكنّ الأمر لم يحدث لي مرّة أخرى بعد ذلك.

*

كان الماء الذي يرشح من كلّ مكان يحفر دربا على مدى نصف ميل، وفجأة وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام بيتها الذي كان حقاً متوارياً وسط الأدغال الاستوائيّة. كان قد مرّ عليّ زمن لم أدخّن فيه لفافة حشيش. ذكرتُ هذا؛ لأؤكّد أنّ الشعور الذي انتابني لم يكن ناشئاً عن هلوسة. ففي ذلك المكان كان لديّ انطباع بأن أيّ بذرة تسقط من جيبي يمكن أن يتوالد عنها في يوم

واحد ستار من الأشجار أو النباتات التي ترتفع عالياً عدّة أمتار. والحقّ أنّ بيتها لم يكن صغيراً، ولكنّه كان مغموراً بالنباتات إلى حدّ أنّنا وإن سرنا راجلين كنّا نمشي على معابر خشبيّة.

لقد كنّا في قلب تلك الجزيرة القائمة في المحيط الهادي، القلب الذي لا يرتاده أحد أبداً. كان المصطافون يتوافدون على محيط الجزيرة بعيداً، بعيداً جداً عن مركزها ليجرّبوا لعبة التزلّج على الموج وغيرها من المتع يوفّرها المحيط الهائج. غير أنّ ذلك القبيل من الناس لم يكونوا يجازفون أبداً بالذهاب إلى مركز الجزيرة الذي لا يحتفي بأمثالهم من أهل الحواضر الذين لا همّ لهم إلاّ الاستجمام.

وحين كانت تركُنُ السيّارةَ بادرتْني، وهي التي لم تطرح عليّ أيّ سؤال شخصيّ، بقولها قلقة:

– ألم تمارس أبداً مهنة في حياتك؟

تردّدتُ قبل أن أجيب:

– كنت رجل إطفاء محترفاً.

تفحّصتني ذاهلة ثم انفجرت ضاحكة.

– يا إلهي، لو كنتُ بحاجة إلى شخص لما وقعتُ على أسوأ من هذا. رجل إطفاء! لا يحترق شيء هنا أبداً، فالمكان شديد الرطوبة.

– صحيح، ولكن يمكن أن يغرق المرء هنا، أليس كذلك؟

– بلى، عدا أنّ الذي يغرق هنا يغرق حقاً.

أخرجتُ حقيبة ظهري من صندوق الشاحنة الخفيفة، ثم قادتني إلى بيت خشبيّ على أعمدة يبعد عن المبنى الرئيسيّ بضعة أمتار.

– هنا أُسْكِنُ ضيوفي. لم يكن عددهم كثيراً في السنوات الأخيرة. آخرهم كان شقيقي، منذ ستّ سنوات. ثمّ توفّي.

حين دخلنا الغرفة ألقت بجسدها على كرسيّ بلا ظهر وُضِع أمام السرير.

وكانت وهي جالسة أكثر إجهاداً منها وهي قائمة.

– حسناً، سأذكر لك أهمّ بنود العقد الذي يربط بيننا. سأوفّر لك المسكن والمأكل طوال المدّة التي ترغب فيها. وبالمقابل، ستساعدني. صدّقني أنّه لا يوجد ما يُثقِل الكاهل يومياً، لتحقّق المطلوب. لن أسألك عن شيء، ولن تسألني عن شيء. هل يلائمك هذا؟

أجبتها موافقاً:

– إنّه يلائمني تماماً.

– لا ماضي ولا مستقبل. سنعيش بوصفنا كائنين بشريّين حقاً. كما لو كنّا على نحو ما غارقين. أملك هاهنا خمسمائة هكتار. لا أزرع شيئاً؛ لأنّ كلّ شيء ينمو هنا دون تدخّل الإنسان. إلاّ أنّ النباتات لا توصِل منتوجَها إلى البيت. فلا بدّ حينئذ من بذل بعض الجهد. الماء يأتي من كلّ مكان، والكهرباء من الشلاّلات التي توجد على الأرض التي أملكها، إنّها توربينة يديرها التيّار، لا ينتج عنها أيّ تلوث. أعيش في اكتفاء ذاتيّ خالص، فلا أستخدم بطاقتي المصرفية إلاّ لشراء البنزين، وبعض الأشياء البسيطة؛ لأنّني لا أستهلك اللحم. إن كنتَ لاحماً سأشتري لك اللحم وأضعه في البرّاد. أنصحك بألاّ تعمد إلى الصيد؛ لأنّ ذلك سيقوّض أربعين عاماً من الثقة بيني وبين الحيوانات... يمكنني أن أتصوّر أنّ شاباً يافعاً مثلك يحتاج للذهاب إلى المدينة من حين إلى آخر. وفي هذه الحالة دونك الشاحنة الخفيفة. ختاماً، نتناول وجبات الطعام الثلاث في أوقات ثابتة، وبلباس لائق، إنّها مسألة احترام متبادل. ثمّ إنّه لا يجدر بنا أبداً أن نترك الحبل على الغارب، فالخشب المبرنق يقاوم دائماً الحشرات بشكل أفضل.

عشنا على هذا النحو، وفق القواعد التي حدّدتْها، في انسجام تامّ. كانت تُعِدّ كلّ ما يتطلّب دكاءً وكنتُ أضطلع بكلّ ما يحتاج لقوة. كنت أسدي إليها خدمة، وكانت تردّ جميلي بأفضل منه. كنّا نتناول العشاء كلّ ليلة في غرفة

طعامها، وكانت تُخرج أحياناً قنّينة ويسكي من النوع الفاخر تكاد لا تكفينا لقضاء السهرة. كان هناك صوان قرب الطاولة، ولكنّي لم أر عليه أبداً صورة واحدة. وحين سألتها عن السبب أجابتني:

– المكان هنا مفرط الرطوبة بالنسبة للصور، وهناك فطريّات تأكلها.

نظرتْ إليّ بطرف عينها وهي تتفحّصني. نهضتْ بإجهاد كالعادة – لقد كانت تفضّل قطعاً أن تظلّ واقفة طوال النهار – فتحتْ خزانة، وأخرجت منها علبة مغلقة بإحكام، ووضعتها أمامها، ثمّ جلستْ بعناء. لم يكن في العلبة إلاّ صورة واحدة، وورقة تشبه رخصة القيادة، أزاحت الصورة، ومع ذلك فقد تمكّنتُ من أن أتعرّف عليها فيها. لم أشهد أبداً في حياتي وجه امرأة يافعة أكثر كمالاً ولا تعبيراً عن اجتماع الشهوانيّة والطيبة معاً. طفر الدمع إلى عينيّ ولاحظتْ هي ذلك. أخرجتْ رخصة القيادة، ونزعت عنها الصورة التي كانت عليها، وهي صورة رجل شابّ. ودون أن تبدي أيّ ملاحظة، سألتني أن أجيئها برخصة قيادتي.

– لم تفعلين هذا؟

بدأت تقطّب وجهها وقالت:

– لقد كنّا اتّفقنا على ألاّ يطرح أحدُنا على الآخر أيّ سؤال. غير أني لاحظت أنّكَ لم تكن تغادر المكان أبداً، رغم مرور ثلاثة أشهر على حلولك به. إنّ شاباً مثلك يتعيّن عليه أن يرى نساءً من لحم ودم من حين لآخر وإلاّ انقلب إنجيلياً. ولست أريد أن يقيم ببيتي إنجيليّ. لهذا سنصنع لك رخصة قيادة مزيّفة.

كنت أقصد المدينة مرّة كلّ خمسة عشر يوماً وحيدة. وكان ذلك كافياً لأدرك أنّ رجلاً بلا مال ولا ذلاقة لسان لا يثير اهتمام النساء.

*

حافظنا على ذلك النظام الهادئ ثمانية عشر شهراً أخرى. وذات صباح

لم تنهض؛ لتناول إفطارها. وبعد طول تردّد، دفعتُ باب غرفتها، فوجدتها مستلقية على ظهرها ويداها مسبلتان بمحاذاة جسدها. حسبتها نائمة أوّل الأمر. ولكنّ الموت كان قد طبع ابتسامة على شفتيها. بكيتُها كما لم أبك أحداً منذ وفاة شقيقتي. قضيت ساعات خائر القوى أتساءل عمّا سأفعل. عليّ أن أحسم الأمر: لا مفرّ لي من أن أدفنها. كانت الملكيّة المحيطة بالبيت مظلّلة كلّها بتلك النباتات التي تجتاح المكان، فلم تواجهني صعوبة في رسم موضع قبر غير معرّض لأشعّة الشمس. دفنتها على عمق ثلاثة أمتار في كفن من الكتّان الأبيض كان غطاءَ سريرها. لم أكن قد لمست جثّة منذ أخرجتُ أباً وابنه من أنقاض مركز التجارة العالمي. وبعد أن دفنتها وجدتني على أسوإ حال.

كنت في ذلك الوقت قد أحطتُ علماً بالبيت، وبتلك الملكيّة الممتدّة الأطراف حيث الرؤية في كلّ مكان منسدّة أبداً بتلك النباتات المذهلة. كأنّما كانت سجناً نباتياً. وفي إحدى الليالي ألمّ بي شيء من السأم فأخذت أفتّش في أغراضها. لم يكن ذلك بداعي الفضول، ولو كان الأمر كذلك؛ لتجنّبته، ولكن كان ذلك رغبة منّي في ترتيبها وحفظها. عثرتُ على رسائل. كانت رسائل إلى زوجها تبيّن له فيها أنّها ستتخلّى عنه، وتضع نهاية للبرنامج الاستعراضيّ التلفزيوني الذي كانا يشتركان في تقديمه. ثمّة أيضاً رسائل قديمة من ابنها يخبرها فيها بأنّه يريد أن يهرب من الجنديّة، وألاّ يعود أبداً إلى «الفيتنام». ورسالة من زوجها يردّ عليها فيها بأنّه لا يمكنه أن يقبل بأن يكون لهما في وضعهما الاجتماعيّ ولد فارّ من الجنديّة. وتحت رزمة من الوثائق المتّصلة بطلاقهما كانت ثمّة برقيّة متهرّئة من الجيش يعلمهما فيها بأنّ ابنهما توفّي في إحدى العمليّات. وفي علبة كرتونيّة أخرى تربض وثيقة ضخمة مجلّدة: إنّها أطروحتها للدكتوراه في علم نفس الحِدَاد. كانت قد بلغت السابعة والسبعين من عمرها حين حصلت عليها من جامعة «لوس أنجلس». أخذتُ في قراءتها بكلّ انتباه. وحين بلغتُ منتصفها وقعتُ على صفحة كانت تتحدّث فيها عن أشخاص كانوا يختارون

مهنهم بعد الحداد. كانت تذكر حالات كثيرة لأشخاص انخرطوا في مهنة الإطفاء بعد موت أحد أقربائهم في حريق. تلك هي تقريبا معجزة القراءة: أن تعلم وأنت تطوي صفحة أنّك لست وحيداً. في تلك الليلة أدركتُ أنني لم أنخرط في حرب العراق بسبب تلكما الجثّتين اللتين أخرجتُهما وحدي من تحت الأنقاض. كلاّ، لا بدّ أنّ للأمر صلة برماد أختي الصغيرة التي أرادت أن تضع حداً لحياتها التي لم تكد تبدأ، فأشعلت النار في بيت أبويّ الخشبيّ الكائن على طريق عبور في «نيو جرسي».

منذ ذلك الحدث لم يعد شيء يدعو إلى العجلة. ظللت ستة أشهر كاملة أعيش عيش الناسك إلى أن جاء يوم دفعت فيه نفسي دفعاً إلى الذهاب إلى مقهى أنترنت. كنت أتصوّر أنّ ذلك المكان هو من الضرب الذي ربّما يستطيع فيه المرء، وهو ينقر على الشبكة العنكبوتيّة، أن يعثر على آجال تقادم الأحكام على الفارّين من جيش الولايات المتّحدة. ذهبتْ مساعيّ أدراج الرياح وعدتُ من حيث أتيت. كانت غيوم سوداء ضخمة تحجب النور عن الأفق القليل، كان بوسع المرء أن يرى أنّ المطر يهطل مدراراً، هناك في الأعالي حيث بيت أيلين. انتظرت ثلاثة أيّام أن ينخفض مستوى الماء، ملتفّا على نفسي في السيّارة، بلا شراب ولا طعام، وجها لوجه مع السيل. وحين بدأت الهلوسات، عاد مجرى الماء بالنهر، فعدت إلى البيت.

# طيبة النساء

وجد عنتاً في فتح سلسلة السياج، إذ كان القفل صدئاً من الداخل. ثم عاد إلى ركوب السيّارة. وقال لها:

– هكذا نحن، نعلّق قفلاً كهذا في سلسلة بإمكان أيّ سارق هاو أن يكسرها في طرفة عين. إن هذا القفل قد بلغ الصدأ منه حداً ربما تعذر علينا معه يوماً ما أن ندخل بيتنا.

قالت:

– علينا أن نجد شيئا أكثر متانة، من قبيل قفل الأمان الذي يستخدم للدراجات النارية.

– هو ذاك.

في السماء، كانت سحب منخفضة فضية تزجيها الرياح العالية تبدو وكأنها تفرّ، وقد طاردتْها غيوم داكنة. كان المبنى المهيب الذي تحيط به أشجار معمّرة راجفة يبدو كما لو كان امرأة بدينة مهجورة في ذلك المكان.

نزلتْ من السيارة وتمطّت. لفتتْ نظرَها أجمةٌ من زهور الخزامى تحيط بشجرة طقسوس. كانت في الدغل آثار دوس، مع أنه لا يرجّح أن أحداً يمكن أن يكون قد دخل المكان الذي كان مسيجاً بسور عال من الصخور المتلاصقة تعضده في مواضع معينة خنادق قديمة.

هتفتْ:

– تعال انظر.

بسط بتؤدة قامته المديدة التي أرهقتها الرحلة الطويلة، ودنا من زوجته. نظرت إليه متسائلة، فقال:

–بماذا تريدينني أن أجيبك؟ لعل طائراً ضخماً جثم عليه. لست أدري، أنا. ومن جهة أخرى فلِمَ ينبغي دائماً أن نجد تفسيراً لكل شيء؟

– ومع ذلك فكأنّ الذي داس على الخزامى هو على الأرجح رجل.

– قد يكون البستاني.

– أنت تعلم جيداً أنه لا يملك المفاتيح، ولا يستطيع أن يدخل إلا إلى الحدائق.

رد عليها ليضع حدّاً للحوار:

– ليس الآدميون وحدهم الذين يعشقون الخزامى.

ارتدّ على عقبيه وذهب، لفتح باب البيت بمفتاح ثقيل. واجهته البرودة المحمّلة برطوبة كاسحة وبرائحة عفنة. التفت إلى زوجته التي كانت تتبعه بخضوع، وقال لها:

– علينا أن نكتفي بالإقامة في الجناح الأيمن. لست آنس في نفسي القدرة على شحن الموقدين الخشبيين من الجهتين ليلاً نهاراً.

فتح المصاريع المعدنية، فأصدرت صريراً حاداً واصطدمت بالجدار.

تبعتْه إلى المطبخ وهي تشدّ شقّي معطفها إلى جسدها بإحكام، وقالت:

– حين أتصوّر الموت فإن ما يرد إلى ذهني هو تحديداً ذاك البرد نفسه، وتلك الروائح عينها التي نجدها في المطابخ القديمة المهجورة. أرجوك دع النوافذ مفتوحة؛ ليدخل الهواء النقي، ريثما تبدأ المواقد في العمل.

– إن أردتِ أن تكون درجة الحرارة مقبولة هذه الليلة، فأنا مستعد للذهاب حالاً لجلب الخشب. هل يزعجك أن تُفرغي محتويات السيارة أثناء قيامي بهذه المهمة؟ دعي الحقائب سأتولى إخراجها بنفسي.

وافقت ثم ألقت برفق سؤلاً كانت تُعِدّه منذ بداية سفرهما:

– ما الذي أخبرتهم به في المكتب مسوغاً لسفرك؟

أجابها ماطاً شفتيه مراوغاً:

– بيّنتُ لهم أنني محتاج للراحة، لكثير من الراحة، وأنني لن أعود إلا إذا استرحت. وعلى كل حال فالمرء لا يشتري كتباً إن كان قاب قوسين أو أدنى من الموت.

– ليس ذلك بالأمر المؤكد، ربما لن يبقى لنا عمّا قريب إلا أن نقرأ.

أشار بيده متجاهلاً تلك التأملات وغادر المكان. عاد بعد عشرين دقيقة وهو يدفع أمامه عربة محمّلة بقطع حطب يبلغ طول الواحدة منها نصف متر.

– لقد سرقوا من حطبنا. نصف المستودع فارغ، وثمة آثار عجلات تصل إليه. وللأسف فإنها لم تسخ في الطين. ولو حدث ذلك لأمسكنا بهم متلبسين!

كان وجهه محمراً من الإرهاق والغضب.

أجابته:

– ما زال لنا أربعون هكتاراً من الغابات، فلن يكون الحطب هو ما يعوزنا.

– أخطأتِ يا عزيزتي. فالحطب لا يحترق إلا إذا جُفّف عامين على الأقل. ولا يجوز أن نضع في المواقد أي شيء. ثمة أنواع من البنزين تُحرِق الأنابيب. ما زال في الغابة كومتان كبيرتان أو ثلاث من خشب السنديان. ولكن طوله يبلغ متراً. لا بد إذن من أن أقطعه.

هتفت بصوت خافت يكاد يكون متواطئاً:

– ستجد في ذلك ما يشغلك.

– ولكنني لا أدري إن كان يمكننا أن نظل في الخارج طويلاً.

– هيا، اعتبرْ هذا الوضع نعمة غير متوقعة. فكم سنة مرت علينا دون أن نقضي فيها يوماً أو أسبوعاً مع الأسرة لا ينغصه علينا أحد؟

أجابها بعبوس أبرزت التجاعيد الناشئة حول فمه. وقال:

– يمكننا أن نرى الأمر من هذه الزاوية، شريطة ألا نطمر أنفسنا في هذا المكان.

– انظر، لقد قمت بإحصاء سريع لما لدينا من طعام، هناك ما يكفينا عشرة أسابيع على الأقل. وربما حاولنا غداً أن نشتري مؤونة ضخمة أخيرة.

– ونقطع ماء البلدية.

– لماذا؟

– هذا أسلم، فلسنا ندري من الذي يلمس ذلك الماء في الأعالي. صباح غد سأشغّل المضخة على البئر. أما تلك البركة الكريهة فلا أدري ما أنا فاعل بها.

فكّرتْ هنيهة وقالت:

– لو كنتُ مكانك لقضيتُ على كل ذلك البط الذي يتخبط هناك، وإذا فعلتَ ذلك لم تعد بنات عمومتها من البط البري تجد ما يغريها بأن تحط في المكان.

– بعد قتلها يتعين علينا أن ننقلها وندفنها. لا يجوز أن ندعها تتحلل في موضعها.

– في الأمر مجازفة، بالتأكيد.

– غداً سأقوم بذلك بقفازات وقناع، وإن كنت لا أجد فيه كبير لذة. مَنْ يُمكنه أن يقوم بهذا العمل بدلاً عني في رأيك؟

– البستاني، ولكني أفضّل ألا نراه.

– سأتولّى الأمر بنفسي إذن. سأقوم بجولة قبل حلول الظلام.

*

غادر البيت. في الخارج كان النهار ما زال يجهد، وقد اكتنفه الضباب منذ الصباح، كدأبه غالب شهور الشتاء، وقلما يحدث أحياناً أن يأتي يوم رائق؛ ليمحو ذكرى الأيام السالفة المعتمة. منذ سنوات عشر على حصولهما على هذه الملكية ها هما ينزلان فيها أول مرة في هذا الفصل. لا يذكر أنه رأى مرة هذه الطبيعة الشاحبة، وهذه الأشجار الهزيلة العارية الواقفة بلا حراك أمام هبوب الريح الشرقية. كانت الأشجار الدائمة الخضرة حزينة الهيئة، كما لو أنها تخشى أن تُظهِر بأسها في هذا المكان المنكوب. كانت أشجار الحور

القليلة القائمة على حافّة مرج ممتدّ الأطراف وبمحاذاة الطريق الصغيرة المؤدية إلى البيت تذكّره بإحدى لوحات «إيقون شيل»[1]. لم يكن يذكر عنوان تلك اللوحة، ولكنّ أمارات الوحشة المطلقة فيها كانت قد أذهلته، فقد كانت صورة لمستقبل ميئوس منه إلى حدّ أنه لم يعد فيه ما يبعث على الحيرة. باغتت المنيّة «شيل» في سن لا يسمح لنفسه فيها إلا القدر بأن يصيب النبوغ. وأثناء تفكيره في أسباب موته، وهي نفس الأسباب التي أدّت إلى موت «أبولينار»، أحس برعدة تسري في ظهره. كانت بقايا نور ترسم خطاً على قمم الأشجار التي قد يعود إليها اليمام لاحقاً في الشتاء أسراباً. لقد كان يشعر كل مرة يحلّ فيها بهذه الأمكنة بأن شخصاً آخر يولد في داخله، أكثر صفاء، وأقل توقاً إلى الحركة، وأكثر انشغالاً بكينونته على نحو ما. لقد كان هذا يتوقف خاصة على الفصل، نهاية الصيف، أو أوج الصيف أو الخريف الساطع. ولكن لم يسبق له أبداً أن جاء في عيد جميع القدّيسين[2]. عاد أدراجه إلى البيت.

قالت له:

– أنا أعدّ حساء. سنتعوّد على الانقطاع عن أكل اللحوم والدهون.

هزّ رأسه. كانت منهمكة في عملها متجنبة أن تفرط في الجلبة، كما لو كانت تخشى أن تزعجه. أخرجتْ لوازم المائدة من درج ونظرتْ إليه قائلة:

– اسمع، لحسن الحظ أنك حضَرت ذلك العشاء في قصر الإيليزيه. يا من مصادفة! حقاً.

– إن المرء ليرفض دائماً أن يصغي للصدفة. ومع ذلك فلا شيء يقع دون صدفة. حسناً، علي أن أشعل المواقد، كأننا لشدة البرد هنا في حجرة أموات.

– لا أحس بذلك. إذا احتفظتِ بمعطفك، فكأنك في شقتنا بباريس، لا يفرّق بين المكانين إلا وجود نسمة شتائية هنا.

---

(1) «إيقون شيل» (Egon Schielle): رسام نمساوي، ولد سنة 1890 وتوفي سنة 1918. (المترجم)

(2) هو العيد المعروف باسم (La Toussaint) الذي يحتفل به أتباع الكنيسة الكاثوليكية في أول تشرين الثاني – أكتوبر. (المترجم).

أغلق أزرار سترته، وقال:

– مع حيطان كهذه يتسلل البرد رويداً رويداً بانقضاء الصيف، ولكن حين يستقر فيها البرد نحتاج إلى وقت لإخراجه منها.

كان يهمّ بالخروج؛ ليعتني بالمواقد، ولكنه توقف، وقال:

– الأمر كما قلتِ. يا لها من مصادفة حقاً. لم تكن لدي أي رغبة في حضور ذلك العشاء في قصر الإيليزيه. رفضت في البداية لمقتي المَلَكية الأيقونية وعبادة الأوثان المضادّة. غير أن الآخرين ألحّوا. «بيار» هو الذي أقنعني. لقد استشهد بـ«زفايق»[1] داعياً ألاّ أفوت على نفسي فرصة حضور تلك المواجهة الأسطورية «بين من يعرفون دون أن يكونوا دائماً من يتصرفون، وبين من يتصرفون دون أن يكونوا دائماً من يعرفون». أخيراً، ها هو مضيّفنا يكشف لنا أسرار آلهة المشهيات. كنت واثقاً من أن معرفته بتلك الفنون عريقة. كان يضرب الأرض برجليه؛ لنفاد صبره وكنت أشعر أن ابتهاجاً عجيباً يملأ عليه نفسه حين يتصور أنه مقبل على إدارة موقف بتلك الدرجة من الخطورة. كما لو أنه لم يكن ينتظر سوى ذلك اليوم منذ بداية تفويضه، أتتصورين؟ لو كان رئيس آخر لما نبس ببنت شفة، ولاكتفى بتوديعنا قبيل الوقت المحدد بابتسامة لطيفة، قبل أن يعقد اجتماعاً طارئاً بالحكومة. أما هو، فقد كان يرقص طرباً وهو يمثّل ذلك المشهد المرتجل: فعالم الصحافة يمسك به متلبساً بجريرة المسؤوليات، وهي مسؤوليات تضع وجود المواطن الفرنسي في خطر!

– في انتظار أن يتحقق ذلك، فقد واتانا الحظ. لقد كان لدينا ما يكفي من الوقت لشراء مؤونتنا قبل أن يُنهَب كل شيء، ولتنبيه أبنائنا، وللتنقل حتى هذا المكان. سترى، لعلنا سنكون مدينين له بحياتنا.

أمسكتُ بيده التي كانت تتدلى رخوة على طول جسده. حين لامستها لم تشتدّ.

(1) «ستيفان زفايق» (Stefan Zweig) أديب نمساوي ولد سنة 1881 وتوفي سنة 1942. كتب الشعر والرواية والأقصوصة والمسرحية والسيرة والمقالة. (المترجم).

– أنت تدرك يا عزيزي أننا وإن عشنا أوقاتاً عصيبة، فلدي ما يشبه الحدس بأننا سنخرج سالمين، أقصد أنا وأنت والأولاد بالطبع وقد كبروا، ولعلنا سنخرج غانمين أيضاً.

ظل في البداية صامتاً لا ينبس. ثم تكلف الابتسام وقال بصوت متأن:

– ربما، من يدري، يقال دائماً إن الأسوأ ليس مؤكداً أبداً. ولكن علينا ألا ننسى أننا محظوظون، وإن خرجنا سالمين، فلست متأكداً من أن يكون ذلك مآل الجميع. لن يبقى المجتمع على حاله أبداً. إننا نشهد زلزالاً. حقاً، علينا أن نكون أمام مدخل المتجر الكبير غداً صباحاً، وأن نتنقل بينه وبين البيت ذهاباً وإياباً أقصى ما نستطيع قبل أن يسيطر الخوف على النفوس في هذا المكان. سأنصت إلى الأخبار. إن لم يقولوا شيئاً هذه الليلة فسيكون لنا فرصة لملء السيارة مرتين أو ثلاث مرات قبل الهجمة.

– وإلا، فحسبنا ما لدينا من مدّخرات. ومن جهة أخرى يمكنك أن تشكرني. ففي كل صيف كنت تسخر مني، ومن معلّباتي من الفواكه والخضر، من الخنزير، ومن البط، ولكننا الآن قادرون بفضلها على الصمود في وجه حصار حقيقي.

وصل المذياع في مشكاته، وهي حوض حجري قديم، بالكهرباء. كان الهراء المعتاد يمتد على الموجات، ولكن لا شيء عن الموضوع الذي لو وجد لألغى كل ما عداه.

قال مستنتجاً قبل أن يغلق المذياع:

– لن يحصل الأمر اليوم. عجيب، إنها المرة الأولى التي لا يتسرب فيها شيء من مصفاة الإيليزيه هذه. إن القوم تعودوا على الثرثرة والمسارّات المتواطئة إلى حد كبير...

– إن في ذلك لدليلاً على أن الوضع بالغ الخطورة.

– ذكريني أن أشتري مزيداً من الخراطيش للبنادق.

أجابته مصدومة:

– لم نصل بعد إلى درجة نطلق فيها الرصاص على الناس.

– لا تتفوّهي بحماقات. إن استمرّت الحال، سأعود إلى صيد الطرائد الضخمة في الأماكن المجاورة.

– لقد أرعبتني.

– والأولاد متى يصلون هنا؟

– ستكون «ناتالي» و«أود» وصديقها هنا هذه الليلة، في حدود الثانية صباحاً. أما ابنك فسيصل غداً.

– لأن صديق «أود» سيأتي أيضاً؟

– بالنظر إلى ما نعرفه ليس بإمكاننا ألا نستقبله. ألا ترى ذلك؟

بدا عليه الاستغراق، ثم أقرّ قائلاً:

– كلا، بطبيعة الحال.

توقف عن الكلام ثم أردف كما لو كان يريد أن يقنعها:

– لا، لا يليق بنا أن...

– أن ماذا؟

– أن...لست أدري...إنه قادم، وهذا هو المهم.

حين كانت تراقب الحساء على النار جلس على مقعد بمحاذاة طاولة المطبخ المصنوعة من خشب السنديان، أمام الحصيرة المجدولة التي وُضِعت عليها لوازم الأكل. كان ينظر إلى زوجته وهي تقدّم له الطعام، مرفقاه على الخوان ورأسه بين يديه. وقال:

– كنت أفكر في شيء. يتعين علينا أن ننظف المصلّى، ونرتبه. ليس طبيعياً أن نجعله مكاناً لوضع المهملات.

وضعت الطنجرة على حامل الأطباق الفولاذي. ثم جلست بدورها وقالت:

- لقد استُخدِم هذا المصلّى طوال قرن ونصف لإيواء الخنازير...ولم يلحق بسكان هذه الملكية المتعاقبين من ذلك الصنيع أذى.

- أعرف، ولكن من الأفضل مع ذلك أن نتعهّده بشيء من الترتيب.

عبست وقالت:

- تعني أن كل النوايا الحسنة تصبح اليوم، في الظروف التي سنعيش فيها، مجدية، وخصوصاً تلك التي تكون سماوية؟

ارتسمت على وجهه علامة تضايُق، وأجاب:

- كلا، ليس هذا ما قصدته، لم أعتقد أبداً في هذه الأمور طوال حياتي، وهذه العبادة بعيدة عني كل البعد. غير أن احترام معتقدات الغير لا يكلف المرء شيئاً، خصوصاً في هذا العصر المتقلب.

- حسناً...سنتولى إخلاء المكان مع الأولاد، بعد أن نكون قد رتبنا كل ما عداه.

قطع الخبز كسراً تركها تقع في الحساء، على الطريقة القديمة.

- سنسخن أربع غرف، وحمّامين، وهذا المطبخ وغرفة الجلوس. هل يرضيك هذا؟

- أجل فما سوى هذا غير مجد.

صمت لحظة وهو يحرك حساءه، وقال:

- لقد عنّ لي مرات كثيرة أن أتخلص من هذا البيت، دون أن أفاتحك في الأمر. كان ثمة في أعماقي شيء يدعوني ألا أفعل. واليوم لا أدري كيف سيتصرف كل أولئك الذين لا يملكون بيتاً أو ليس لهم أقارب في الريف ليتدبّروا أمورهم. إنهم لن يستطيعوا حتى أن يخيّموا في العراء في هذا الزمهرير.

- ألا تكمل ما في صحنك؟

- بلى، ولكني أريد أن أتعلم من جديد أن آكل على مهلي.

أمسك مرة أخرى بملعقته، وأمعن فيها النظر صامتاً. وإزاء صمته المطبق

انتهى بها الأمر إلى أن سألته:

– فيم تفكر؟

خفض رأسه كما لو أنه لم يكن يريد أن يجيب بطريقة مباشرة على هذا السؤال.

– كنت أفكر في أن جدّي شهد حربين، ووالدي حرباً واحدة. أما أنا فلم أشهد أي حرب. وكلاهما كانا يعرفان من يكونان. أعني أن الحياة فرضت عليهما أن يعرفا ذلك. أما أنا فلا. لم أتخذ في حياتي قراراً يتصل بوجودي، ولا بوجود من أكنّ لهم الحب. ولم أضع قط مبادئي على محك الواقع.

– إن هذا لا يمنعك من أن تعيش.

– فعلاً، إذ حتى وإن حدث هذا متأخراً، فسيأتي وقت يعود فيه القدر بقائمة الحساب.

– لعل أوان ذلك لم يحن اليوم. لا تكن متشائماً.

– ليس من التشاؤم أن نفكر بأننا سنشهد أياماً تتركنا وقد تغيّرْنا وتبدّلْنا ومُسِخْنا.

– ولكن لا جدوى من أن نردّد هذا الحديث دون انقطاع.

حين أتى على ما في صحنه وقف لتناول قطعة من الجبن. وبفم ملآن قال ساخطاً:

– لم أذهب لتفقد الخيول. هذه المرة الأولى التي أنزل فيها بالمكان ولا أبدأ بتفقد الخيول.

– يمكنك أن تذهب الآن لتفقّدها.

– ذاك ما أعتزم القيام به، توّا بعد فراغي من الأكل. ولكن من في رأيك يمكننا أن ننبّههم؟

– من؟ ماذا تعني؟

– من الناس الذين نكنّ لهم التقدير.

– ما عدا أبناءنا لست أرى أشخاصا كثيرين. ليس لنا أسرة على الحقيقة. ربما وجد شقيقي، ولكنه صحافي، سيعلن ذلك على رؤوس الملأ. وفوق ذلك، فهو فيما أعتقد في «تشاد».

كانت تحوم في المطبخ وهي تخلي الخوان:

– ينبغي أن تنبّه سكرتيرتك، والملحقة الصحفية، ومحرِّرَيْكَ، وكل مؤلفيك...وإن كان مسيّر الدار واحداً لا غير.

رماها بنظرة صاعقة، وقال:

– أرجو أن تكوني مازحة.

– طبعاً، أنا أمزح! لن نمكث أسابيع بأكملها نتزهّد. أليس كذلك؟

– سنرى. ومن بين أصدقائنا؟

– وهل لدينا منهم عدد جمّ؟ إن نبهنا الناس الذين يدعوننا وندعوهم فإن «باريس» بتمامها وكمالها سيتمّ استنفارها.

– على كل حال ستكون «باريس» على علم بالأمر غداً صباحاً، ولا أريد أن يعتبرني الناس خائناً يقيم سوقه السوداء مع عدد من الناس تاركاً الآخرين للموت. علينا أن نفكر دائماً في ما بعد الأزمة، فيما سيقال عنا. إن سمعتنا لا تقل عن حقيقتنا أهمية.

*

نهض، واتجه إلى غرفة نومهما، ليعبئ الموقد من جديد. ثم قام بجولة في الغرف، وفي قاعة الاستقبال. لم يكن قد خلع سترته، أخذ قبّعة لبديّة كانت معلّقة إلى مسمار وخرج. كانت السماء أشبه بورقة زرقاء داكنة ألصق طفل على سطحها نجوماً ذهبية. بدا له أن العالم استعاد براءته. كانت طيور الليل تتصايح على امتداد الغابة. كانت أشباح الجنّيّات البيض الذاهبات إلى الصيد ترسل لصغارها إشارات عساها تتجلد. وعلى التلال المحيطة كانت ريح الشمال

تقطع الهواء كما تقطع الموسى شعر اللحية. دسّ رأسه في ياقة سترته وسار حتى المرج حيث كانت تربض الخيول. حين غدا على مسافة معينة اتصل هاتفياً بـ«أدريان كارين» وهو أهمّ مؤلفيه، وصديقه في آن واحد. كان «أدريان» يعيش بَعْدُ منعزلاً، وحين بلغ الخبرُ مسمعَه قرّر ألا يغيّر في حياته شيئاً. وما إن تمّت مكالمتُهما حتى عاود الاتصالَ برقم آخر. رَفعتِ السماعةَ امرأةٌ دون إبطاء. همس لها كأنها لم تعد قادرة على التعرف عليه:

– هذا أنا.

– كنتُ أحسب أنك ستتصل بي قبل هذا الوقت. لا عليك، أنا لا ألومك، ولكني كنت قلقة بعض الشيء.

– لقد فررتُ من «باريس».

– فررت؟

– أعتقد أنها العبارة الملائمة. كنت مدعوّاً أمس في قصر الإيليزيه إلى عشاء للناشرين حين نزل علينا الخبر: أسرة من الشمال بأكملها ماتت لأن أحد أفرادها وحسب كان له صلة بالطيور. إنه وباء من نوع جديد، ينبغي أن نوليه أهمية كبرى. أنا في «دوردوني» برفقة زوجتي، وسيلحق بنا أبناؤنا هذه الليلة. ألا تعرفين شخصاً في الريف يمكنك أن تذهبي إليه؟

فكّرت طويلاً ثم قالت:

– كلا، لا أعرف أحداً.

– إذن غداً صباحاً باكراً، اشتري أكثر ما تستطيعين من زاد، واقْتني واقيات من المطر، وبعضَ الأوشحة، واعتزلي الناس في شقتك، وسدّي شقوق الباب باللباد.

– هل تعتقد أن الأمر على هذه الدرجة من الخطورة حقاً؟

– واحد من عشرة أشخاص مهدّد بالموت في الريف... وثلاثة من عشرة في المدن. وهذه الأرقام ليست من صنع الخيال فيما يبدو.

– يا إلهي... وكم يمكن أن تدوم؟

– بين شهر ونصف وشهرين، حسب أهل الاختصاص. نفّذي توّاً ما قلته لك. إن اضطررتِ إلى الخروج، تَغطّيْ بمساحات عازلة، وما إن تعودي حتي تغسليها جيدا بالماء في الحمام ولا تبخلي بالمطهرات. امنعي ابنك من الخروج بأي حال.

– لا أستطيع أن أصدّق...

– ومع ذلك فهذا هو الواقع. سأحاول أن أجد لك ملاذاً منعزلاً خارج «باريس» وسأتصل بك غداً.

– لا تشغل بالك، أكّدْ لي فقط أنك تحبّني، فهذا كاف ليقوّي كثيراً دفاعاتي المناعية.

– أحبّك، طبعاً.

– لا، لا تقل أحبّك طبعاً، قل أحبّك فقط.

– أحبّك فقط.

– أنت تتظاهر بعدم الفهم. قبلاتي حبيبي، إلى غد.

– أجل، إلى غد.

أغلق هاتفه، وأنصت إلى الليل كما لو كان يخشى أن يسمع صدى صوته. ثم استأنف سيره إلى الخيول. الآن وقد تعوّدتْ عيناه على العتمة، يرى في الليل كما يرى في وضح النهار وربما أفضل، إذ أنشأ الغبش تراتبية بين الأشياء بحسب قيمتها الحقيقية. كانت الزريبة العتيقة التي تؤوي الخيول تبدو كما لو أنها نُصِبتْ على الجليد. كان العشب المشذّب يرسل إلى القمر بريقاً صقيلاً أبيض. ومن تحت، حيث يبدو كأنّ التربة تنخفض، برزتْ ثلاثة ظلال. أصدَر فرقعة بلسانه، واستطاع أن يرى في الظلام أنها رفعت رؤوسها. ولكنها عادت ترعى. لا يبدو أن لقدومه كبير جدوى. عاد أدراجه إلى البيت وقد استولى عليه البرد، ذاك البرد الذي تختصّ به مناطق الجنوب الكائنة على المرتفعات.

*

أدرك من سماع أنّات الأرضية الخشبية أن زوجته كانت منشغلة بإعداد الأسرّة. جلس في غرفة الاستقبال، ووضع حطبة أخرى في الموقد السويدي الذي كان يسدّ المدخنة وصبّ لنفسه كأساً من الويسكي. وحين كان يحرك السائل كان الشراب يتشبث بحوافّ الكأس قبل أن ينزلق بلا مبالاة.

كانت الأريكة التي اندسّ فيها وهو يجذب شقّيْ سترته، ظهرُها إلى الموقد وتواجه بابين قديمين مسدودين جُعلا خزانتيْ كتب. أخرج من أحد جيوبه علبة سجائر مدعوكة بعض الشيء وأشعل واحدة، وسحب منها نفساً طويلاً. لم يذق في حياته نفساً بهذا الطعم، لم يحسّ قطّ بمتعة كهذه المتعة. كأنما أدركتْ حواسّه أنه محكوم عليه مع وقف التنفيذ – وفي هذه الحالة تصبح السيجارة ألذّ. تأمّل الكتب المجمّعة بحسب السلاسل وقد تلاصقت. كانت خيلاء أجيال بأكملها حَسِبَتْ أن لن يدركها الموت تخيّم على المكان، هازئة. وجد نفسه يقول بهمس: «لم يكن لكِ من الحصافة ولا من التواضع ما يجعلك تتصوّرين أن يأتي يوم ما لا يبقى فيه كائن بشري واحد ليقرأك». ثم فكر فيها، وحيدة في شقتها الصغيرة، مع ذلك الطفل الذي لا تملك أن تحتفظ به محتجزاً أكثر من يومين متتاليين. لم تكن علاقته بها صادقة جدّاً، ولقد أقرّ لنفسه بذلك مرارا. لقد كان يشتهيها أكثر مما كان يحبها. وفوق هذا فالسؤال الحقيقي كان: هل أحبَّ حقّاً مرّة في حياته؟ كان يعلم يقيناً أن لا. ومن هنا يتولد السؤال الموالي: لِمَ لَمْ يحبّ حقاً في حياته؟ كان الجواب يقتضي تقصّياً أكثر دقة من أن يقوم به بنفسه، وأكثر حميمية من أن يبوح به لغيره. كانت قلة معرفته بنفسه مخيفة. ومع ذلك فقد كان له رأي في كل شيء. كان الوسط الذي يعيش فيه قائماً بأكمله على سوء معرفة بالنفس تتربع على عرشه طائفة من الآراء. وكان الأمر يزداد تفاقماً بقدر اتساع مسؤولياته الفكرية والأخلاقية بوصفه ناشراً باريسياً شعبيا. وقبل ذلك، كانت كل دقيقة تمرّ تثبت له صحة ما يراه من أنه لا يستطيع

أن يتركها وحيدة مع ولدها بـ«باريس.

حين عادت زوجته إلى غرفة الاستقبال سألته فيم كان ساهماً. لقد كانت ماهرة في إطلاق أسئلة اعتباطية وانتظار أجوبة عميقة. أشار إلى الكتب على المكتبة قائلاً:

– كنت أتساءل عن سلالتها هل ستظلّ طويلاً على قيد الحياة.

هزّت رأسها وقالت:

– ما أقدرك على أن تكون مثبطاً للعزائم أحياناً.

أومضت في باله فكرة فأردف قائلاً:

– كلا، ولكن بصراحة لدي معضلة حقيقية.

– معضلة؟ إذن معدتك تؤلمك.

– ليس بعد، ولكنها لن تتأخر كثيراً.

سألته ملاطفة:

– وما هي تلك المعضلة؟

– اتّصلتُ بـ«أدريان».

– ثم ماذا؟

– ما سأقوله لك ينبغي أن يبقى بيننا.

– بل إني سأصعد إلى السطح لأعلنه في الوادي.

– «أدريان» كالعادة في بيته الريفي بمنطقة «نورماندي» مع أسرته. تحدّثتُ معه منذ حين هاتفياً ونصحتُه بأن يبقى حيث هو وأن يلزم البيت.

– أجل رأيتك من إحدى النوافذ العلوية تتكلم في الهاتف على طريق الخيول، ولكني لم أكن أظن أنك تهاتفه هو. وفوق ذلك لِمَ أتساءل عمّن يمكن أن يكون. دهشت فقط من صفاء الليل. أتظن أن الليلة هي ليلة تمام البدر؟

– كلا القمر ما زال بيضوياً بعض الشيء...ولكن هذا لا يهمّ. لقد كان «أدريان» في حالة من القلق تبعث على الحيرة.

– أبسبب ما يحدث؟

– الأمر على صلة بما يحدث. كما قلت لك هو في «نورماندي» مع زوجته. ولكن يقضّ مضجعَه أن يترك عشيقته وحيدة بـ«باريس» مع ابنها غير الشرعي.

جحظت عينا المرأة، وقالت:

– «أدريان» له عشيقة وابن غير شرعي؟

– أجل...هو ذاك.

كشفتْ ركنَ كنبة صغيرةٍ مغطاة استعداداً للشتاء، وجلستْ قائلة:

– الأمر في ذاته لا يصدمني. ولكن ما كنتُ أتخيل أن يصدر هذا عن «أدريان»، فهو يبدو شديد التعلق بزوجته...ونشعر بقوة أن لديه همّاً مقيماً يزيده الكحول شدة لأنه لم ينجب.

أصابها الخبر بدهشة عارمة. فواصل حديثه قائلا:

– الحاصل، أن «أدريان»، بغضّ النظر عن كونه صديقي، هو المؤلف الذي يسهم أكثر من غيره في مجموع مبيعات دار نشري التي منها معاشنا على نحو ما، وهو يترجّاني أن أمدّ له يد المساعدة.

– أيّ مساعدة؟

– أن نستضيفهما معاً ما يكفي من الوقت. وعلينا أن نحسم الأمر الآن إن شئنا أن يتمكّنا من ركوب قطار الساعة السادسة وست عشرة دقيقة من صباح غد، قبل أن تبدأ الهجرة الجماعية.

فكّرتْ لحظة، ثم قالت:

– لا أرى كيف يمكننا أن نرفض له هذا الطلب. كم سن ولده؟

– حوالي ثلاث سنوات.

– وهل هو حقاً ابنه؟

– ينبغي أن نصدق ذلك بما أنه يقوله، فـ«أدريان» ليس من النوع الذي

يتبجّح.

وإن كان مدار الأمر على التبجح. فإن هذا سيبعث الحيوية في البيت. ولكنها مسؤولية جسيمة. تصوّر لو أن أحدهما أصيب بمرض.

– أعتقد أنه مدرك لذلك.

– إننا نزيد من احتمالات إصابتنا بالعدوى. خصوصاً مع طفل. إن الأطفال يصابون بأي شيء؛ لأنهم أضعف بنية. أنا على استعداد لقبول هذه المخاطرة، ولكني أرجو أن يعترف لك «أدريان» بالجميل لهذا الصنيع. لقد كانت بعضُ الصحف تلمّح، منذ وقت غير بعيد، إلى أنه يمكن أن يذهب إلى ناشر آخر.

– إنه صديقي ولن يتخلّى عني أبداً.

– خصوصاً بعد هذا! إلا إذا علمتْ «ريتا» يوماً أننا كنا متواطئين معه، فأرادت أن تبعده عنا.

– هذا يفترض أن نَخرُج أحياء من هذه الحكاية.

– هذا هو المبدأ الذي تقوم عليه كل حكاية.

– إذن، ما جوابنا له؟

– الموافقة، طبعاً.

– حسناً، سأخبره بذلك.

ابتسم لها ابتسامة اعتراف، ثم أفرغ ما في كأسه. نظرتْ إليه، مخمّنة أنه سيفتح هاتفه بحضورها، ولكنها إذ رأت أنه لم يَطرَفْ له جفن، قالت:

– سأذهب لأنام. أتصوّر أنك ستنتظر الأولاد.

– نعم، أرجو ألا يوقظوك. ولكن البيت صامت جدّاً. إني لأتساءل ماذا سنفعل مع طفل في الثالثة من عمره يعدو في كل مكان.

– سنفعل معه ما كنا نفعله مع أبنائنا حين كانوا في الثالثة، ولكنك لم تعد تذكر ذلك.

قطّب حاجبيه وقال:

– على كل حال، أبناؤنا، كما تقولين، لن يصلوا قبل ساعتين على الأقل. سأخرج؛ لأتمشى قليلاً في الليل ما دام الموت لا يحوم حولنا.

– يا إلهي، ما أقدرك على أن تكون منفرا أحياناً! لاتنس أن تتّصل بـ«أدريان».

– كلا لن أنسى ذلك.

*

أغلق سترته ثانية، وأخذ قبّعته مجدداً وضغطها على رأسه بأعمق مما كانت قبل ربع ساعة وخرج. حين قدّر أن صوته لا يمكن أن يبلغ البيت اتصل بصديقه. لم يكن «أدريان» متجاوباً معه حقاً؛ لأن الساعة كانت متأخرة، ولأنه أفرط في الشراب. عاد إلى رشده، فقط ليبيّن له أن زوجتيهما الشرعيتين لا تتبادلان من التقدير ولا من الكره ما يكفي؛ ليمنعهما من إثارة الموضوع بينهما يوماً ما. وأن المسألة، من زاوية روائية بحتة، لا تستقيم. فكل من يعرفه قليلاً يدرك أنه كان يجد من العسر في تحمّل حياة واحدة ما يصرفه عن اختراع حياة ثانية. ولكن يمكنه أن يعوّل عليه. وقطعَا المكالمة.

هذه المرة اقتربت الخيول منه مستغربة أن تراه يذرع المكان في تلك الساعة المتأخرة.

بسط لها من الحجج ما يفوق الخيال؛ ليقنعها بركوب أول قطار مع ابنها.

أجابته غير مصدّقة:

– أتريد أن تعيش مع زوجتك وعشيقتك في بيت واحد؟

ذكّرها بأن المسألة هي بالذات مسألة حياة وموت، وأن هذه الحكاية البسيطة هي من قبيل المسرحية الهزلية الخفيفة مقارنة بالمأساة التي توشك أن تحلّ بنا. وبما أنها لم تكن لتتجاوب معه، فإن الروائي المغيظ الذي تلبّسه انبرى يصف لها القيامة القادمة – التي يغدو طوف «الميدوزا»[1] إذا ما قورن بها

(1) «طوف الميدوزا» (Le radeau de la Méduse) لوحة للرسام «تيودور جيريكو» أنجزها بين سنتي 1817 و1819 وصوّر فيها الأهوال التي شهدها ركاب الفرقاطة «الميدوزا» سنة 1815 في طريقهم من

مجرّدَ نزهة بحرية يقوم بها مصطافون محظوظون. بدت دائخة، ووعدت بأن تركب أول قطار. سيُسكنها في أجنحة خدمة تتمتع فيها باستقلالها. كان في قمة السعادة أن استطاع أن يحميها...سألته إن كان يحبّها...لم يكن بإمكانه أن يعطيها دليلاً أفضل على حبه من دعوته إياها، لتكون بين أفراد أسرته. كانت مرتبكة، أنهت المكالمة لتشرع في إعداد أغراضها.

اغتبط ثانية بهذه الليلة المنيرة التي أتاحت له أن يتمشّى بحرّيّة إذ كان في حاجة إلى ذلك. فكر في «أدريان» وهو ثمل إلى حد العجز عن الكلام. الأرجح أنه لن يذكر غداً من محادثتهما شيئاً. لقد شرع يشرب مذ عرف النجاح كما لو أنه كان يريد أن يعاقب الكائن النكرة لخروجه من جحره. طالما قد تصور أن الحق كان حليفه ضد الآخرين. إنّ تكاثر عدد هؤلاء الآخرين الذين صاروا اليوم يصوّبون رأيه أمر يدمّره. أما هو، الناشر، فقد كان يستفيد من ذلك. كان ذلك الضيق ينمو لديه، فلا يزداد إلا يقينا بأن نصوصه لا تعدو أن تكون بضاعة رائجة. كان يحقد بعض الشيء على الرفيق القديم، ولكن لا على المؤلف. لا ذنب له إن لم يكونا إلا شخصاً واحداً.

كان الليل يسكّن روعه، وكان يتساءل: أنّى للّيل أن يبعث الحيرة في النفوس؟ فكّر أن الأمر ربما كان كذلك؛ لأنه لم يحفظ في أعماقه أي نصيب من طفولته. لا رغبة لديه ولا تطلّع، لقد كان مرتاح البال.

منذ أن كان في السن التي تسمح له بملاحظة ما يحيط به، لم يَر البركة جافّة أبداً في هذا الوقت من السنة. كان البط يتخبّط في كتلة لزجة ضاربة إلى السواد. التف من حولها؛ ليبلغ الغابة. ما كان له قط أن ينأى عن هذه المزرعةأبداً. لم تُنِلْه حياته شيئاً، إلا ربما صورة رجل استسلم لواقعية العوام، ولم يعد يبحث عن إنكار الحقيقة بقدر ما صار يريد أن يهرب منها. لقد أصبح صورة كاريكاتورية مثلى للبرجوازي التقدمي. لم تكن ميول قلبه تقف عند حد طالما ظلت بمعزل

---

فرنسا إلى السنغال. (المترجم).

عن ماله. لقد كان يتكلم كثيراً باسم القيم المقدسة، وينتمي إلى تلك الزمرة من الناس الذين يصادرون النور الوسائطي باسم حسن نواياهم المزعومة...

كان المبنى المهيب رغم تواضعه يتجلّى واضحاً في ضوء القمر. كان يذكر إلى أي حد دميت يداه من أجل تلك الصخور. حتى تعود إليه ملكيتها بعد انقضاء سنوات طويلة على وفاة أبيه. وفي هذه الإضاءة القمرية كانت المادة الجامدة تسحق الوعي البشري. قال في نفسه: «من لا يفكر يعشْ طويلاً». ولكن حين يغيب هو عن الوجود، فإن أولاده الذين أوشكوا على الوصول ربما تخلصوا من هذه الكتلة الهامدة، المكلفة، ومما يَعمُرها من ذكريات. هذا إن عاشوا بعده. وهو في هذه الحال أغلى أمانيه.

خطرت بباله زوجته، التي لم يحبها أبداً، والتي لا تستحقه. وعشيقته التي كانت لا تتذمر، وتحترمه وإن كان لا يَعِدُها بشيء أبداً. ربما لم تكن هذه ولا تلك تكنّ له حبّاً صادقاً. كانت المجازفة التي يُقدِم عليها بالجمع بينهما لا تحقّق له أي متعة.

كانت الساعة قد قاربت الثالثة حين وصل الأولاد من «باريس». لقد أصابتهم تلك الطريق الطويلة بشيء من الملل. كانوا قليلي الكلام، ولكن هذا دأبهم تقريباً، إما أن يقولوا كل شيء، وإما أن لا يقولوا شيئاً. كانوا قد تجاوزوا السن التي يرون فيها هذه الحكاية مغامرة، على الرغم من أن الكارثة كانت لا تزال عندهم مستقبلاً غامضاً. أمَرَهُمْ أبوهم بالصمت. فذهبوا إلى النوم، وهو تصرف مفاجئ منهم، إذ العادة، لا بل حتى الأمر الذي غدا تقليداً ألا يُخلِدوا إلى النوم إلا إذا أخذ منهم الإرهاق كل مأخذ.

*

في بواكير الصباح الذي أضفى عليه ندًى حييٌّ مسحةً من بياض، كانت زوجته أول من هبّ. كانت على أهبة الحرب، ولم تلبث أن أيقظته. كانت

خطتها أن يصلا إلى متجر «فيرت» الكبير ساعة فتحه الذي يبعد ثمانية كيلومترات. وأن يتنقلا بينه وبين البيت ذهاباً وإياباً أقصى ما يستطيعان محمّلين السيارة كل مرة بضروب المؤونة. كان المسلك الصغير المؤدّي إلى طريق المقاطعة يتلوّى وسط الغابات. قطع الطريق أمامهما يحمور واختفى في تلك الغابة التي كان القطافون يتنافسون فيها أيام مواسم الكمأة على تحسين محصولهم. وبعد مسافة قليلة حذت حذوه خنزيرة برّيّة، غير عجلى، واثقة من الحقّ الذي تخوّله لها ذرّيتها التي كانت تنطّ خلفها مكوّنة رتلاً.

باح لها بقوله:

– في هذا المكان كان يتعيّن علينا أن نعيش. علينا دائماً أن نعيش في الأماكن التي يكون فيها الموت أسهل.

حدجته بذهول، وقالت:

– إن سوداويتك محزنة في الأزمنة العادية بما يكفي حتى لا تبالغ فيها في هذا الوقت، أليس كذلك؟

– خلافاً لما يبدو أنا على خير حال. لقد أكثرتُ من المشي، والتأمل هذه الليلة. وهذا أراحني.

– ما كانت تأمّلاتك مثلاً؟

– من الصعب أن نلخّص ذلك في لحظة. ولكني أعتقد أنني بعد هذا الذي حدث، إن كُتِبَ لي أن أخرج سالماً، فلن أكون أبداً الشخص نفسه.

– هذا دائماً ما نحدّث به أنفسنا في الظروف التي تقودنا إلى ما هو جوهري. بَيْدَ أننا إذا مرت تلك الظروف بسلام لا نوفّق إلى أن نَثبُت على آرائنا. لا بد من شيء من الروحانية؛ لأن نجيز لأنفسنا هذه العقلية، وهذا أمر لم تُنَشَّأ عليه.

– أتعنين أننا قادرون في أحسن الحالات على بعض العبادات المترمّتة؟

– فعلاً، أما الروحانية فهي أن تُلقِيَ في العراء أناكَ الغربيَّ المتضخم. هل

تأنس في نفسك القوة على فعل ذلك؟

– لدي إحساس بأن أناي هو الذي سيكون على استعداد ليتخلّى عني.

– إنه مجرد إحساس، لا عليك، فحين تقضي يوماً بباريس سترى أن الأمور تعود مهرولة إلى طبيعتها.

– لقد سئمتُ من المعرفة، ومن أنّني لا وجودَ إلا في نظر الآخرين.

– أنت تعاني من اكتئاب.

– كلا، بل إنني أعتقد أنني بدأت أُشفَى من اكتئاب لازمني منذ ولادتي.

قالت مازحة:

– عجيب، هذا سبق إعلامي.

لم تكن طريق المقاطعة أكثر اكتظاظاً من العادة. لكل أسلوبه في السير، التجار يسرعون، أما الريفيون الأصيلون فيتباطؤون.

كان متجر المحافظة الكبير في مدخل البلدة. إنه مركز وادي «فيرن» الذي لا يعرفه إلا المختصون في الحروب الدينية. لقد وقعت هاهنا مذابح كثيرة بين الكاثوليك والبروتستانت في زمن كان فيه الدماغ البشري، الذي لا يكاد يفوق أدمغتنا اليوم محدودية، يُجيز القتل والموت باسم الإله، مسبغا على النزوات الإجرامية سمة القداسة.

كان موقف المتجر الكبير تحتيّا. من نظرة خاطفة، كان المرء يدرك أن اليوم ليس كسائر الأيام. كان الموقف مزدحما، وكان عدد من سيارات الدرك واقفاً أمام المدخل الرئيسي. انحدرا إلى الموقف، وحاولا أن يعثرا على مكان يركنان فيه السيارة، ولكن بطبيعة الحال لم يكن هناك مكان واحد. لامس أحدُ القرويين سيارتهما، وكان يرتدي قميصا قصير الكم، فسألاه عما يحدث في الداخل. فقال:

– إن رجال الدرك يمنعون الناس من نهب ما يفيض على حاجاتهم الضرورية. يبدو أن تلك هي التعليمات، ينبغي أن ينال كل نصيبه. لا أتصور

المشهد الذي يمكن أن يسود المدن!

ثم انطلق مرسلاً ضحكة مجلجلة، وألقى عليهما التحية. عادا على أعقابهما. رغب في تشغيل المذياع، ولكن في اللحظة التي كان يضغط فيها على الزر أوقفته قائلة:

– لا أرى ما الذي يمكنهم أن يُشدُوه إلينا، اللهم إلا أن يُدخلوا في نفوسنا الرعب.

ركنَا السيارة على حافة الطريق في مخرج القرية. كانت السيارات تتقاطر في الاتجاه المعاكس. قال:

– أخيراً سيعرف الناس قيمتهم.

وأضاف بتعالم، وهو عمل كان يتقنه في أقل المناسبات ملاءمة لذلك:

– حين أقول الناس فأنا أعني أنفسنا كما أعني كل هؤلاء الأشخاص الهائمين هنا، والحضارة عموماً. أخشى ألا يخرج أحد من هذا الوضع كبيراً، ولكن من يدري، ففي هذه الحوادث عينِها نرى أيضاً تصرّفات بطولية.

نظرت إلى ساعتها وقالت:

– لا ينبغي لك أن تتباطأ. لا تنس أن عليك أن تذهب إلى محطة القطار، وإن قدّرتَ المسافة بساعة ونصف فالاستعجال ضروري.

*

حين دخل مدينة «بيريقو» قبل خمس وأربعين دقيقة، خيّل إليه أن اليوم يوم الفاتح من مايو. ففي كل زاوية من زوايا الطريق بائع زنبق الوادي، مع أن الزنبق لا يزهر في الربيع. رجال ونساء كانوا يزوّدون أهل المدينة ببزّات عازلة، وبكتيّبات تشرح طرق استخدامها وغسلها. كان الذي يتولّى التوزيع يصيح في الناس أن يلزموا بيوتهم ما أمكن، وأن يتركوا البزّات في الخارج، وأن يمنعوا الحيوانات من الاقتراب منها، وأن... لم يسمع البقية. بعد أن امتطى سيارته من

جديد تبيّن أنه اشترى ثماني بزّات للكبار. عاد لشراء بزّة للأطفال، ثم قصد محطة القطار. لم يشهد طوال حياته ازدحاماً كهذا. كان المسافرون النازلون من القُطُرِ تتشبث بهم أسرهم المذعورة. وصل القطار الذي كان ينتظره في موعده، في حين تم الإعلام بأن القُطُرَ الموالية ستتأخر تأخراً مرعباً. نزلتْ من القطار أمْيَل إلى الأناقة، وكانت تمسك ابنها بيد، وباليد الأخرى حقيبة بنّيّة متوسطة الحجم. في الدقائق الأولى لركوبهما السيارة منعهما شغب الطفل من أن يتبادلا الحديث، ثم حدثت معجزة السن فاستسلم للنوم. كانت تنظر من خلال النافذة وتتعجب من المناظر الطبيعية.

– عليّ أن أشرح لك مع ذلك كيف سوّغتُ قدومك لزوجتي.

أجابت معتذرة عن إهمالها هذه البديهية:

– نعم، بالتأكيد.

– ذكرتُ لها أنك كنت عشيقة أعزّ أصدقائي، «أدريان كيرين» الكاتب. أتعرفينه؟

– كلا، ولكني أعرف أنه صديقك وأنه مشهور.

استدارت نحو جانب عشيقها، الذي بدت عليه علامات التمزق، قائلة:

– إنه لعربون حب رائع هذا الذي وهبتَني إياه.

فاجأه قولها إلى حدّ أنه عطس. فأردفت:

– لو كانت امرأة غيري لما...أعني لما عرّضتَ نفسك لهذا الخطر. أمّا والحال على ما أرى...فإنك تثق بي ثقة عجيبة.

– الحقيقة، أنني أنقذ حياتك، وربما أيضاً حياة الصغير. هذا أقل ما يمكنني القيام به.

– ومع ذلك فهذا يثير مشاعري.

شرد ذهنها لرؤية بيت جميل حجارته صفراء مستند إلى الغابة، ثم أضافت:

– ولكنك تعلم أنني لن أفعل أبداً شيئاً لا يرضيك، ولن أتعدّى على نظام حياتك. وفوق ذلك، ما الذي يُثبِت أنني أريد أن أستأثر بك؟ وعلى كل حال فمن ذا الذي يريد سماء زرقاء وشمسا ساطعة كل يوم؟ وباختصار فأنا أتصوّر أن كل ما تفعله هو من أجل الصغير.

– حقاً؟ ولمَ؟

– هدّئ من روعك. أنا لا ألومك، ولكني لا أعتقد أنك يمكن أن تعرّض رفاهية عيشك للخطر فقط لأجلي. أما هو ففكرك ينشغل عليه.

– إنه لجائر رأيك هذا.

– جائر، إلا أنه قريب من الصواب. ليس بيني وبينك أي صلة رحم. تكفي خصومة كبيرة بيننا؛ لأعود غريبة. والمرء لا ينقذ حياة غريبة. لننس هذا، رجاء. أشعر أنني أضايقك.

تنفّس بصوت مسموع، والتفت ليلقي نظرة على الطفل الذي كان ينام متقوقعاً على نفسه على المقعد الخلفي. ثم همس:

– إنْ سلّمْنا بأنّك على حقّ، فينبغي إذن أن أشعر في أعماقي بأنك لا تحبينني حقاً.

– ولكنك قد لا تتحمل أن أحبك حقاً. قد تكفّ عن حبي في اللحظة التي تدرك فيها ذلك. تذكّر أول مرة تناولنا فيها العشاء معاً، حينها سألتك بسذاجة مطلقة عن أبغض الأشياء إليك في المرأة. أتذْكُر بم أجبتني؟

– لا.

– لقد أجبتني حرفياً: «ذلك الجنون المتمثل في اعتقادها بأنها تحب الآخر أكثر مما تحب نفسها».

– فعلاً، ليس ثمة أسوأ من أن يكون المرء محبوباً من غيره أكثر مما يحب هو نفسه، فهذا يعطي الانطباع بأن الآخر ينقصه العقل.

حوّلا الاتجاه إلى مسلك ضيّق إلى حدّ أن سيارتين لا تكادان تتقاطعان فيه.

أمسكت بيده، ولكنها أحسّت لديه حركة مقاومة لا إرادية، فقالت:

– لا تشغل بالك، فهذا الاستطراد، الذي نرجو ألا يكون إلا استطراداً، لن يغير شيئاً. فلن يكون عليك أبداً أن تختار بيني وبينها.

– حقاً؟

– طبعاً، فالإمكانية الوحيدة لك في هذا الخيار ستؤدي بك إلى أن تتخلى عن الجميع. أعرف أنك قادر على ذلك. أعرف أنك تستطيع أن تتخلى عنها، ولكنك لن تفعل ذلك من أجلي. وبما أنك لا تطيق الوحدة فإنك يمكن أن تستقر مع أي شخص. نحن متفقتان، أنا وهي. الفرق بيننا أنني الوحيدة التي أعلم بالأمر. وهذا الطفل قريب منك لأوّل مرة، ما أثر ذلك في نفسك؟

– أتصوّر أنّ وجوده يريحني.

وعند تجويف على حافّة الطريق التي كانت تقتطع جزءاً من أحد حقول الذرة، طلبت منه أن يتوقف ليتحدّثا عن «أدريان».

– عليّ أن أعرف عنه المزيد، بما أن المفترض أن أكون عشيقته.

– بالتأكيد، ولكن لا شيء يجبرك على أن تتحدّثي عنه.

– بلى، وإلا غدت أوقات الصمت أثقل من أن نتحملها. أريد قبل كل شيء أن أشكرها لاستقبالها إياي، إذ علمتْ بحالتي. قد لا نثير الموضوع أبداً ثانية. ولكن إن فاتحتني فيه مرة أخرى، تعيّن عليّ أن أعرف عن الرجل ولو القليل القليل.

بدا مرتاباً، وأجابها:

– ماذا بإمكاني أن أقول لك عنه غير أنه آخر من يمكن أن يفكر في أن تكون له حياة مزدوجة، وأنه بالتأكيد قد لا يملك القوة الأخلاقية، ولا البدنية على اتخاذ عشيقة.

– هل هو صديقك حقاً، أم إنه قبل كل شيء الكاتب الأكثر أهمية في دار نشرك؟

– سؤالك جارح.

– هيا دع عنك هذه المسرحية.

رأى سنجابٌ صغير السيارةَ متوقّفة، فقرر أنه بمنجاة عن الخطر، واستأنف أنشطته على المكشوف. كان الحيوان منهمكاً في حركات نشطة ودقيقة ومتشنجة.

– هو حقاً صديقي، وهو كاتب مجيد. إنه معذَّب جداً بطبيعة الحال، إذ هو ككل روائي ملهم، يواجه العالم كما هو، مجرداً من الزخارف التي تساعدنا على الحياة. وهو أيضاً شخص متواضع، ولكنّ له طموحا يفوق الحد. هو يطلب الخلود، ولكنه يشعر أنه لن يدركه؛ لذلك يدمّر نفسه بالكحول والسجائر، ليزيد من حظوظه في تقصير حياته في هذه الدنيا. وهو لا يتمتع بشيء؛ لأنه مسكون بفكرة مكانتِهِ كاتباً في مقام الخالدين. ومن المفارقة أن ذكاءه الخارق لا يقوده حتى إلى أن يتساءل عما إن كان للإنسان مستقبل على وجه هذا الكوكب.

– إن حكاية العشيقة حينئذ ليست قابلة جداً للتصديق؟

– لا، حقيقة.

– وزوجتك هل تعرفه جيداً؟

– إلى حد ما.

– وهل زوجتك ذكية؟

– إلى حد ما.

– إلى الحد الذي يكفيها؛ لتعلم أن صديقك ليس من النوع الذي يمكن أن يغامر باتخاذ حياة مزدوجة، والحال أنه لا يستطيع لأن يتحمّل حياته الأولى؟

– نعم، ولكنك في وضع يمكّنك من أن تعلمي أن للنساء شكلاً من أشكال التسامح إزاء تناقض الرجال. فهذا يدهشهن. وهذا من جنس الدهشة التي تثيرها فينا حاجتك إلى أن تستقرّي وتتزوّجي...

– الحاصل أن ابني يُفترَض أن يكون منه.

– لولا ذلك، لربما كانت زوجتي تحفّظت في السماح لك بالقدوم. وإلا فما عسانا نضيف؟ هو شخص لا مبال في ظاهره، ولكنه في الحقيقه مصاب بجنون العظمة. وهو مالتوسي[1]، مالتوسي جداً، يؤمن بأن سبب تعاستنا جعل الفقراء يعتقدون أن الأطفال ثروة حقيقية.

– هو إذن سعيد بما يحصل.

– لم أُثِر الموضوع معه في الحقيقة، ولكني لن أستغرب أن أراه يستحسنه كما لو أن الطبيعة كانت تضطلع بالتعديل الذي لم نجد من الذكاء ما يجعلنا نفرضه بأنفسنا.

– ما زال السبب الذي يمكن أن يدعوه إلى اتخاذ عشيقة غير مفهوم. أهي أسباب جسدية؟

– كلا، زوجته مصابة نوعاً ما بالهستيريا، يمكننا أن نتصور أنه بحاجة إلى عطلة.

– بحاجة إلى امرأة تصغي ولا تقول شيئاً؟

– أو إلى امرأة لا تنقطع عن الكلام، ولا يكون مجبراً على الرد عليها.

– أيّ المرأتين أكثر واقعية؟

– الأولى.

– جيّد، هكذا يصبح دوري أوضح.

– ها هي الممثّلة تتكلّم.

– غير أنّي لم أكن بارعة جداً في التمثيل، شأني في كل ما فعلتُه.

كان السنجاب قد اختفى، ولكن شعاع الشمس الذي كان يتسلل عبر

(1) نسبة إلى «توماس روبرت مالتوس» (Malthuse) (1766–1834) وهو باحث اقتصادي إنجليزي يرى صلة بين عدد السكان والنمو. فكثرة السكان تؤدي إلى نقص النمو. وقد وظفت نظريته في حالات إبادة جماعية وتعقيم عرقي للزنوج والهنود الحمر والفقراء في أمريكا والاتحاد السوفياتي سابقا وغيرهما (المترجم).

أشجار القسطل السامقة كان يعطي الانطباع بأن الأرض التي كان ينيرها يجلّلها الدخان.

– ما كان ينبغي لكِ أن تقولي هذا.

– اسمع، لم أحقّق كبير نجاح في حياتي الاجتماعية. ولكنني أدبّر أمري، ولا ينقصني شيء، وأنا حرة. ليس لي بالتأكيد ما أشتري به بيتاً ريفياً. ومن ثمّ فإن الممثّلة القديمة التي تعوزها الموهبة تصعد من جديد على الركح؛ لتؤدّي دوراً لا يتناسب معها في مسرحية فاشلة؛ لأننا نعلم أن السيناريو الأصلي غير واقعي.

– لا تقلقي.

– بلى. أقلق. فلا يعلم أحد عاقبة الأمور.

– من أيّ ناحية؟

– لست أدري. إننا نلعب بالنار. فقصتنا يمكن أن تنكشف فتضطر إلى أن تهجرني إلى الأبد. وفوق هذا فها قد انقضت ساعة تقريباً على اجتماعنا، وثلاثة أرباع الساعة على نوم ابننا، ولما يخطر ببالك أن تقبّلني. أتدري ما الذي أشتهيه؟

– لقد ذكرتِه الآنَ.

– كلا، أفضل من ذلك.

– أنا أيضاً أشتهي ذلك، ولكن ليس لنفس الأسباب.

– لأيّ الأسباب إذاً؟

– قلق منتشر بعض الشيء.

– بسبب ما سيقع؟

– ولا حتّى بسببه، إنه أمر كثيراً ما ينتابني.

– ليس وليد اليوم إذاً.

– كلا، ولكن أحياناً تأتي فورات أكثر عنفا من غيرها.

– هل تستطيع أن تنسى لحظة ثورات قلقك، وتشعر بميل عاطفي خفيف إلى شخص ما؟

– إنني لأطرح السؤال على نفسي.

– ما رأيك في أن نذهب إلى نبت الحراج؟

تطلّع إليها مبتسماً وأجاب:

– ستتاح لنا فرص أخرى. لسنا مجبرَيْن...

– هو كذلك.

حين عادا إلى السيارة، ظلت هنيهة صامتة، وفتحت نافذتها لتستنشق هواء الريف.

– تخيّلْ ماذا كان يمكن أن تكون الحياة لو كنّا متحابَّيْن؟

وضَعَ استيقاظُ الطفل حدّاً لمحاورتهما. كان من العسير عليها أن تستنبط أجوبة عن أسئلته: «أين نحن؟ ومن هو السيد الذي في السيارة؟». تحدثتْ عن «السيد» بوصفه صديقاً سيقيمان في بيته في الريف خلال أسابيع عديدة.

سأل الطفل:

– الريف الحقيقي؟

*

حاولت زوجته سُدًى أن توقظ بنتيها حتى يعيش الجميع إيقاعاً واحداً. كانت ودودة جدّاً مع الزائرة الجديدة وعاملتها معاملة زبونة في غرفة ضيافة. وفعلاً، فقد باحت لها بأنها كانت تحلم بأن تحوّل هذا البيت مع زوجها إلى غرف ضيافة، وأن تقيم فيه نهائياً. اكتفى هو بالتعليق قائلاً:

– يوم يكون عدد غرف الضيافة بقدر عدد السكان على هذا الكوكب، ستهبّ الوحدة على إنسانية مفعمة.

حدّثتها عن ألف مشروع آخر، تحوم حول الزراعة البيولوجية، وحين

انتهت من أحلامها، غيرّت الموضوع، وقد غدت أفكارُها لا تغيظ. وأخيراً ذكرت عدداً من الإجراءات ذات الصبغة المادية. عليهم أن يقنّنوا استخدام الماء، إذ لم يعد لهم من سبيل ليستخدموا الشبكة العمومية، وليس لهم علم دقيق باحتياطي البئر. وبالنسبة للغذاء إن أبدى كل واحد استعداداً، فبالإمكان أن يصمدوا إلى ما بُعَيْد الشتاء.

وبينما كانت الزوجة والعشيقة تزوران مستودع الحصيد الذي هُيّئ ليصبح شقة، رنّ هاتفه. كان «كيرين». ابتعد عن المرأتين؛ ليتحدث بأكثر حرية. كان مخاطبه بَعْدُ ثملاً وكان الظرف مسلّياً بالنسبة إليه:

– كيف حال عشيقتي؟

– على ما يرام.

– وابني؟

– بخير حال.

– هل قلتَ لزوجتك إنني اعترفت بالصبي أم لم أعترف؟

– قلت لها إنك لم تعترف به.

– إنك تجعلني في عينها دنيئاً حقاً. وبهذه المناسبة، وجدت اسماً جديداً للطفولة: هو الوجود القبلي. فهي حقبة من الحياة تحدّد سائر الحقب، بما في ذلك غالباً أسباب الموت. وفي غضون ذلك الوقت لا نكون أبداً في وضع يسمح لنا باختيار أي شيء.

– وسن الرشد، والوجود، كيف تعرّفهما؟

– بوصفهما الحقبة التي نتظاهر فيها بأننا نملك القرار في كل شيء.

– هذا جلي. وقد بينتُ لزوجتي أنك تهتم بعشيقتك جيداً من الناحية المادية.

– أجل، ولكن هذا، هذا لا يتطلب أي شجاعة؛ لأن المال لدي منه ما أريد. أليس كذلك؟

- ...

- لقد اصطدمتُ بجسم. سنّي سبع وأربعون سنة ونصف، وقد مات «ريمون كارفر»[1] في سن التاسعة والأربعين. أظنني سأكون في الخَبزة المقبلة.

- أي خَبزة؟

- الخبزة التي هي بصدد الإعداد، خمسة الملايين. لقد فكرت دائماً أنني سأموت بين السن التي مات فيها «تشيكوف» والسن التي مات فيها «كارفر»، أي بين الرابعة والأربعين والتاسعة والأربعين.

وأضاف بمزيد من الرقة:

- لا ضير في ذلك لو كان لي نصف ما لأحدهما من موهبة.

- لك ذلك، أؤكد لك.

- من يقول ذلك، الناشر أم الصديق؟

- إنه الصديق.

- على كل حال، الأمر واحد.

- كلا، ليس الأمر واحداً، فقد كنت صديقك قبل أن أكون ناشرك.

- مهما يكن من أمر فأنت توافق على أني رغم النجاح الذي حققته لا يمكنني أن أكون كاتباً مجيداً.

- حسبك، فلا صلة بين هذا وذاك. لا توجد أي علاقة بين المبيعات والموهبة.

- أنا لا أحدثك عن الموهبة، وإنما أحدثك عن العبقرية. الحاصل...

مرت لحظات صمت أردف بعدها بلهجة من الجذل الزائف:

- الحاصل أنني مدين لك بالمغامرة الروائية الوحيدة التي أمثّلها منذ زمن طويل. ليست من الكثافة الروائية العالية، ولكنك أحسنت اختياري.

(1) «ريمون كارفر» (Raymond Carver) قصاص وروائي وشاعر أمريكي، ولد سنة 1938 وتوفي سنة 1988. (المترجم).

فالشخص الوحيد الذي لم تكن له علاقة جنسية واحدة منذ ست سنوات أو سبع، يكتشف الناس أن له عشيقة وابناً غير شرعي في الثالثة من عمره. عجيب أن تكون فكّرتَ فيّ حتى أضطلع بدورك، أنت الذي تخون حتى عشيقتك الرسمية. إن الكاتب المجيد يمكنه أن يجد لذلك تفسيراً، ولكنك لست حتى شخصية في إحدى رواياتي. إن الحياة لغريبة الصنع. أنت تعيش، وأنا أكتب. ولا أكتب ما تعيشه.

– وتشرب.

– وأشرب.

– وتدخّن.

– وأدخّن.

– وما رأي «ريتا» في ذلك؟

– أتعرف من كانت القدّيسة «ريتا»؟

– أجل، توجد كنيسة باسم القدّيسة «ريتا» غير بعيد عنا. إنها راعية القضايا الميئوس منها.

– على أني لست قضية ميئوساً منها. فلا شيء يثبت أن الناس لن يخلّدوا ذكري بعد موتي. «ريتا» كانت غايتها أن تعيش مع كاتب ذي رواج. وقد كان لها ما أرادت. والآن، أن يُكثر كاتب ذو رواج من الشرب، فهي تعتبر ذلك جزءاً من التبعات الحتمية. وأنا أقدّر لها هذا الموقف. إنها ليست مثل كل أولئك النساء اللائي يسعين إلى تغيير رجالهن ما إن يحصلن عليهم. كلا، فهي لا تذكر لي أبداً شيئاً من هذا. لا يمكنني أن أخفي عنك أنني أحقد عليها قليلاً مع ذلك.

– لم؟

– ؛لأنها لم تعد تنشغل بصحتي، و؛لأنها تدعني أشرب على هذا النحو، ولأنها لا تحب فيّ الرجل أكثر مما تحب الكاتب. ومن جهة أخرى، فإنها إنما

اختارت الكاتب لا الرجل. ولكن ما قد لا تدركه جيداً، ربما لأنها ليست من الذكاء بالقدر الذي تصوّرتُه أول الأمر، هو أنه ما إن يموت الرجل حتى يتوارى الكاتب. إلا إذا عاش الكاتب بعد وفاته. ذاك ما راهنتْ عليه. وهو ما يخرجني عن طوري؛ لأنني أعرف أنها على خطأ، أتفهم؟

– أفهم، يا عزيزي.

– ترى، إذاً، أنه كان يمكنني أن أجد لنفسي مسوّغات مقبولة، لأتخذ عشيقة، امرأة تحبّني كما أنا على حقيقتي. وهو عين ما يقع لك، أليس كذلك؟ أجب، فالعشيقة هي تلك المرأة التي، لو كنتَ كاتباً، لما قرأتْ كتبك. أليس صحيحاً؟ اعترفْ بأن ذلك ينبغي أن يكون مريحاً إلى حد كبير. إنك تخون زوجتك ولكنك لن تهجرها أبداً.

توقف عن الكلام، ليشعل سيجارة وجذب منها إلى أن كاد ينقطع نفسه، وقال:

– لاحظ، لا تثقْ مطلقاً بالأحكام التي يبديها كاتب عن الناس. لقد كنت أشعر دائماً بأن زوجتك تحبك كما أنت. زوجتك امرأة جيدة، أتعلم؟

– ما دعاك إلى أن تقول هذا؟

– ؛لأنها نبيهة جدّاً. وأعتقد أنها تعرفني بقدر يكفي لتدرك أن هذه الحكاية برمّتها ليست من شيمتي.

– إذاً لِمَ هي لا تقول شيئا؟

– إنها تحب رجلاً ضَبطت حدوده. فِصامُكَ الذكوري لا يعنيها. إنها لا تريد أن تندسّ في عالمك. طبعاً، هذا في الوقت الراهن.

جذب من سيجارته نفساً كما لو أن دخانه كان يمتصّه معيُه الدقيق، وقال:

– الواقع أنني أعرفك بقدر كاف.

– إنه لأمر يكاد يكون طبيعياً أن يعرف المرء أصدقاءه.

– أصدقاء؟ أي أصدقاء؟ لا صديق لي سواك.

– لا، طبعاً، لا أدري...

– بلى، بلى، أؤكد لك. وفوق هذا، كيف تفسر أن يكون للإنسان أكثر من مليون قارئ عبر العالم، وصديق واحد؟

– هذا يحتاج إلى تفكير.

– نعم، إذاً بما أنك أنت الناشر فيحسن بك أن تُعمِل فكرك. كيف تفسر أن مليون إنسان يشعرون بحميمية إزاء شخص مثلي لا يشعر بحميمية إزاء أحد. إن في هذا لدليلاً على أني كاذب في كل ما كتبت، أليس كذلك؟

– كلا يا عزيزي. لنقل إنك مثلي مصاب بالفصام. ولكنك تتفوق علي بالموهبة.

– هل قرأت المقال الذي نشر في شهرية الكتب؟ إنّ قرّائي يعدّونني شخصا طيباً، متكتماً في وسائل الإعلام، مخرباً على نحو ما، ولكنه على الأصح يخرّب نفسه، ومن هنا فهو بداهة خفيف الروح. ويبدو أن كل نسخة من رواياتي يقرأها خمسة أشخاص.

– إن رواياتك أفضل من الكتب المثقلة بالجوائز السنِيّة والتي تهدى غالباً لأشخاص لا يقرؤون منها سطراً.

– ليست هذه القضية. فخمسة أشخاص لكل كتاب من كتبي يكوّنون خمسة ملايين شخص. وهو مجموع سكان النرويج. فالذين يلتهمون كتبي عبر العالم يساوون في عددهم سكان النرويج، وأنا ليس لي إلا صديق واحد، وفوق ذلك فهذا الصديق هو ناشري. هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟

– اطرح.

– في السياق الراهن، هل يبلغ بك الأمر أن تقبّلني من شفتيّ؟

– لستُ واثقاً من أنني فهمت جيداً.

– أعني الآن هنا، لا، ليس الآن وهنا، لنقل بعد أسبوع أو أسبوعين، حين يصبح كل منا خطراً حقيقياً على الآخر، هل ستكون قادراً على أن تقبّلني من

فمي؟

– وما الذي سيدعوني إلى ذلك؟

– لتثبت لي صداقتك.

– بصراحة؟

– بصراحة.

– أجل.

– لماذا؟

– لأنني لست واثقاً من أنني متعلق بالحياة إلى هذا الحد.

– هذا الذي تقوله حماقات. فأنت لا تسرف على نفسك في شيء. أنا لا أتحدّث عن مثانتك، وإنما أتحدّث عن رئتيك وعن كبدك. سيكون بإمكانك حينئذ أن تقبّلني، ولكن ليس من باب الصداقة.

– من باب الصداقة، بأمانة، لا.

– هذا فعلاً ما كنت أتصوّره. الصداقة مفهوم ضبابي.

– وهي تزداد ضبابية باطّراد، كالحب.

– بالنسبة إلى الحبّ، كنت أعرف ذلك. أما الصداقة فقد كنت أحافظ معها على ضرب من الوهم البطولي.

– ليس بهذا القدر، وإلا فما كنتَ لتتساءل لِمَ كان لديك كلُّ ذلك العدد من القراء. إننا نحب الآخرين لا سيما إن كانوا بعيدين. فما بالك إن كانوا معنويين. هذا باستثناء الأسرة. وهو أمر غير مؤكد. الدائرة تضيق. رجل المستقبل أعزب، لا يحب ولا يكره إلا نفسه. يعلن بصوت عال أنه يحب غيره، ولكن المجتمع بأكمله مبني على أساس ألا يقربه أحد أبداً و لا يطلب منه أي تضحية. وفي ضوء ما يحاك على أيامنا، نحن ندخل عالماً خيالياً، هذا إن لم يقتّل بعضُنا بعضاً. وإن تقاتلنا، فإنه سيتعين علينا أن نعيد كل شيء من جديد.

– برَجُل المستقبل هذا الذي اخترعتَه، كيف ستحلّ مسألة الجنس

والإنجاب؟

– الإنجاب مسألة سوق، ولا شيء يقف في وجه السوق.

– الجنس أمر أكثر تعقيداً. فاللذة غير الامتلاء.

– إنك بهذا عليم... حسناً، أتركك الآن. سأذهب لأسخن لنفسي شيئاً من القهوة. الطقس رائع في «دردوني». كيف هو في «نورماندي»؟

– إنه يوم من الأيام التي لم نكن نجرؤ على أن نتمناها منذ ثلاثين عاما في الشتاء. ما يبعث على الطمأنينة، كما ترى، هو أننا بطريقة أو بأخرى سنموت. بصدق أنا أرثي لأولئك الذين يتعلقون بالحياة ويقدمونها على كل شيء.

أحسّ فجأة بسأم من هذه المحادثة التي لم يعد يصغي إليها إلا لأن «أدريان» كان أيضاً كاتبه. أحس بعارض صدق يدعوه إلى أن يصارح نفسه بذلك.

– نعم، نتحادث قريباً.

– إن نزعتَ القناع فبإمكانك أن تتصل بي في أي ساعة من ساعات النهار والليل. فليس لي من وسائل التسلية الكثير. نحن مسمّرون على نحو ما.

– بالنسبة إليك، لستَ أكثر تسمّراً من العادة.

– لا، ليس أكثر. لقد اخترتُ هذه الحياة المنغلقة حتى لا أفعل ما يفعله الجميع. وها أن الجميع يفعلون ما أفعله، فينغلقون ولا يعودون يجرؤون على أن يتنفسوا الهواء فوق رؤوسهم.

– سأتّصل بك يومياً. لأعلمك بالتطورات التي يشهدها المسلسل.

– صحيح أننا نعيش من الآن فصاعداً في مسلسل.

وأخيراً افترقا.

*

عاد حالاً قرب المرأتين. كانتا قد استنفدتا مواضيع المجاملة. نزل الأبناء من غرفهم ونظروا إلى الصغير كما لو كان مخلوقاً غير عادي. أراد صديق ابنته

البكر أن يفتح المذياع، ولكنه منعه من ذلك بوضع يده على الجهاز، وقال:

– لا يُرجَى منه خير.

لم يتمسك الفتى برغبته، في حين خرجت «أود» من فتورها وقالت:

– الرجل المطّلع برجلين.

– بل، في عصور الحرمان هذه، من قلّ اطّلاعُه حسُنتْ حاله.

ثم أضاف:

– حسناً، لا يخرجنّ أحد قبل أن أنهي أمور البط.

اتجه إلى غرفته، وخرج منها ببندقية طويلة ذات ماسورتين. كان يستعد للقيام بمهمته بجدّ أثار ابتسام الأولاد. «ناتالي» البنت الصغرى التي دخلت الآن المطبخ قالت فجأة بلهجة متهكمة لا تتقنها إلا هي:

– هل قضي الأمر، وأعلن بدء العمليات؟

دوّت طلقات النار في حين كان الأولاد يغمسون خبزهم في قهوة الحليب الدافئة، والصبي يقلّب نظره في كل ما في الحجرة، والمرأتان تبحثان عن موضوع للحوار.

عاد مغيظاً.

سألتْه زوجته:

– ماذا حصل؟

رد بشيء من السخط:

– حصل أني قتلتها جميعاً، ولكن ما الذي سنفعله بها الآن؟

قال صديق «أود»:

– نأكلها.

– كلا، أيها الغبي. لو كنا سنأكلها لما قتلناها.

حسمت زوجته المسألة بقولها:

– ينبغي أن ندفنها.

امتنع الأولاد، أدباً منهم، عن السؤال المباشر عمن تكون المرأة والصبي الغريبان عن العائلة. بيّنت لهم أمهم أنها صديقة حميمة لـ«أدريان كيرين». كانوا يعرفون أن «كيرين» له عند أبيهم مكانة كبيرة من كل الوجوه. هذا من الأشياء التي تُعرف بسرعة في العائلة. ولكن توجد سنّ يكون فيها المرء نزّاعاً إلى المماحكة. كان ذلك شأن «ناتالي» التي سألت وهي تخلّل شعرها بيدها متظاهرة بالاسترخاء:

– ولكن لم لا يؤويها هو، إن كانت إحدى صديقاته. هو يملك بيتاً في «نورماندي»، أليس كذلك؟

وعلى الرغم من أن أمهم ذات بديهة حاضرة، فإنها لم تعرف كيف تردّ على سؤالها.

نهضت «أود» لغسل قدحها وانبرت تقول وكأن لا أحد يمكن أن يسمعها:

– ومع ذلك فإنّ هيئة «كيرين» هذه لا تدل على أنه يمكن أن تكون له حياة مزدوجة.

والتفتت إلى أختها الصغرى وأضافت:

– ألم أقل لك إنّ الرجال لؤماء. وكلما ازدادوا شيخوخة ازدادوا لؤماً.

ردّت عليها أمها، ناقضة الميثاق الضمني المبرم مع زوجها:

– ما زلتِ، يا «أود»، في سنّ لا تسمح لك بأن تصدعي بهذا الضرب من الحقائق.

–.كلا يا أمي، لست أصغر من أن ألاحظ هذا، وإنما أنا أصغر من أن أفهمه.

فقال صديقها محتجّاً:

– وهل أنا لئيم؟

– كلا، أنت من طراز آخر. لهذا وقع اختياري عليك. ولكني باختياري

إياك تنازلتُ عن أشياء أخرى.

– عمّ تنازلتِ مثلاً؟

– مثلاً، لا يمكن أن نقول إنّ لك شخصية قوية، ولكن هذا اختيار. ثم ما يعجبني فيك بوصفك رجلاً هو أنك لا تدّعي أنك شجاع. الجملة الوحيدة التي أذكرها من إحدى روايات «كيرين»، رغم أني أجدها على شيء من السطحية، تقول ما معناه: «بقدر ما يعظّم الرجل قيم الشجاعة يكون حظه منها أقل. والنساء أكثر تكتماً على المسألة لأنهن أكثر جبريّة».

انبرت الأم قائلة:

– أبنائي، نحن هنا جميعاً معاً لمدة طويلة مبدئياً في سياق غير بهيج جدّاً. لذا أرجوكم أن تستقيموا وأن تلتزموا بما قيل لكم. هذا سيكون أفضل.

*

بعد أن تولّى دفن البط، وجد نفسه مع عشيقته منفردَيْن قرب الحظيرة التي كانت تقيم فيها. وبينما كانت تقترب منه مبتسمة، دفعها بلطف إلى داخل المبنى. قالت:

– بالمناسبة، بيتكم بديع حقاً.

– كان بيت والدي. ثم بيع بعد وفاته، وأعدتُ شراءه منذ عشر سنوات. نحن لا نجيء هنا إلا في نهاية الربيع وفي الصيف.

– وهل أنت شديد التعلق به؟

– بالبيت؟

– نعم.

– ليس بقدر كبير.

– لِمَ اشتريتَه من جديد إذاً؟

كان الصبيّ يلعب في الخارج وكان بإمكانهما أن يلمحاه وهو ينبش التراب

بعصا صغيرة. شرعتْ تفتح حقيبتها البنّيّة وترتّب على الرفوف ملابسها وملابس طفلها. همس أخيراً:

– لمْ أطرح على نفسي هذا السؤال. كنتُ بحاجة إلى أن أفعل ذلك. لقد رسّختُ في ذهني فكرة مشبوبة مؤدّاها أن هذا البيت جزء من هويّتي. الحقّ أنه بيت متين، لا بل إنه صار ترساً يحمينا من العالم. واليوم، ها هو يضطلع بالدور الذي جُعِلَ له منذ أعدتُ شراءه.

نظر إلى ابنه وقال:

– علينا أن نتحدّث عنه وعنك وعنّي.

سألتْه وقد طفحت عيناها حناناً:

– فيما يخص ماذا؟

– ينبغي أن يعلم أن له أباً، وأنني أنا أبوه.

ابتسمتْ قائلة:

– بالتأكيد، ولكن ما زال في الوقت متسع. إن الحياة، كما قلتَ، تبدأ دائماً كما لو أنها قصة. المشكل هو أن نروي له القصة الجيدة، تلك التي لن تصيبه إلا بأقل أذىً يوم تنكشف الحقيقة. عليك فقط أن تساعده على أن يعتمد على نفسه.

*

كان ما يزال مصرّاً على عدم فتح المذياع، ولكنه حين رأى ابنه البكر قادماً، سأله عما كان قد سمع على موجات الإذاعة.

– لا شيء. كل الناس يحتمون ببيوتهم. كل الأماكن التي كانت محلاً للاجتماع هُجِرتْ. اسمع، بما أنك تخالط أوساط المجمعيّين، سيُقترَح عليهم قريباً لفظ جديد هو «اللا تجمّع».

اتّجها تلقائياً إلى قاعة الجلوس ووصّلا قابس التلفزيون بعد أن نفضا الغبار

عن الشاشة. كان الخيار محدوداً؛ لانعدام القمر الصناعي. أما المحطات القليلة الباقية فقد كانت تبث أشرطة سينمائية، كانت، ويا للغرابة، أقل عنفاً من المعتاد. فأشرطة الحرب الرائعة لا تلقى من الجمهور إعجاباً إلا في أزمنة السلام.

استنتج قائلاً:

– لن نعلم شيئاً إذاً.

كانت عينا الابن ما تزالان محمرّتين من جرّاء السفر بالسيارة. قال:

– بقيت الأنترنت لحسن الحظ.

– لقد حاولتُ هذا الصباح أن أتّصل فلم أفلح.

– لماذا؟

– نسيتُ أن أدفع الفاتورة. سأرسل صكّاً.

ضحك الابن بتهكّم وقال:

– لا جدوى من ذلك. لن يجازف أحد بفتح الظرف. تبقى الإشاعة.

– الوباء ينتشر بسرعة تفوق سرعة الإشاعة. والوسائل التي وُضعت لمحاربة الفيروس يُحتمَل أن تبلغ سرعتُها سرعة الإشاعة أيضاً.

– بناء على ذلك لن نعلم شيئاً عن أي شيء.

– الخطر كل الخطر ألا نكون على علم باليوم الذي نكون فيه بمنجى عن الوباء، أو بما إذا كان العلماء قد توصّلوا إلى إيجاد تلقيح.

– سيقع لنا في تلك الحال ما وقع لأولئك النرويجيين الذين ظلوا يقاتلون في حين أن الحرب العالمية الثانية كان قد انقضى شهر على نهايتها.

– مثلاً.

ثم جعل ملامحَه تبدو في أقصى ما يمكن من درجات الحياد قبل أن يعلن:

– ليكن في علمك أننا نؤوي، امرأة شابّة وابنها، لإسداء خدمة. هما قريبان جدّاً من «كيرين»، كاتبي الرائج جماهيرياً، وهو ،كما تعلم، عماد دار نشري.

– تجنباً لنزول هذه المرأة ببيته، وتَسبُّبِها في مشاكل؟

– بالضبط.

ولعل الابن، لمّا كان يشتغل في مرصد فلكي، لم تكن تستهويه الحبكات التافهة التي هي عند الإنسان إحدى تجليات المتناهي في الصغر. لم يطرح أي سؤال آخر. وأثناء تنقله من موضوع إلى آخر عاد إلى ما كانا فيه، وقال:

– أمر مؤسف أن نظلّ جاهلين بما يحدث.

صار الفتى الفلكيّ بالقوة مثيراً للاهتمام وهو يواصل حديثه:

– أجل، إنه الدمار الاجتماعي، والعودة القسرية إلى أمرين أساسيين هما: الخوف، والطمع. إن مجتمع الرحمة غائب مؤقتاً. أغلب السذج لا ينجزون ما وعدوا إلا في حضور شاهد. فإن غاب الشاهد غابت البيّنة، وإن غابت البيّنة غابت المروءة. وفي المقابل فإنّ المال سيُتداول بخبث في الأيام القادمة. ثمة أشخاص ماكرون من كل نوع سيستنبطون وسائل للكسب يمكنها أن تضمن مستقبل خمسة أجيال مقبلة من أعقابهم. وإلى ذلك سنشهد أعمالاً بطولية كما لم نشهده منذ أيام الاحتلال الألماني لفرنسا. ليس ضرورة من باب الاقتناع العميق، ولكن تحاشياً لأن يوصفوا باللؤم حين تكون كل هذه المهزلة قد انتهت. ما على المرء إلا أن يقرر أن يترك جاره يقضي نحبه أو لا، وإذا ما تجاوزت الأمور شهرين فإننا سرعان ما سنبلغ تلك الحالة.

– أرجو ألا نبلغها.

زايد ابنُه وقال مبتسماً:

– ذاك ما أرجوه، ليست لدي أي رغبة في أن أكتشف في تلك الظروف ما هو كامن في طبعي. لقد طوى جيلكم تلك الصفحة وبودّنا أن نفعل مثلكم.

*

حول مائدة الغداء كان كل واحد يبذل قصارى جهده متحمساً؛ ليثير

موضوعا تافها. ثم دار الحديث عن التنظيم. اتّفقوا على ترك البوابة مغلقة على نحو دائم حتى لا يسعى أيّ غريب إلى أن يدنو من القبيلة. تبادل نظرة مع زوجته، كانت نظرة رضا لرؤية هذا القدر من الاتفاق بين أبنائهما، وقد أسكت كلٌّ منهم صوتَ ذاتيته. وحتى صديق «أود» فإنه لم يحاول أن يفرض نفسه خارج الحدود التي ضبطَتْها له. كان الجميع يختلسون النظر إلى القادمة الجديدة ويعاملون ابنها الصغير كما لو كان منذ نشأته فرداً من العائلة غير أنه لن يظل كذلك إلى الأبد. كان كل منهم يدرك في أعماقه أن الوضع الذي كانوا فيه يشبه العُطَل الكبرى، إذ لا يوجد شيء يجبره على أن يستدعي من جديد نفس الأصدقاء في السنة التالية.

في نهاية الغداء نهض بعنف. كان البثّ الإذاعي قد انقطع، ولم يعد هناك بثّ تلفزي مباشر. لعل الأمر وقتي، ريثما تتكيف وسائل الإعلام حتى تجعل الأفراد يشتغلون دون أن يلتقوا. يمكن أن نثق بعبقرية الإنسان التقنية، فعما قليل سيتغلب على هذا العائق. ولكن ما كان يخشاه هو أن يُقطع الهاتف. انقضّ على هاتفه، واتصل بكاتبه وهو يتمشّى في المرج المحاذي للبيت من جهة الجنوب.

– لماذا تتّصل بي؟ هل افتضح أمرك؟

– كلا، ولكن؛ لأنّ الأخبار لم تعد تصلنا لا من الإذاعة ولا من التليفزيون. فإن حصل ذلك مع الهاتف، فلا أريد أن يذهب بك الظن إلى أنّي نسيتك.

– تقول إن الأخبار انقطعت؟ هذا مزعج. ولكن لعلمك، أنا لا أسمع الأخبار أبداً. غير أني كنت أعلم أنني إن أردت سماعها لم يعجزني ذلك، أما الآن...فهو الثقب الأسود. ولكن لعل الأمور أفضل بهذه الصورة، مما سيجنّب الناس أن يُرعِب بعضُهم بعضاً فيصبحوا خارج نطاق السيطرة. لحسن الحظ أنك نبّهتنا قبل الآخرين، فاستطعنا أن نشتري بعض المؤونة. طبعاً، أنت مدين في ذلك إلى السيد رئيس الجمهورية. ما حال الصغيرة؟

– على ما يرام. فالأولاد رحّبوا بها خير ترحيب، وكذلك فعلوا بالطفل.

– إنّهم يعتبرونني نذلاً.

– كلا. بل يجدونك شخصاً عادياً.

– بما أنني قلّما يعدّني الناس شخصا عاديا فإن ذلك يكاد يسعدني. أتعرف ما الذي أخشاه الآن، إن خوفي من الوباء دون خوفي من السأم. أعتقد أن حظوظي في أن أموت سأماً أوفر من حظوظي في أن أموت بسبب آخر. ولكن لا بد أن أكون ضحية إفراط في التفاؤل. ولو أني ذهبتُ؛ لأرى ما آل إليه المتحضرون، فلستُ متأكداً من أنني سأُشفَى من ذلك التفاؤل.

– أنَّى لك أن تعرف، فلربما فاجأك الأمر.

– الأمر الوحيد الذي يمكن أن يفاجئني هو أن أردّ الفعل على نحو أفضل من غيري.

صمت قليلاً ثم أردف:

– لو خُيّرتَ اليوم، مع أيّهما كنتَ تفضل أن تعيش؟

– اليوم لا خيار فعلاً لدي، أنا أعيش مع كلتيهما.

– قل لي، ما الذي تنوي أن تفعله مع الصبي؟ هل ستحاول أن تعطيه ما عجزتَ عن إعطائه لإخوته الكبار؟

– لماذا؟ هل تجدهم فاشلين؟

– بلى، إنهم رائعون أخلاقياً واجتماعياً. مشكلتك، وأنت أدرى بها، هي أنهم قاسون كثيراً في حكمهم عليك. وخاصة البنتين. وابنك أيضاً، وإن كان لا يُظهر لك ذلك.

– إن أردتُ لهذا الفتى المسكين أن يحترمني قليلاً، فإنه يتعين عليّ أن أخفي عنه حقيقتي بقناع. لست آنس في نفسي القدرة على أن أتمادى في كذبة طويلة كهذه، خصوصاً في سنّي.

– هذا ما كان الناس يسمّونه قديما بالتربية، أي أنهم لا يَظهرون كما هم

على الحقيقة. أما الآن فباسم مبدإ الحقيقة المقدس يتصرف كل واحد كما هو. وعما قريب سيتساءل الأولاد عما إذا لم يكن عليهم أن يربّوا آباءهم. وعلى هذا النحو، يتعين عليك أن تعترف بابنك.

– سأفكّر في الأمر. فاعترافي به يعني أن أكشف السر لزوجتي وفي هذه الحال سأفقدها. وإن هي هجرتني فسأواجه مصاعب مالية كبرى.

– اطمئن. فتلك «المصاعب المالية الكبرى» كما تقول، ستكون أقل مما لو كنتُ أنا الذي أهجرك.

– ولكن أنا على يقين من أنّك لن تفعل بي مثل هذا.

– ذلك؛ لأنك أنت أيضاً لن تفعل معي ما فعلتَه مع زوجتك.

أخذ يضحك في الهاتف، وأضاف:

– أنت لا تخدعني، ليس هذا وحسب، ولكنك تقدّم لي خدمة بأن تؤوي عشيقتي وابنها. حسناً، أرجو أن يكون بالإمكان أن يستمر اتصالنا هاتفياً. وإلا فسيصيبني السأم حتى النخاع.

– لم لا تكتب؟

– وعن أي شيء تريدني أن أكتب؟ هل تعرف أشخاصا نشروا نصوصاً قبل المحرقة بأسابيع قليلة، ثم اهتمّوا بشيء بعد ذلك؟

– على الأقل، حتى إذا كنا نخاطر بأن يزداد عددُ موتانا، فلا ينبغي على الإنسان أن يخرج من هذه المحنة ذليلاً إلى هذا الحد.

– الحقيقة أن هذه ليست أول مرة في تاريخنا تَقترِف فيها قوى لا قبل لنا بها مجزرة جماعية. تذكّر كيف خَتمت الحمى الإسبانية في نهاية الحرب العالمية الأولى العملَ المجيد الذي بدأه أسلافنا في الخنادق. لقد أجهزتْ على كل ما بقي من رجال ونساء وأطفال أوهنتهم مذبحةُ السنوات الأربع. دع عنك الأسباب التي أكّدها مؤرّخونا الفطاحل الذين يتميّزون بالتبسّط في الحديث عن نزاع لا معنى له. لقد كتبوا عن حرب 1914– 1918 عشر مرات أكثر مما كتبوا عن

الأنفلونزا التي تلتها. ومع ذلك فقد كانت تلك الأنفلونزا أكثر نجاعة في توسيع المقابر من الحرب نفسها. غير أن الموت بتلك الأفلونزا الشهيرة ليس كالموت في ميدان الشرف. سترى أن التاريخ لن يولي متاعبنا من الأهمية أكثر مما أولى وباء الكوليرا الأخير الذي عصف بجنوب فرنسا. ولولا «جيونو»[1] وروايته «جندي الخيّالة على السطح» فمن يا ترى كان سيذكر تلك الأنفلونزا؟

– عليك أن تكتب حول هذا الموضوع.

– كلا وألف كلا. دع كل مؤلفي التفاهات الذين سيخرجون سالمين من هذه المأساة يبحثون فيها عن نجاح لم تستطع العصور المستقرة أن تهبهم إياه. إنهم لمخطئون، فلن يبقى من هذه الحادثة شيء، وستتناقص قيمتها يوماً بعد يوم. وسترى أن «السوق» ستبذل كل ما تستطيع لمحو الآثار بأسرع وقت، ولن يكون في وسع أحد أن يَهَبَ نفسَه متعة التفكير أو الإفلات من متلازمة المستهلك المرتاح والمنضبط.

– ألم يُصَبْ أحدٌ حواليك؟

– لا أحد. ولكن هذا لا يعني شيئاً، فالناس من حولي قليلون. وكيف الأمور عندكم؟ أريد أن أقول إنه ليس ضرورياً أن يحكم الإنسان على نفسه بالإقامة الجبرية، وإن كان مع أسرته. أما بالنسبة إلينا فنحن دائماً متلازمان. وهي لا تكتسح ذهني أكثر مما تكتسحه عادة. ولكن أنتم؟

– فعلاً، إنه لأمر لا يصدّق أن ترى إلى أي حد تعاطفت أم الصغير مع زوجتي. لقد أصبحتا تتحادثان طوال ساعات، وتطبخان معاً، وتسهران معاً قرب المدفأة ليلاً، تروي كل منهما للأخرى حكايات طفولتها.

– لا غيرة؟

---

(1) «جان جيونو» (Jean Giono) (1895 – 1970) مؤلف وكاتب سيناريو فرنسي جل أعماله مستوحى من البيئة الريفية. تتناول رواياته منزلة الإنسان في العالم في مواجهة القضايا الأخلاقية والماورائية. من أبرز أعماله الروائية سلسلة «جندي الخيالة» وقوامها أربع روايات هي «أنجيلو» و«جندي الخيالة على السطح» و«السعادة المجنونة» و«موت شخصية». (المترجم).

– أبداً، فهذا شعور لا تعرفه زوجتي.

– أو أنها لم تُرِدْ قطّ أن تكشفه لك.

– ربما. أما أنا فأنفصل عن الجميع. لست متواطئاً مع أحد، لا مع الأولاد ولا مع المرأتين.

– وفي الخارج، ما الذي يحدث؟

– لا أعلم، ولا أريد أن أعلم. عندما سافرتُ، قلت لكاتبتي أن تتّصل بي هاتفياً يوم ترى أن الأمور عادت إلى نصابها. لم يصلني منها خبر.

– قد تكون الأمور عادت إلى نصابها ولكن الكاتبة توفيت؟

– أرفض أن أتصوّر مثل هذه الأمور.

– في بيتي، أشاهد القرية من فوق، و ما زال الذهول يغشاها. لا حركة فيها تقريباً. وحين يجازف أحدهم بالخروج، يمرق تحت بدلته المطاطية للغوص. ولكن بصدق، بالنسبة إلى قرية بصغر قريتنا، أرى أن الحركة لا بأس بها أمام المقبرة. فسيارة نقل الموتى تُفرغ حمولتَها مرة في الأسبوع على الأقل. هكذا إذاً يا عزيزي، ليس بإمكاني أن أزيدك توضيحاً. وعلى كل حال فليس بقريب ذلك اليوم الذي يفتح فيه الناس كتباً تروي لهم حكايات. أما الآن فإنهم منغمسون في داهية دهياء.

*

بعد أيام معدودات، طلبتْ منه عشيقته ألا يلمسها مستقبلاً. فقد كانت تستحي من أن تخون ثقة زوجته. وأضافت أنها بعد انقضاء هذه الأسابيع من الاحتجاز، وحين تستأنف حرية التنقل، ستختفي من حياته. وأنها ستفسح المجال لهذه المرأة التي هو غير جدير بها حقاً. أجابها:

– إن هذا الإعلان لا يخلو من رومنسية. فزوجتي، بطيبتها ولطفها، قلبتك رأساً على عقب. ولكنها تبالغ. إن لها طبعاً ودوداً بعض الشيء. ولكن ليس

إلى حد أن يتعلق بها المرء بهذه السرعة. لم أرها قط تصبح حميمة مع أي شخص من غير العائلة. لك أن تهجريني إن شئت، ولكن لا تهجريني لأسباب واهية. ومهما يكن من أمر فلستُ أنوي أن أتخلى عن الصغير.

نظرت إليه بإمعان وقالت:

– تتخلى عن الصغير؟ ولكنك لم تسع حتى إلى توجيه الكلام إليه مرة واحدة منذ حلوله بهذا المكان.

رد عليها وقد بدا عليه الانزعاج:

– الظروف لا تسمح بذلك.

ازدادت إلحاحاً وهي تقول:

– أنت تعلم حق العلم أنك لم تحبّني أبداً. ولست بلائمة عليك، فقد كان الأمر يلائمني من بعض الوجوه. ولكني سأكون بحاجة إلى أن أنأى بنفسي قليلاً. سيكون متاحاً لك دائماً أن ترى الصغير متى شئت.

هتف وهو يتفحصها:

– لقد كان عليّ أن أدرك ذلك.

– ما ذلك؟

– ليست رقّتها هي التي حملتك على أن تبتعدي عنّي، ولكن الأولاد هم السبب.

– لا تقحم أبناءك في حكايتنا.

– بلى، بلى. أعني أن أبنائي صورة من أبيهم الشرير.

– الأمور ليست أبداً بهذه البساطة. ولكن إن شئت أن تعرف، فكل حركة من حركاتهم تكشف عن مدى لا مبالاتك. ما أقسى هذه اللامبالاة التي ينضح بها جسدك!

*

صار لا ينام. كان كل يوم يزداد خسفاً في قاع الحنق. وذات صباح، بينما كان يقطع الخشب بالفأس، تصريفاً لمكبوتاته، أجهد نفسه بلا هوادة. جلس على جذع مقطوع ليستردّ أنفاسه. أخذت الريح تهبّ على أشجار النيرية العتيقة، منذرة بكسر ما بقي من أغصانها. وفجأة دنا منه صديق ابنته عارضاً عليه أن يساعده، فاركاً يديه إحداهما بالأخرى؛ لتدفئتهما. لم يحبّ أبداً هذا الشخص، الذي كان يذكّره بأن ابنته «أود» ما عادت تحبّه. أحسّ أن الفتى يريد أن يُسِرّ إليه شيئاً. وبما أنه لم يكن ينوي أن يطيل المقام ها هنا، فقد شجّعه على الكلام.

قال الفتى:

– شكراً لاستقبالك إياي في هذا المكان.

– لا تشكرني، فإنما فعلتُ ذلك من أجل «أود».

– أعرف أنك لا تُكنّ لي كثيراً من الحب.

– ليس لي سبب يدعوني إلى أن أكنّ لك كثيراً من الحب. ولكن ليس لي أيضاً سبب لأمجّك.

– أتراك لا تكترث بي؟

– كلا، لست غير مبالٍ بك.

– لنقل إنك تهتم بي أكثر من الآخرين قليلاً، أليس كذلك؟

– ولكن من تظن نفسك، أنت أيها الدخيل، لتقول إنني لا أبالي بأبناء صلبي؟

– إنهم لم يثيروا الموضوع أبداً بحضوري.

– أتراها ابنتي هي التي تلمّح إلى هذه الأفكار؟

– كلا، إنها لا تذكرك أبداً بسوء، إن كان في هذا ما يطمئنك. إنها تكتفي بأن تعيب علي أنني لا أملك ما لديك من خصال. غير أنها تنسى أن اختيارها وقع عليّ أيضاً لأنني خلو من عيوبك.

– حقاً؟ وما هي عيوبي؟

كاد يتميّز من الغيظ ولكنه تماسك، فواصل الفتى قائلاً:

– لقد فهم الجميع قصة هذه المرأة. والجميع يتساءل عن أمر الصبي. إن أبناءك الثلاثة يحتقرونك، لا بسبب خياناتك وحسب، بل لما تكنّه لأمّهم من عدم الاحترام والتقدير. كيف تصوّرتَ لحظة أنها ستصدّق مثل ذاك السيناريو الوهمي؟ سيناريو حياة «كيرين» المزدوجة. أنا لا أعرف الرجل ولكنّ القصة تبدو للآخرين غير معقولة إلى أبعد الحدود. إن نشاطك المفرط سيدي يسبب لي الكثير من الحرمان، ولكنني على الأقل لا أعيش في الرياء.

– إنك تقول هذا لأنك لن تكون شيئاً لو تخلّت عنك ابنتي، وهي انتقاماً منّي جعلتْ منك خرقة.

حدّق فيه الفتى ملياً وبادره وهو ينهض بقوله:

– لقد صرتُ قاب قوسين من الفرج، أما أنت فلا.

عند الغسق وجد ابنه البكر على السطوح يضبط منظاره لرصد النجوم. تظاهر بالتلقائية التي كانت تغلب على حواراتهما، وسأله:

– ما الجديد فوق؟

– لا أدري، سأعلمك به عما قليل.

– السماء صافية، أليس كذلك؟

– صافية جدّاً. ولكنها كذلك دائماً في ليالي الصحو. هذا بفضل خلوّ المكان من المعامل. لا صناعة، لا شغل، إذاً لا غبار، لا بد أن يوجد مستفيد.

كان ابنه يُلصِق عينَه في مصوّب المنظار. تردّد قليلاً ثم قال له:

– ينبغي أن نتحادث.

دفع ابنُه رأسَه إلى الخلف ونظر إليه وقال:

– فعلاً، لن يلحقنا من ذلك ضرر، وخاصة بالنسبة إليك.

– إنك تحكم عليّ بقسوة، أليس كذلك؟

– أنا لا أحكم عليك، وإنما أرثي لحالك.

– حسناً، أتركك إذاً.

– هو ذاك.

*

يوم حضر الدهّان أمام السياج، أثارت زوجته المسألة:

– لن أعنّفك، فما ذاك من شيمتي. سنبيع هذا البيت، وشقة «باريس»، بما أن كل الأمور، في بيئتنا، تؤول إلى مسائل المال، وسأحتفظ بنصف دار النشر. أود أن أقول لك إنني لم أجبرها. فهي بنت طيبة، وذاك ما كنت أخشاه. ولكن يبدو أنها أدركت أنني لم أكن قد فعلتُ شيئاً يدفعك إلى أحضانها. والآن أدركتْ هي أيضاً أنك يمكن أن تسقط بمفردك في أحضان امرأة ثالثة، هذا إن لم تكن قد سقطتَ فعلاً. لقد سقط عنك قناع البورجوازي المتسكّع ذي خصلة الشعر المربوطة كما يسقط الطلاء القديم لجدار أكلته الرطوبة. لن أحدّثك عن العذاب، فقد يكون ذلك غير مناسب، خصوصاً في الظروف الراهنة.

ومن الغد، ظهر بوضوح شبح آدمي أمام البوابة، لرجل سامق القامة يبدو عليه أنه مسالم. تقدّم أقلّ ما يمكن في الشرفة التي تطلّ على بوابة الدخول. ظل الرجل وراء السياج المغلق وصرخ:

– أنا جاركم، أقيم أسفل غابتكم، في البيت الذي...

أجابه متكلفاً أن يبدو ودوداً:

– آه طبعاً، الدهّان. أنا آسف حقاً لأني لا أستطيع أن أدعوك إلى الدخول. ولكنك تعرف الوضع...

– أجل، ولم أكن والحق يقال أنوي أن أقترب من بيتك. لقد أردت فقط أن أنبهك إلى أن عصابة صغيرة مكونة من أشخاص قدموا من المدينة يقتلون الخيول ليقطّعوها. ولعل ما يغريهم بذلك ليس الجوع وإنما هو الربح. لقد غلا

ثمن اللحم غلاء فاحشاً، وأصحاب الخيول قد تفرقوا ولا يفكرون في حمايتها كما يفعل مربّو الماشية. جاري الآخر قطّعوا له حصانين.

– شكراً لك إذ نبّهتني.

في الليلة التي تلت تلك المحاورة، لم تكن لديه رغبة في النعاس فلم يسع إلى الرقاد. وحين لمح أضواء مصابيح قرب سور الخيول، أخذ بندقيته وحزام الخراطيش. وبهدوء وصل إلى المرج حيث كان ثلاثة رجال يحاولون أن يشلّوا حركة فرسه. كان أحدهم يمسك في يده مطرقة ضخمة كما كان الحال في المسالخ في غابر الزمان. أطلق النار على خيالين، وبينما كان يعيد شحن بندقيته، فرّ الخيال الثالث عبر الحقول، قافزاً كأنه جنّيّ. كان أحد الرجلين طريحاً على بطنه كأنما هو كيس قمح سقط من طابق مستودع الحصيد. أما الآخر فكان على ظهره، ذراعاه متقاطعتان، ورأسه منحن، وقد بدت المفاجأة على ما تبقى له من وجه. لقد قضيا نحبهما بلا شك. فتّش الجثتين ثم سيارتهما. فلم يعثر على شيء غير تلك المطرقة. كان بإمكانه أن يقتصر على تسديد السلاح إليهما، وكان ذلك كفيلاً بأن يتركا الفرس وينسلاّ لِواذًا. لم يشعر في أي لحظة بأنه كان مهدداً. بعد ذلك غمره شعور غريب. لم يكن يشعر بخجل ولا ندم. كان ذلك الشعور الذي لا يمكن تعريفه: شعور الانتماء إلى المجموعة البشرية. لقد كان، وهو الذي فكّر في مفاهيم كثيرة، عاجزاً عن تفسير سببه.

خُتم التحقيق بعدم سماع الدعوى بسبب الدفاع المشروع عن النفس. لقد وُجِدَتْ ألوف مؤلفة من هذا النوع من القضايا. وأمام القاضي، ودون أن يحاول أن يجد مسوغاً لصنيعه، أعلن أن إظهار أولئك الرجال الكريه للجشع، إضافة إلى رؤية المطرقة وهي تنهال على رأس فرسه قد أفقداه صوابه. وأغفل أن يذكر أنه قُبَيْل الحادثة بساعات كان قد تلقّى مكالمة من «كيرين»:

– أتعلم؟ لدي خبر سيء سأبلغك إياه.

– ستنتقل إلى ناشر آخر؟

– ماذا حصل لك؟ أتظنني قادراً على أن أفعل لك فعلة من هذا القبيل؟ كلا، كلا، لا علاقة لما سأحدثك عنه بهذا...

لزم الصمت برهة من الزمان ثم أعلن:

– قرّرتُ أن أتوقّف عن الكتابة.

انقطع نَفَسُ الناشر ثم ردّ وكأن شخصاً آخر كان يتكلم بدلاً عنه:

– أنت على حق، لا علاقة بين هذا وذاك، ولماذا؟

– لأنني لم أتوصّل إلى الإجابة عن سؤال: «لماذا أكتب؟». فهذه طريقة في التعبير تليق بزمن آخر. ثم إنني أعتقد أنني إن أردتُ أن أتوقف عن شرب النبيذ حتى لا أموت، فعليّ أن أتوقف عن الكتابة.

– وما الذي ستفعله؟

– تلك قضية أخرى. لقد تعودتُ كثيراً على الشرب والكتابة. ولذلك فلن أتوقف فوراً عن التدخين. سيكون ذلك فوق الطاقة، أنت توافقني.

بعد قتله الرجلين، أحس بأنه تخلص على نحو غريب من حالات الخوف التي كانت تستبدّ به، ومضى، ممسكاً ببندقيته، عبر الغابات والحقول، دون أن يدري إلى أين تأخذه قدماه. وبعد ما يربو على الساعة من السير اكتشف بيتاً ضخماً مربع الشكل يحيط به سور طويل من الصخور الصفراء. كان يبدو مهجوراً. تمدّد مسنداً ظهرَه إلى الحائط ووضع بندقيته إلى جانبه. ولأنه كان عاجزاً عن التفكير فقد ظل ساكناً، يحدّق في المبنى. كانت دفتا شباك تصطفقان في الهواء. والحال أن واجهة البيت كان فيها عدد من الشبابيك. لم يكن ذلك الشباك بأكثر ولا بأقل خراباً من سائر الشبابيك، فما الذي يجعل دفّتيه فقط تصطفقان؟ شرد ذهنه لحظة.

بلغ لعلمه بعد مضي زمن طويل أن الرجل الذي كان يقيم وحيداً في هذا البيت الفسيح كان الضحية الوحيدة في ذلك المكان. وكان يقال إنه لم يستطع أن يمتنع عن الذهاب إلى المدينة مرة في الأسبوع؛ ليلتقي فيها بامرأة.

*

إذا استثنينا حالات عنف معزولة، فقد تسبب الوباء في ملايين الموتى. وحتى الرئيس فإنه لم ينج منه. ذلك أنه أراد أن يتعهّد صورتَه التي أصابها كثير من الوهن قبل الأحداث، فزار مرضى في أحد المستشفيات. وما مرّ أسبوع حتى لزم الفراش ومات تاركاً ذكرى لم ينكرها أحد منذ ذلك الحين. لقد كان على وجه اليقين يتوقع ذلك، إذ أن الذين اقتربوا من جثمانه يذكرون أن وجهه كانت ترتسم عليه علامات الارتياح. ولعل الموت قد وهبه ما طلبه طيلة حياته فلم يدركه. إنه من الصعب على الإنسان أن يكون أسطورة حية من أن يغدو أسطورة بعد وفاته. ألاَ إنّ الموت مِرْقاة للأهمّيّة. إن الذين يستحثّون أجَلهم؛ ليُظهروا الدليل القاطع على أنهم عاشوا لَأكثرُ عدداً مما يُتصوَّر.

أما الكاتب «أدريان كيرين» فقد توفّي بعد انقضاء ثمانية شهور على الأحداث المروية جراء تجميع قاتل لشتى المعاملات السيئة التي فرضها على بدنه طوال السنوات التي أنفقها في الكتابة. وبعد مضي عشرين سنة اختفت مؤلفاته من المكتبات. ولم يعد يذكره إلا عدد قليل من المعاصرين المتقدمين في السن. ولو أنه كتب عن ذلك الوباء الذي عصف بالعالم، لكان مصيره مختلفاً. فالكاتب الذي يتحمّل قسطه من المسؤولية في الفاجعة التي تصيب جيلاً بأكمله لا يمكن أبداً أن يأتي عليه النسيان.

# أسطورة ساذجة من الغرب القصيّ

الإله والإنسان إبداعان متبادلان. أبدع الإلهُ الإنسانَ، ثم أبدع الإنسانُ الإله. غير أن العلاقة بينهما كانت في بداياتها طيبة إلى حد ما. وما إن بلغ الإنسان سن الرشد حتى اخترع عدداً من الآلهة والإلهات كانت على صورته. وحين يكون المرء عاقلاً في كون مترامي الأطراف، فليس له إلا أن يعيّن لذلك الكون عدداً من المبدعين، أو أن ينفق بياض يومه يعبّ الخمر. وعلى هذا النحو، فقد كانت تسود مجتمعَ الآلهة الرحيب في السماوات، فوضى هائلة، مطابقة لفوضانا. تشغلهم نفس الصراعات على السلطة، ونفس التفاهات، ونفس الفجور الذي لا شفاء منه. أما في الدنيا فكان موقفنا يراعي نظام الأشياء: كنا نخشاهم أكثر مما كانوا يخشوننا، على أن ذلك ما كان يمنع شيئاً من التواطئ – دون أن نتحدث عن الفساد – الذي ينكشف من خلال أضحياتنا وقرابيننا. ولّما كان الآلهة على صورتنا تعيّن علينا أن نمجّدهم ونخشاهم.

ولكن، ذات يوم، أراد أحدهم أن ينفرد بالسلطة المطلقة. دخل في مفاوضات مع قبائل العبيد في مصر، الذين تجلّى لهم عن طريق أحد الأنبياء. وفي كنف السرّيّة تمّ الاتّفاق بينهم على ألا يَعْبُدَ الشعبُ المختار من الآن فصاعداً إلاّه، وأن يحرّم مستقبلاً التماثيل، حتى يزيد شيئاً ما من حميميته. وعلى كل حال، فلكلٍّ الحق في أن تُحترَم حياتُه الخاصة. غير أن ما فات أن يتوقعه هذا الإله، الذي أصبح واحداً أحداً، هو أنّ عِباده قرّروا أن يختزلوا بشدّة مسار حياته، لغاية اقتصادية مشروعة. نعم، لقد كان ذلك الإله يملك سلطة لا ينازعه فيها منازع، ولكن – وهذا ما لم يحسن أحد في ذلك الزمان تقدير الثمن الحقيقي الذي سيتعين عليه أن يدفعه – في مقابل ذلك، سيُبتلَى ذلك الإله بوحدة رهيبة حقاً. فذاك الذي كان يتصوّر أنه سيكون فقط مالك الكون والعباد خاب ظنه، لأن اليهود قرروا خلاف ذلك. كان على الإله الواحد أن يتخلى عن

وزرائه وأن يمتنع عن كل شكل من أشكال الصحبة الرائقة. ويبدو أن عدداً من الوقائع التاريخية تثبت أنّه، -عزّ وجل-، قد أكنّ لهم ظغينة أمدا من الدهر غير قليل، لا، بل إنه عمل بضراوة على أن ينتقم منهم بسبب الحياة الجديدة التي فرضوها عليه. وبديهي أنه كان يعسر على اليهود شأنهم شأن غيرهم من الكائنات البشرية في ذلك العصر- الذي كان فيه أمل الحياة محدوداً جدّاً - أن يقدّروا ما قد تسبّبه الوحدة الأبدية لصاحبها من معاناة مريرة.

ومن ثم، دخل الإله في طور من الاكتئاب أشبه ما يكون بالاكتئاب الذي يصيب مزارعي السهول الواسعة الطاعنين في السنّ: فترى الواحدَ منهم وحيداً في كوخه الخشبي، يحدّث نفسه، وهو يترجّح في الكرسي القلاّب الذي يهتز فتطقطق له أخشابُ أرضيةِ الشرفة، والشمس تختفي من الأفق، مضفية على عزلته مسحة من ظلام.

عاقب الإنسانُ الإلهَ بأن حَكَمَ عليه بالتقاعد الإجباري، فثأر الإله لنفسه طوال قرون. ومع ذلك فلم يكن بوسعه أن يقطع ما بيننا من صلة، وكانت تلك فرصة لا مثيل لها بالنسبة إلينا. فمَن غيرُنا يمكنه أن يَذكُر الإلهَ لو قُدّر لنا أن نَزول من الأرض؟ قل! من غيرنا؟ أترى ستذكره سمكة التروتة المرقّشة، أم مالك الحزين الأغبر، أم طائر التدرُج الصيني؟ وكما كان يقول «فونقات»[1] العجوز، الذي لم يعد اليوم من الأحياء: «بعد حربين وإبادتين جماعيّتين في القرن العشرين كان عليه أن يقذف بنا خارج هذا الكوكب بركلة في المؤخرة». غير أن «فونقات» نسي أن الإله ليس شيئاً من دوننا، فقضيّتنا مشتركة منذ غابر الدهور. قبلنا كان الإله أو الآلهة يعيشون في كنف الإبهام. واليوم، في بداية

(1) «كورت فونقات» (Kurt Vonnegut) كاتب أمريكي متمرد ساخر. ولد في 11 نوفمبر 1922 بولاية إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية وتوفي في 11 أبريل 2007 بنيويورك. من رواياته «الليل الأسود» و«مهد القط» و«إفطار البطل». ومن مجموعاته القصصية «كناري في بيت القط» و«مرحبا في بيت القرد». ومن مسرحياته «عيد ميلاد سعيد، واندا دجون» و«حكاية الجندي». ومن دراساته «رجل بلا وطن».

هذا القرن الواحد والعشرين نستطيع، نحن الحالمين بالشهرة، أن نقدّر إلى أي حد يكون التخفّي مصدراً للعذاب. ومنذ اليهود، أدركنا أن إلهاً واحداً برأنا. وحتى إن كان ذلك صحيحاً، فإنه يتعين علينا مع ذلك أن نؤكد، وهو أمر يعسر الإقرار به، أن ذلك الخلق وليد الصدفة، فقد كان الآلهة يلعبون بالاحتمالات كما يلعبون بالأفلاك. كانت فرصةً سانحة تلك التي وفّرت لهم حينئذ ملحقاً صحفياً مخوّلاً في مهمته، ولكنها جرّت عليهم أيضاً خيبات، كانت إحداها سبباً في الكآبة العميقة التي أصابت آخر الناجين منهم.

تلك الكآبة التي مازجها فتور متقطع هي سرّ صمته في الأوقات التي نغدو فيها أشد ما نكون حاجة إليه. وفي تلك الحالات لا يمكننا أن نمتنع عن التفكير: «بحق الله، لماذا تراه يتلفّع بالصمت؟»

بدأت حياته في مبنى نفايات مطعم من مطاعم «سان فرنسيسكو». إنها، باختصار، الحياة قبل الحياة. كان المطعم على ملك جدّه، وهو قاسكونيّ أصيل، كان جدّه بدوره قد فرّ من «دوردوني»؛ بسبب ما اعترضه فيها من مشاكل قضائية، في أواخر القرن الماضي، بعد مصرع أبويه من أجل تركة لم ينل منها فتيلاً. كان قد حط الرحال بـ«سان فرنسيسكو» بعد رحلة طويلة جعلته فيها الأمواج الهادرة يقيء أمعاءه.

كان أبوه، كما يقول جده، «لا يصلح لشيء، خاملاً لعيناً، أخرق» . كان المقصود بذلك الثناء ينفق وقته في الشرب في الحانة مع الزبائن ويسمّي نفسه «العوّاد». كانت خطته أن يدفع نخباً لأربعة أشخاص أو خمسة حتى يشعر كل منهم بأنه مجبر على أن يدفع نخبه بعد ذلك. لم يبذل أبوه وأمه كبير جهد؛ ليتم اللقاء بينهما. فقد كانت تشتغل قينة. وبعد بضعة أسابيع من المقاومة انفرد بها أخيراً في مبنى النفايات، قبيل إغلاق المحل. لا يذكر من أمه إلا ابتسامتها بأسنانها الجميلة البارزة التي كانت، ويا للغرابة، تذكّره بملامس البيانو الناصعة البياض. كانت دائماً تقبّله وقد انطبعت على وجهها مسحة من سخاء حنون.

كانت أمه قد وُلدت في المكسيك، ثم هاجرت إلى الولايات المتحدة للعمل في حقول الحمضيات مقابل أجر زهيد، قبل أن تحط الرحال في ذلك المطعم. حين حملت، من الاتّصال الأوّل، طردها الشيخ. وما جعله لا يتردد في قراره أن ذاك الذي كان قد أحبلها على عجل سعى إلى حتفه. كانت قد أتت عليه سقطة قوية في درج المخزن رغم أن انحداره بسبب البلى الذي أصابه من تتالي السنين كان مشهوراً بغدره. لم يذرف الجد دمعة بعد هذا الغياب المفاجئ. كان ردّ فعله الوحيد أن استغل ما وقع؛ ليستبعد ما يجسّد ذكرى ابنه الأحمق، وذلك بالتخلص من تلك المرأة الحامل بالحفيد اللعين. واصلت الشابة الحامل رحلتها إلى الشمال، سالكة الطريق رقم 101، متجهة إلى «أوريجون». اشتغلت قينة مراراً، إلى أن جاء يوم تدلّهت فيه بحبّ أحد زبائنها، وكان من قدماء المحاربين في «فيتنام» يكبرها بخمسة وعشرين عاماً. كان شرّيباً، ولكن ذلك لم يكن يمسّ أبداً من طيبته وميله إلى الدعابة. وقد تبنّى «كيل» كما لو كان ابنَه من صلبه. فكان يعامله بلطافة الجدّ، حريصا على ما سيتركه للطفل من ذكرى.

فَقَدَ «كيل» أمه ولما يبلغ السابعة من عمره. كانت الأسرة الصغيرة قد قصدت شاطئ البحر، وكان ذلك في أول أحد من صيف 1984. كان المحيط الهادي يدوّم في ذلك الخليج الصغير في اهتزازات جانبية عريضة لا ينشأ عنها إلا زبد نحيف نحيل. وحين كان زوجها وابنها يغيّران ملابسهما ذهبت إلى البحر لتجرّب مذاقه. كانت آخرُ ذكرى احتفظ بها «كيل» من أمه ابتسامتَها الهانئة. كان الماء يصل إلى منتصف فخذيها، وكانت تقفز في مكانها، مما يدل على أن الماء كان بارداً. كان «كيل» قد خفض بصره ليلبس تبّان السباحة من تحت الفوطة الأسفنجية، وحين رفع رأسه كانت أمّه قد اختفت.

كان تأثُّرُ زوج أمه بغيابها عظيماً. إذ كان بالنسبة إليه الدليل الذي لم يعد بحاجة إليه. هو الذي لم يحالفه الحظ في أن يموت خلال سنوات خمس من الحرب في «فيتنام» في إحدى تلك الطائرات العمودية التي لم تكن في نظر

الفييتكونغ إلا سُرَيّجات يتعين إسقاطُها كما يحدث في حفلات الهواء الطلق. بعد انقضاء سنة على تلك الفاجعة أخطأ الرجل منعطفاً على الطريق رقم 101 ليلاً، على مسافة ثلاثة أميال من مدينة «لينكولن». لقي حتفه بعد سهرة احتفل فيها مع عدد من قدماء المحاربين في المنطقة كان يلتقي بهم كل أسبوع في جلسات خمرية طويلة تكفيرية، يرونها ضرورية خصوصاً أن باقي أهل البلد يتظاهرون بعدم معرفة مقاتلي أوّلِ هزيمة مدوّية في تاريخ الولايات المتحدة. كان الخبر قد بلغ «كيل» في الضحى، وكان عند عمته التي كانت تحتفظ به في الليالي التي يذهب فيها زوج أمّه للنزهة.

*

كانت العمّةُ «مادجي» تروّعه؛ لأنها كانت هائلة وعطوفاً على نحو مفرط. وبما أنه كان الولد الوحيد في العائلة وآخر العنقود، فقد كانت تحب أن تضمه إليها: وكان يبعث الذعرَ في الفتى أن يلامس طيّات شحمها المتتابعة. واعتباراً لقامته الطفولية فإنه كان يخشى أن يصبح الضحيّةَ البريئة لانزلاق أرضي، وأن يموت يوماً مختنقاً تحت تلك الطبقات الدهنية المتموجة. وفي الصيف كان الاحتفال نفسه يقام أحداً بعد أحد. كانت تجلس في مقدّمة مِنْقَلة مجهّزة لهذا الغرض، وتقودها بناتها الأربع إلى البحر. كان الشاطئ يوجد أسفل منعرج واسع محاذ للطريق الساحلية. وكان ما يناهز ثلاثين شخصاً، جلّهم من المقيمين في المكان، يأتون؛ ليدنّسوا بظلالهم الرمالَ البيضاء التي لا يرحلون عنها أبداً؛ لفرط ما كان المحيط الهادي الذي يحدّ الشاطئ عميقاً وبارداً. وغالباً ما كان درّاجون عابرون يتسكعون في المكان بدراجاتهم النارية. كانوا يرفعون أكمامهم الجلدية؛ ليشمّسوا سواعدهم. ويحدث أحياناً أن يسعى أحد المراهقين إلى لفت أنظار الفتيات، فيغطس لحظات، ويخرج عدواً، ويلفّ جسده بفوطة وأسنانه تصطك. كانت العمّة «مادجي» تحبّ هواء ذلك الشاطئ، ومداعبة

الريح المدوّمة، ونداء البحر. كانت تحبّ حتى تلك المجموعة الصغيرة الهادئة التي تنتثر هناك أيام الأحد. ولكنها كانت تعشق فوق كل ذلك أن تسبح. كانت تظل في الماء طويلاً، وكانت هي الوحيدة القادرة على ذلك دون تخلف، بفضل زيادات جسدها. كانت العمّة «مادجي» تكاد تجد في الأمر مصدراً للفخر. وكان إيصالُها إلى ذلك الموضع رحلةً، وإعادتُها منه محنةً. يذكر «كيل» ذلك اليوم في الطريق النازلة حين عجزت بناتُها الأربع عن التماسك في المنحدر فلم يستطعن منع المنقلة من أن تنكفئ على جانبها، وتركن الأم طريحة على الرمل وقد صار لونها أرجوانياً وكادت تختنق.

لم تكن العمّة «مادجي» تتكلّم، وإنما كانت تَنْهَمُ كالفيل. وكانت بناتها الأربع اللاتي تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ينبحن على «كيل». وعلى الشاطئ، لم يكنّ ينظرن قط إلى أمهنّ، كما لو أنها كانت مسؤولة عن اللامبالاة التي كان الشبّان يُبدونها لهنّ. كانت العمّة «مادجي» صورة من العذاب بعينه إذ كان كل عمل تأتيه مثالاً للعناء. فكل حركة كانت تتطلب إعداداً. فلكي تقف كانت تحتاج إلى مشّاء. وحوض الحمام زيد في ارتفاعه؛ لأنها لم تعد تتوصل إلى الانفصال عنه إن كانت جالسة تماماً. وبما أنها كانت مصابة بداء السكري فإنها كانت تتقاضى معاشاً مدى الحياة. وكذلك كانت بناتها يسلكن سبيل البشاعة نفسِها. كانت العمّة «مادجي» التي آوت «كيل» عند وفاة أخيها قد دعت الطفل يوماً، بعد انقضاء شهور على الواقعة. ضمّته إليها واعترفت له:

– لن يكون بوسعي أن أحتفظ بك يا عزيزي. ومع ذلك، فأنت تعلم كم أنا أحبك. ولكننا لم نعد قادرين على تلبية حاجاتنا بمعاشي وبراتب «مارجي».

كانت ابنتها البكر «مارجي» تشتغل بغسل الأواني في أحد مطاعم ماك دونالدز على طريق الجنوب. كانت تَصدُر عنها على الدوام رائحة القلي، كما كانت تصدر عن العمة «مادجي» رائحة شحم رِجْل الثور. كان زوج العمة

«مادجي» قد سافر إلى حيث لا يعرف أحد. تخيّلَ «كيل» أنه تبخّر خوفاً من أن تسحقه. ورغم أن العمّة «مادجي» كانت تنبح أكثر مما كانت تتكلم، فإن «كيل» كان يكنّ لها محبة عظيمة. كان يجد فيها طيبة يفسدها مرض لم تكن تستحقه. وكانت العمّة «مادجي» تترك أحياناً نفسها على سجيتها فتلقي نظرة مخضلّة على الطفل الذي كان يبادلها النظر بلا مكر ولا سخرية.

*

بناء على ذلك، آواه عمه الآخر وعمته الأخرى، أسرة «بارن». لم يكن الزوج أخاً شقيقاً لزوج أمّه وللعمة «مادجي». وكانا زوجين عقيمين يعيشان حياة هادئة. كانا واثقين من أن حلول «كيل» المفاجئ في حياتهما هو على نحو ما معجزة. ومع ذلك فإن الاعتقاد بأن فكرة تسجيل الصغير «كيل» في مصلحة الرعاية العمومية لم تخطر لهما ببال أمر يفتقر إلى الصحة. لنقل إنهما قررا أن يؤوياه، مستفيدَيْن من هذه الهبة الإلهية، معتبرين في الوقت نفسه أنه سيكون بإمكانهما أن يتوجها إلى المؤسسات إن اتضح أن الولد مخيب للآمال. وفي المدرسة كان أسوأ ما يصفه به الأطفال أنه «هندي لعين» أو «آكل الفلفل الحارق»، ذلك أن عنصرية «أوريقون» غير عنصرية ولايات الجنوب. كانت المنطقة قليلة السكان إلى درجة كبيرة، وكانت تيارات الهجرة إليها ضعيفة ضعف فرص العمل فيها. وكانت أصولُه المكسيكية كافيةً لتجعل منه كائناً مختلفاً. ومن ثم فإنه كان ما إن تتاح له الفرصة حتى ينفرد، بعيداً عن معاكساتهم. كان يقرأ. يقرأ الكتب التي كانت تُقرضه إيّاها المكتبية المساعدة بالمدرسة – وهي امرأة يافعة جدّاً لا يبدو أنها بدورها أمريكية قحة لأنها كانت خلاسية – وقد كان شعارها: «إن أحببتَ أن يكون لك صديق فاتّخذْ كلباً. فإن لم تستطع أن تتخذ كلباً فخذ كتاباً». كان «كيل» قد أخذ بتلك الحكمة.

كان يتأبط كتبه، بعيدا عن سخرية رفاقه الصغار الذين يرتدُون التبابين،

وينزل إلى الشاطئ، ويجلس في مكان يقيه الريح. كان المحيط الهادي في نظره امتداداً عميقاً، محيّرا، إلا أنه كان حتماً يغويه، لأنه كان يواري أمّه. كان الحوت يروح ويجيء أحياناً قرب الشاطئ. وحين كان يهتزّ في حركات منتظمة من أسفل إلى فوق، كان يخيّل إلى «كيل» أنه يلمح من جديد العمّة «مادجي» وهي تُسلِم نفسها للبحر، مستلقية على ظهرها وقد باعدت ما بين ذراعيها، في تلك اللحظات الفريدة التي تكاد تغدو فيها بلا وزن وتصبح الحياة بالنسبة إليها محتملة. كان «كيل» يعشق رؤية البحر يمتدّ على مدى البصر، إلا أنه كان يكره الاقتراب منه. كان يجده مفرط الفظاعة، يخفي من الأسرار أكثر مما يستطيع أن يبدي.

كان والد «كيل» بالتبنّي يشتغل في مصلحة الطرقات. وكان رفاقه في المدرسة يلقّبونه بـ«حفرة الطريق». كان رجلاً نحيفاً تُجلّل وجهَهُ تجاعيدُ غليظة عمودية، وكانت الحياة بالنسبة إليه عقوبة. وفوق ذلك فقد كان شديد الإيمان. كان «كيل» يرى أن إيمانه ذاك ربما مردّه إلى أنه يعوّل على الآخرة، لإصلاح ما أفسده الدهر فيه. ولم تكن زوجته بأقلّ منه إشعاعاً، ولكن بما أنها لم تكن تشتغل فقد كانت تكرّس كامل وقتها لطائفتها الدينية. وبديهي أن تربية «كيل» كانت بالنسبة إليهما واجباً روحياً. غير أنه كان واجباً ثقيلاً. لم يكونا يتصوّران كيف يعيشان معه تحت سقف واحد. ولذلك فما إن بلغ «كيل» السنّ التي يمكنه أن يعيش فيها وحده - وهي في رأيهما سنّ العاشرة - حتى جهّزا له غرفة في مستودع حصيد يفتح على غابة صغيرة. وقد كانت تلك الغرفة ملكاً لوالد السيدة «بارن». وكانت كل ما ورثته منه. لم يكن «كيل» يحتاج إلى أكثر من خمس دقائق ليتنقّل راجلاً إلى غرفته من بيت أسرة «بارن» الصغير الذي لم يَعُدْ يقصده إلا لتناول الطعام، وحين يُدْعَى إلى البقاء بعد قدّاس صباح الأحد، وسط عدد من سكّان الخَورنيّة الذين يستطيعون، على هذا النحو، أن يعجبوا بالعمل الخيري الذي يقوم به كفيلاه. وكانت الخورنيّة أيضاً تقدّم للأطفال الكثيرَ من

العون. ولكن للأطفال الأفارقة. كانت تجمع سنوياً من التبرعات مبلغ مائتين وخمسين دولاراً تمدّ بها جمعية خيرية في بلدة «أوجين». لقد كانت الخورنية تحبّ الناس. عن بعد كاف. كان مستودع الحصيد يجاور مرجاً يملكه شيخ يدعى «دونوفان مولر». هو فنّي إضاءة سابق في استوديوهات «هوليوود» عاد إلى موطنه لما أزفت ساعة التقاعد. كان لـ«مولر» حصان، من فصيلة الأبالوزا مولَّد من فصيلة الكارترهورس، ردفه أعلى من كفله، مما يجعله يبدو عَدّاء سريعاً. كان حصاناً أبقع، ما يزال فتياً، وكان محيط عينيه الخالي من الألوان يجعله يبدو للناظر دامعاً. كان «مولر» اشتراه لحفيدته التي، ما إن امتطتْ صهوتَه أوّل مرة، حتى سقطتْ منه وهو يسير منتظم الخطى. وبعد تلك الحادثة لم تعد تريد أن يذكره أحد في حضورها. كان «كيل» يحبّ طريقة الأبالوزا في الزفير بتوسيع منخريه. كانت تلك طريقتَه في التعبير. ولكن أكثر ما كان يعجبه أن يتأمله وهو ساكن لا يريم، عُرْفُه في مهبّ النسيم، ونظره ثابت كما لو أنه واثق من أن شيئاً لن يصيبه. كان «كيل» قلّما يتحدّث مع والديه بالتبنّي، أو قل إنه لا يكاد يحدّثهما أبداً. ولم يكن ذلك ليضايق الأب «بارن» إذ كان هو نفسه ضنيناً بالكلام. أما السيدة «بارن»، التي كانت ثرثارة بحقّ، فإن الأمر كان يثير استغرابها. كانت تشعر في قرارة نفسها بأنها مسؤولة عن نموّ الطفل. كانت قد رغبت في مراجعة طبيب نفساني في المدينة، ولكنّ ذلك النوع من الأطباء لم يكونوا يحلّون مشكلة أبداً في حصة واحدة. إن عملهم يمكن أن يستغرق سنوات، بتلك الحصص الأسبوعية التي تدوم نصف ساعة، ينقضي ربع ساعة منها في تلخيص المقابلات السابقة. وبخمسين دولاراً مقابل نصف ساعة، فإنها لم تفكر لحظة في ذلك العلاج. فهذا الضرب من التداوي من نصيب الأثرياء. ومع ذلك فإنها لم تستسلم، ولكثرة حديثها عن المسألة ذات اليمين، وذات الشمال اكتشفت أن زوج السيدة «ترومب»، التي كانت مثلها تقوم بمراسم دينية في جوقة الكنيسة، كان طبيباً نفسانياً مدرسياً.

كان «ترومب» قصير القامة، يضع نظّارات سميكة تخفي نظرة كليلة. كان بطيء الحركة كما لو أنه كان يبذل جهداً حتى لا تبدو عليه أي مفاجأة. زار أسرةَ «بارن» صباح يوم سبت. كان لدى «كيل» انطباع بأن ذلك الرجل القصير النظر كان دائماً يحاول أن ينظر إليه من عَلٍ كما لو أنه كان يتصوّر أن «كيل» يخفي عنه شيئاً. كان «ترومب» يتكلم بهدوء، بهدوء مفرط، وبصوت رتيب مخنوق.

– إذن يا صغيري «كيل» السيدة «بارن» تقول لي إنك لا تتكلم كثيراً، وإنك لا أصدقاء لك، وإنك تنفق وقتك في القراءة، وإنك لا تحب الذهاب إلى الكنيسة، وإنك لا تُظهِر أيّ عاطفة لأحد، فماذا تقول؟

أجاب بلا تردد:

– لا شيء.

– لقد طرحتُ عليك سؤالاً يا «كيل». أنا بحاجة إلى أن أعرف ما إذا كان صمتك طبيعياً، أم إنه نتيجة، كيف أقول... نتيجة حصر نفسي أو إهانة. حسناً، قل لي، رجاءً، لم لا تريد أن تتكلم؟

– ليس لديّ ما أقوله.

– ولماذا ليس لديك ما تقوله؟

– لأنه من الأفضل أن تظلّ الأمور كذلك.

كان «كيل» يشعر باشمئزاز من الرجل ومن أساليبه المخاتلة.

– ولماذا من الأفضل أن تظل الأمور كذلك يا ولدي؟

– لأني أعلم عنها ما لا يعلمون.

– ماذا يعني ذلك؟

– شرحه يطول، وبما أن الشرح مفرط الطول فإني أفضل ألا أقول شيئاً.

– فهمتُ، ولكن قلْ لي شيئاً واحداً، حتى أستطيع أن أفهم ما الذي يعرفه ولد في الثالثة عشرة، وعلى أبواب الرابعة عشرة، ولا أعلمه.

تردّد «كيل» هنيهة ثم قرّر أن يتحوّل إلى الهجوم:

– أعرف تقريباً تاريخ نهاية العالم، يا سيدي. أو على الأصح ربما ليست نهاية الكون، ولكنها على أي حال نهاية الجنس البشري.

زمّ «ترومب» شفتيه أمام فداحة هذا القول.

– جيّد جدّاً. إذن قل لي متى يكون ذلك؟ إن جوابك يهمّنا. أليس كذلك يا سيدة «بارن»؟

وافقت السيدة «بارن» التي كانت قد انتحت ركناً في الغرفة تصغي إلى تلك المحاورة الغريبة. وقد جحظت عيناها لِمَا رأت من جِدّ الشاب الصغير.

– بين اليوم والسنوات الخمس والثلاثين مليون القادمة.

قال «ترومب» بمكر:

– هكذا إذن، لقد أرعبتني. على كل، ما زالت لنا فسحة من الزمن، خمس وثلاثون مليون سنة...

أجاب «كيل»:

– لقد أخطأت!

–ولم؟

– لأني لم أقل بعد خمس وثلاثين مليون سنة، وإنما قلت بين اليوم وخمس وثلاثين مليون سنة.

– وأنّى لك أن تتأكد؟

– لقد حظي الإنسان بأنْ كان على ما هو عليه منذ خمس وثلاثين مليون سنة. ولولا ذلك الحدث لما أصبح الجنسَ المهيمن. ومن خلال نمط عيشه، سيضمحلّ في المرة القادمة التي يقع فيها ذلك الحدث من جديد...

– اسمع يا «كيل»، لا أريد الآن أن أدخل في تفاصيل حكايتك، فالأكيد أنك على حقّ، ولكن هل لك أن تبين لي دور الإله في كل هذا؟

أجاب «كيل» بصوت باهت، في حين كانت السيدة «بارن» تنهار على

أريكتها:

– لا دور له أبداً.

– هل بإمكانك أن تزيدنا توضيحاً يا ولدي؟

– لقد أخطأ الإله. فجهنّم هي حقاً تحت الأرض، ولكنها موجودة أيضا في السماء. وإن كانت الجنة موجودة، فلا يمكنها أن توجد إلا على الأرض.

صدرت عن السيد «ترومب» نحنحة ذهول والتفت إلى السيدة «بارن». وأسرّ لها بعد أن شكر الولد:

– كان الله في عونك. هل نتائجه المدرسية جيدة، يا سيدة «بارن»؟

– نعم، إنها ممتازة.

– ذاك ما كنت أخشاه. إن «كيل» من ذلك النوع من الأطفال المتفوقين في بعض المسائل بسبب ذكائه الفياض، إلاّ أنّه ذكاء دون اتجاه. إنه ماكر ولكن بلا نظام. وفي هذه الحالة، سيؤول به الأمر إلى أن يصبح مهمشاً. وعلى أي حال فلا أراه تاجر سيارات أو إطارات. وإن أسعفه الحظ فربما أصبح «ستيفن كنج»[1] جديداً. ولربما صار بلا مأوى وهذا هو الأرجح. بصدق، لا أدري بم أنصحك. فالعلاج النفسي يحتاج إلى وقت وإلى مال. أقول لك: دعي الأمور على عواهنها. فإن اشتدت به العلة، فلكل حادث حديث.

*

وخلافاً لما كان يؤكده السيد «ترومب»، فإن «كيل» كانت عنده صديقة. إنها شخص يمكنه أن يتحدّث معه، ويستمع لما يقوله. وتلك الصديقة كانت «نعومي» المكتبية المساعدة. كل ما كان «كيل» يعرفه عنها أنها كانت أصيلة إحدى ولايات الجنوب، ولاية «ألاباما» أو شيء من هذا القبيل. كانت امرأة

(1) ستيفن كنج: كاتب أمريكي، ولد في 21 سبتمبر 1947. كتب حوالي مائتي نص، منها أكثر من خمسين رواية رعب أو عجائبية تجاوزت مبيعاتها 350 مليون نسخة عبر العالم. من رواياته «الخط الأخضر» و«عيون التنين» و«الطلسم». (المترجم).

على حظ من الامتلاء، خصرها نحيف ومشدود شدّاً وثيقاً إلى عجيزة مكتنزة تتمايل حين كانت تمشي، مما يضفي على مشيتها شيئاً من المرح. وكانت نظاراتها الصغيرة المستديرة تعطي من يراها انطباعاً بأنها مثقفة. قسمات وجهها قسمات امرأة بيضاء. وأما لون بشرتها فلم يكن يوحي بذلك تماماً. كانت أصولها تبدو غامضة، وهو أمر كان كافياً، لتصنيفها ضمن «الملوّنين». كانت قد اتّخذت قراراً بأن تبتسم في كل آن. وكانت أسنانها البيض الجميلة التي تحيط بها لثّةٌ بنفسجية تثير دهشة زملائها. كان يعسر على «كيل» أن يحدّد لها سنّاً، ومع ذلك فإنه، بعد تروّ، رأى أن عمرها ينبغي على أية حال أن يحوم حول الخمسة والعشرين ربيعاً. كان واثقاً من أنها تكنّ له الحب. ولولا ذلك لما أبدت ذلك النشاط في مدّ يد المساعدة له حين كان يأتي إلى المكتبة. وكان «كيل» يذهب كل يوم إلى المكتبة. أولا؛ لأن ذلك لم يكن يكلفه شيئاً. ولكن أيضاً لأنه كان يقرأ كتاباً يومياً، ليست ضرورة من الكتب المخصصة لمن في سنّه من الأطفال. وفي نهاية الأسبوع كان «كيل» يستضيف «نعومي» في مستودع الحصيد. وكانت كثيراً ما تلبّي دعوته إذ لم يكن يدعوها غيرُه. كانت تأتي معها بصحن من الكوكيز التي كانت تعدّها بنفسها وزجاجة كوكا كولا مخففة السكر. وبصرف النظر عما كان «كيل» يكنّه لـ«نعومي» من صداقة، فإنه كان يَعُدّها عينَه على عالم الكبار. وبما أنها هجينة في عالم يعمره البيض، فلم تكن بالتأكيد جاسوسة خفية جدّاً، ولكنه كان ينتفع بها على خير وجه. كانا يظلان معاً في غرفته ساعات طوالاً، وكان خلالها يطرح عليها سيلاً من الأسئلة. ولم يكن يجيب أبداً عن الأسئلة التي كانت تطرحها عليه إذ يرى في ذلك كشفاً لضعفه.

عندما بلغ «كيل» سن الخامسة عشرة كفّ عن مطالعة الكتب؛ لأن المكتبة الصغيرة لم تعد قادرة على أن توفر له ما يكفيه منها. وقبل أيام من دخوله الجامعة – وكان قد تحصل على منحة من إحدى المؤسسات؛ بفضل نتائجه المدرسية

الخارقة – طرح «كيل» على «نعومي» سؤالاً غريباً. فبينما كانت تساعده على جمع أغراضه استعداداً؛ للسفر إلى «بيركلي» سألها إن كانت ترضى بأن تخلع ملابسها أمامه. وفسّر لها طلبه ذاك بأنه كان يتصوّر أن الطلبة الآخرين في السنة الأولى ربما كانوا جميعاً قد شاهدوا بَعدُ امرأة عارية. ولعلها كانت امرأة بيضاء مثلهم. فإن هي قبلتْ، فإنه قد يكون الطالبَ الوحيد في الحرم الجامعي الذي سيفخر بأنه رأى امرأة ملوّنة، خلاسية مثله، وهي عارية. عتبت عليه «نعومي» عدم تغزله بها قبل أن يعرض عليها طلبه الغريب، ولكنه أنكر أن يكون له أي شهوة. لم يكن يريد إلا أن يظهر بمظهر العارف. عندها نزعت «نعومي» ملابسها وتفحّصها «كيل» من كل الجوانب، حريصاً على ألا تكون الأوضاع التي طلب منها أن تتّخذها قطّ إباحية، وعلى أن يظل اهتمامه منحصراً في نطاق البحث العلمي.

وحين همّت «نعومي» بتقبيله، دفعها برفق، شاكرا لها ما أسدته إليه من جميل، ولسان حالها يقول: «هذا غاية ما كنتَ تريد». وحُفِظَت المسألة لبعض الوقت.

*

كبر «كيل». أصبح رجلاً فارع القامة ذا بنية تثير اهتمام طالبات فصله وحتى طالبات الفصول العليا. بإمكان المرء أن يولد من أمّ ضالّة، وأن يفقدها، وأن يفقد أباه الذي تعلق به، وأن تستضيفه أسرة متزمّتة، وأن يحبّ غيره، كل ذلك دون أدنى تحفّظ. كان «كيل» يعلم أن الشمس ستكفّ عن الإشراق بعد نحو خمس مليارات سنة، وكان ذلك يجعله متقداً، ويضفي على هيئته بهجة قلما توجد عند الشبّان ممن هم في سنه.

في تلك السنة، استلطف «كيل» أحدُ رفاقه في الدراسة، وكان يدعى «سول لايبوفيتش». وقد كان، إضافة إلى تميّزه بحَبّ شباب طافح يغطي وجهه،

ابناً لمقاول شديد الثراء في مدينة «أوجين». كان «سول» قد تعلق بـ«كيل»، وأعجَبُ من ذلك أن «كيل» كان قد تعلق بذاك الفتى المنعزل، المهمّش بسبب مظهره البشع، ومع ذلك فإنه لم يكن يعمل على تعويض إعاقته بالتباهي بثروته. كان «سول» يحبّ «كيل» لأنه كان يسترعي انتباه النساء، ولكنه لم يكن أكثر منه مخالطة لهن. وكان «كيل» يحبّ «سول»؛ لأنه، رغم حالته، لم يكن أبداً يتحدث عن المال. ومن خلال «سول» كان «كيل» يكتشف الفكاهة اليهودية التي لم تكن شائعة في «أوريقون». كان يجمع بين «كيل» و«سول»، إضافة إلى ميلهما النادر إلى ارتياد فضاءات ماورائية ضبابية، افتقارُهما إلى الطموح الذي كان يفتك بسائر الطلبة فتكا ذريعا. وفي حين كان غيرهم من الطلبة يتنافسون في استنباط الأفكار التي تفتح لهم أبواب الثروة، كان الصديقان يبديان لا مبالاة تامة بالموضوع.

ومع ذلك، فبينما كانا يتسكعان ذات يوم على رصيف ميناء «سان فرنسيسكو» كما لو كانا مدفوعين بهبوب الهواء، توقّف «كيل»، ثم حدّق في الماء، ذلك الماء الأخضر المائل إلى السواد، وقد ارتسمت عليه ظلال متكسرة. كانت تطفو على السطح برك من الزيت المستخدم أطلقته سفن تجارية. حدّق في الماء طويلاً، دون أن ينبس، إلى حدّ أن «سول» انتابته الحيرة:

- ماذا يحدث يا «كيل»، لماذا تنظر إلى هذا الماء القذر بهذه الطريقة؟ لا تقل لي إنك تقرأ فيه المستقبل كما تفعل بعض النسوة برواسب القهوة...

لم ينبس «كيل» أول الأمر بكلمة، ثم رفع رأسه وتأمل البحر:

- إن قلتُ لك إننا سنصبح ثريين فلن يفاجئك الأمر كثيراً؛ لأنك وريث. ولكن إن قلت لك إنني سأصبح ثرياً وسأضاعف ثروتك بشكل كبير بالتخفيف عن ضحايا كارثة كبرى، أتراك تصدّقني؟

تأمله «سول» بحذر، ولكنه، ككل أمريكي أصيل، لم يشكّ لحظة في قدرة صديقه على تحقيق ما وعد به.

- هيا، اشرح.

شبك «كيل» يديه وراء ظهره، واتخذ هيئة العالم وأردف قائلاً:

- حسب رأيك، ما هي الكارثة التي تتهدّد أمريكا؟

- لست أدري. هذا يختلف باختلاف زاوية النظر. الجمهوريون... كلا، السرطان؟

- أجل ولكن... كلا.

- الأيدز؟

- نعم ولكن لا. إنها البدانة.

- البدانة؟

- إن الجنس البشري يتدهور بسبب سوء التغذية. والأمريكي الوسط لم يعد وسطاً، بل أصبح ضخماً.

- حسناً، هل تنوي أن تفتح مطاعم وجبات سريعة نباتية؟

- كلا، فأسباب هذه الفاجعة لا تهمّني. أو بالأحرى إنها تهمّني، ولكنها تتجاوزني. وإذا كان اقتصاد السوق قد أدّى إلى التشوّه، فليس لي في الأمر حيلة. لست أحدّثك في السياسة، وإنما أحدّثك في الأعمال والعذاب.

- لا أفهم ما تقصد، يا «كيل».

- الأمر بسيط. ثلاثون بالمائة من الأمريكيين يعانون من البدانة. وعدد من بلغ منهم حداً أصبح معه غير قادر على الحركة في ازدياد مطّرد. صدّقني، أنا أحدّثك عن دراية. فعمّتي، أعني عمّتي بالتبنّي هائلة. لم تعد عملياً قادرة على الحركة.

- وأنت تحبّ عمّتك.

- أجل، فهي امرأة ودود.

- فهمت، وماذا يترتّب على ذلك؟

- يترتّب عليه، أنني عندما أفكر فيها - إذ هي الشخص الوحيد من عائلتي

الذي أفكر فيه - أستحضر صورتها وهي متمدّدة على ظهرها، طافية على المحيط الهادي، وأقول في نفسي إن تلك المرأة أصبحت حوتاً. إن انهيارها جعلها تكفّ أبداً عن أن تكون ملائمة للأرض، وثقلها، وجاذبيتها. إنها بصدد التحوّل. إن الأنواع الحية، يا صديقي، تأتي من المحيطات، وأكثر تلك الأنواع تعقّداً، وهو الكائن البشري الأمريكي، بصدد العودة إلى المحيط. أؤكّد لك أن البدينين إن لم يعودوا إلى المحيط فإنّهم يسيرون إلى حتفهم.

- أنا أدرك يا «كيل» اهتمامك بهذه القضية الحرجة، ولكن كيف يمكن أن نحصل من خلالها على الثروة؟

- أما أنت يا «سول» فقد حصلتَ بَعْدُ على الثروة. الأمر يتعلق أكثر بثروتي أنا.

- أنت تعلم أن الذي جمع هذا المال ليس أنا، وإنما الذي جمعه بمفرده هو أبي، وأنا أريد أن أثبت له أنني أنا أيضاً ورثتُ عنه قدرتَه على اقتناص الفرص السانحة.

- اتّفقنا يا «سول». إن مشروعي بسيط: أريد أن أجعل البدينين يَطْفُون على الماء. أريد أن أخلّصهم من وزنهم بجعلهم يعيشون في المراكز البحرية.

- باعتبارها مراكز للعلاج بالماء؟

- كلا، ليس هذا على وجه الدقة. الفكرة أكثر ثورية. سنجعلهم يعيشون في الماء من المساء إلى الصباح. سنجعلهم يطفون على الدوام. وفي انتظار أن نكون قادرين على أن نجعلهم يعيشون في حالة انعدام الوزن، سندرس المسألة من كل جوانبها حتى يَنْسَوْا أوزانَهم. أريد أن أعمل على جعل عالمهم يعود خفيفاً كما كان. لقد قَضَى عليهم مجتمعُنا بأن يتناولوا الوجبات السيئة، وحبسهم في زيادة الوزن... أما أنا فإني أريد أن أحرّرهم منها، أن أفتح أقفاصهم. أتفهم؟

نظر «سول» إلى صديقه بغرابة، ثم قطّب جبينه وقال:

- لست أدري إن كانت الفكرة التي ذكرتَها عبقرية، ولكنها جديرة بأن

تُدرَس دراسة جادّة. تذكّر، يا «كيل» أن أبي أثرى بفضل محطّات تنقية المياه وكل ما يتصل بها. لن تظفر بمُحاورٍ مثلَه، وهو خبير بالمعدّات، وتقنيّ في الهندسة. سأعرّفك به بشرط.

– وما شرطك؟

– أن توهمه بأن الفكرة نبعت منّا معاً. اتفقنا؟

– اتفقنا. نعم...

*

توقّفت المحادثة عند ذلك الحدّ، ولكن بعد مضيّ أيام عليها عرض «سول» على «كيل» أن يترك الغرفة الضيقة التي يشغلها، بوصفه طالباً متمتعاً بمنحة دراسية، وأن ينتقل؛ ليقيم معه في الشقة الواسعة التي كان أبواه قد احتجزاها له قرب «مرفإ الصياد» على رصيف ميناء «سان فرنسيسكو». غير أن «سول» اعترف لصديقه، قبل تنفيذ الانتقال، بأن المباركة العائلية تتطلب منه أن يؤدّي زيارة إلى أبويه في ملكيتهما غير البعيدة عن مدينة «أوجين». وستكون تلك الزيارة مناسَبة مُثلَى لإثارة مسألة مشروعهما الثوري، وبالتالي مواجهة تحليل والد «سول» النقدي لذلك المشروع.

لم ينطلق والد «سول» من فراغ. فالجَدّ الإسكافي كان قد أطلق علامة تجارية للأحذية خاصة به. وهي أحذية عملية للخوض في الماء، في أحواض بناء السفن، وخلال أعمال الصيد...وعند وفاته باع ابنُه المؤسسة محققا ربحاً مهماً، قبل أن يعيد استثمار الأرصدة في معالجة المياه المستخدمة. وإزاء هذا الإرث، وهو ماديّ وأخلاقيّ معاً، كان «سول» يعيش خائفاً من تلك الحكمة التي جعلها الجدّ في إطار كما لو كانت شهادة من جامعة «هارفارد» لإفادة الأجيال اللاحقة بأن الثروة العائلية سريعة الزوال. كانت الصيغة باللغة الفرنسية، ربما؛ لأن الحكمة نفسها كانت بتلك اللغة. كانت تقول: «كان الجد

نسراً، والأب صقراً، والحفيد حماراً حقيقياً». كان «سول» يخشى أن يعتبره أبوه كذلك الحفيد المأثور، وكان ذلك التوجّس يرعبه خصوصاً أن والده كان ذلك الصقر، وكان في مجال الأعمال يفوق الجدّ خطراً وفطنة.

قصدا المكان في نهاية أحد الأسابيع، وكان الخريف يُلقِي على أوراق الأشجار في غابة «أوريقون» ألوان النحاس، وماء الذهب، فيضفي عليها رواء بهيجاً. كان الطقس ذلك الصباح على درجة من التجمّد منعت «سول» من أن يفتح سقف سيارته «الشفروليه كورفيت ستينغ راي» طراز1960 التي أهداها له أبواه؛ بمناسبة بلوغه سن العشرين، فسارا، والسيارة مسقوفة، صعداً في اتجاه الشمال، في تلك الطبيعة الوارفة التي لا توجد في أي موضع منها نبتة ولا شجرة ضعيفة.

كان والدا «سول» يقيمان في مِلْكيّة مترامية الأطراف تبعد خمسة وعشرين ميلا عن بحيرة «كراتر»، ولا يمكن رؤيتها من طريق المقاطعة الرائق. كان الذهاب إليها عبر مسلك ترابي يخترق الغابة، تدلّ عليه لوحة صغيرة من الخشب المحفور نُقِش عليها: «خليج جاكسون». ينتهي المسلك بفسحة واسعة يتربّع في مرتفع منها بيت خشبي ضخم. وعلى جانبه تتوسد مدخنة مهيبة من الحجر الرمادي من الطراز الموجود في البيوت القرميدية. تلقّتهما أم «سول» - «أدعني «سارّة» يا «كيل» - بوجه مرحّب ينمّ عن ثقتها بأن ابنها لا يستقدم إلى البيت شخصاً غير يهودي. كان والده فارع القامة بقدر ما كان «سول» قصيرها، وكان الأب واثقاً من نفسه بقدر ما كان الابن متردداً. سَبَرَ الأب «كيل» في وقت أقلّ مما ينبغي؛ لتَوَسُّم شخص وابتسم له، كما لو كان يمنحه رصيداً من الثقة غير محدود.

- أهلاً بك يا «كيل»، لقد حدّثنا «سول» كثيراً عنك. اعتبرْ نفسَك في بيتك.

كانت والدة «سول» بتجرّد امرأة... هائلة. لذلك فكّر «كيل» بأنه يتعين

عليه أن يجد شيئاً من الوقت؛ ليحدّث صديقه على انفراد. لم يكن قد ذكر له أبداً أن أمه سمينة. أجهد «كيل» نفسه للتنقيب في ذاكرته، ولكنه لم يعثر فيها على أي أثر اعتراف من صديقه في هذا الشأن. لذلك تهيّب اللحظة التي سيثير فيها أمام السيدة «ليبوفيتش» مشروعه المتمثل في إنشاء فندق مائي للمفرطين في السمنة. لم يكن «كيل» قد وجد نفسه أبداً في وضع بهذه الدرجة من الإحراج. أحس أنه قاب قوسين أو أدنى من أن يرتكب خطأ لا يمكن إصلاحه، وأنه يخاطر بأن يَفقد سمعته نهائياً لدى هذه الأسرة التي خصّته باستقبال حار. فالعمل من أجل المصابين بالسمنة شيء، والحديث عنه أمام أحد أبرز ممثلي السمنة شيء آخر. كانت أسرة «سول» حفيّة به إلى حد أنه لم يستطع أن يجد لحظة واحدة ينفرد فيها بصديقه. وما إن وصلا حتى أراد السيد «ليبوفيتش» أن يري «كيل» البحيرة الاصطناعية التي تبلغ مساحتها ستّين فداناً والتي أَمَرَ بحفرها في منخفض، حيث تتخذ الأرض شكل الحوض. أمر بقلع الأشجار، ثم اختبر درجة مقاومة الأرض للماء. فتبين أنها اسفنجية. كل غالون ماء كان يتم امتصاصه في دقيقة. ولكن ذلك لم يجعل السيد «ليبوفيتش» يلقي السلاح. فقد غطى الستين فداناً من الحوض بشريط بلاستيكي سميك؛ لاحتجاز الماء. وكلّفه ذلك مائة وأربعة وعشرين ألف دولار. ثم غيّر مجرى جدول يسيل من المرتفعات ويخترق الملكية، وانتهى به الأمر إلى أن أنشأ قناة؛ لصب الماء تنطلق من البحيرة الاصطناعية وتلتقي بعيداً بالمجرى العادي للنهير. وحوّل البركة الاصطناعية أمر بزراعة بيئة نباتية مناسبة. وبعد النباتات عمل على تكوين مجموعة الحيوانات المائية، فصبّ ما يقرب من طن من شتى أنواع السمك، وخصوصا أسماك المياه الراكدة أضاف إليها مائة وخمسين من أسماك الكركي؛ لتعديل الكل. أقرّ بأنه بالغ شيئاً ما في ما يخصّ الكركي، إذ ما مرت سنة حتى التهمت القسمَ الأكبر من الحيوانات التي تقتات من الكائنات المائية المجهرية. وحين أثار «قاري ليبوفيتش» الموضوع نظر إلى «كيل» بعمق وقال له:

– للإخفاق مزاياه يا ابني. إن مفتاح نظامنا هو قبول الإخفاق واستخلاص العبرة منه. فمن شأن هذا أن يؤدي إلى حوافز جديدة.

ومنعاً للكراكي من أن تتكاثر مدة أطول، كان قد نظم حفلة صيد كبيرة دعا إليها جيرانه. كل جيرانه، دون استثناء. بما فيهم أولئك الذين كانوا منذ عشر سنوات خلت ينظرون بشيء من الارتياب إلى إقامة غرباء في هذه المملكية المترامية الأطراف التي كانت عندئذ بكراً. ولم يلعب كون أولئك الأغراب يهوداً دوراً مخصوصاً في برودة الاستقبال العام. ففي هذا المكان القصيّ من «أوريقون» لم يكن القوم ينشغلون حقاً بهؤلاء الناس. كانوا غرباء عاديين، لا أكثر ولا أقلّ. ولكن فوراً بعد الحفلة الكبرى لصيد الكراكي، نالت أسرة «ليبوفيتش» سمعة جيدة في الجهة، وكان القوم يلهجون بكرمها. ذاك ما كان «قاري» يحبّه حين كان الأمر يقتضي منه أن يتخطى الصعاب: كانت روح المبادرة لديه لمواجهة أخطائه غالباً ما تحظى بمكافأة تفوق ما كان يأمله.

وبعد ذلك، حلّت كارثة أخرى بتوازن البركة: إذ استولت عليها طيور مالك الحزين الرمادية كما لو كانت غرفة مؤونة لها. غير أن السيد «ليبوفيتش» لا يقرّ أبداً بالهزيمة. لم يكن ممكنا أن يطلق عليها النار؛ لأنها من الأنواع المحمية، وإذا كان المرء ممن يحافظ على البيئة مثله، فإنه لا يستجيز خرق القانون. عندها عنّت له فكرة تتمثل في أن يقيم على ضفاف البركة طيور مالك حزين كبيرة زائفة مصنوعة من البلاستيك، من الطراز الرفيع لتماثيل الحديقة، وتكون نسخة مطابقة بالحجم الطبيعي، وذلك لإثناء طيور مالك الحزين الحقيقية عن الوقوع على منطقة سبقها إلى استيطانها سرب آخر. ولكن النتيجة لسوء الحظ لم تكن كما توقّعها. إذ يظهر أن طيور مالك الحزين البلاستيكية كانت تبدو إناثاً، ومنذ وُضِعت حول البركة صارت هدفاً لمثابرة غريبة من الطيور الحقيقية. فقد أصبحت تسعى إلى التزاوج معها، في حركات جنسية كانت السيدة «ليبوفيتش» تجدها مقرفة، وهي تراها من الشرفة التي كانت تقضي

فيها، حين يكون الجو صحوا أياماً بأكملها تتأمل تلك اللوحة المائية التي تريح أعصابها. أما السيد «ليبوفيتش» الذي كان يُظهِر السكينة في حالات الغضب فلم يكن الأمرُ بالنسبة إليه إلا تحدياً جديداً عليه أن يتجاوزه. وحين كان يُكمِل حكايته، انتهز «سول» الفرصة ليسرّ لـ«كيل»:

– هل تدرك الآن السببَ الذي يجعل أبي الرجل المناسب لنعرض عليه مشروعنا؟ أرجّح أنك لاحظت أن كل ما يتعلق بالبحيرة الصغيرة وريّها يشتغل على ما يرام. والمشاكل الوحيدة التي يصطدم بها هي تلك التي تتصل بعلم خارج عن اختصاصه هو علم الحيوان.

وافق «كيل» صديقه مبدياً إعجابه. ولنذكّر بأن السيد «ليبوفيتش» مهندس مختص في علم المياه والسوائل، وأنه أسس شركته في هذا القطاع ولمّا يبلغ الثامنة والعشرين. وكان قد أنشأ ما يربو على أربعمائة محطة تنقية مياه لحساب جمعيات عمومية على طول التراب الأمريكي، مما بوّأه لأن يكون، حين بلغ الخامسة والخمسين، صاحب ثروة سرّيّة ولكنها معتبرة جعلته من بين أغنى ثلاثة آلاف أمريكي في العالم.

لقد كان «قاري» الرجل الذي ينبغي أن يُخطَب ودّه. كان «كيل» يجده على بساطة محمودة. لقد أثبت رجل الأعمال نفسَه، ولم يعد يتأثر بأي مظهر مخصوص. ذلك أنه لم يعد له من دور يضطلع به غير دوره. كان «كيل» قد أحس بَعدُ بالإعجاب يملأ عليه أقطار نفسه بهذا العالِم المجنون الذي أفلح في توظيف موهبته. ولسوف يعود من عطلة نهاية الأسبوع هذه يفعمه الشعور بأنه عاش حدثاً غير مألوف.

كانت الشرفة التي قُدِّم فيها العشاء مدفّأة بسخانات ضخمة تشتغل بالغاز. لم تغادر السيدة «ليبوفيتش» مكانها الذي تجلس فيه تتأمل البركة طوال اليوم. أدرك «كيل» أنه، حين يصبح الطقس إلى البرودة أميل بصورة واضحة، ويصبح السخّانُ النقالُ عاجزاً عن الحفاظ على درجة حرارة كافية، تُنقَل السيدة

«ليبوفيتش» مترين إلى الخلف داخل البيت وراء النافذة الزجاجية. ذلك أنها لا تغيّر مكانها إلا مرتين في اليوم. مرة للذهاب من غرفتها إلى الشرفة. ومرة للعودة إلى غرفتها من الشرفة. وهذا ما يفسر وجود خادمة تقوم أيضاً مقام الطبّاخة. تبلغ حوالي الخامسة والثلاثين من العمر وهي خلاسية. يخيّل للناظر أنها خلاصة تزاوج كل الأجناس البشرية، من جنوب «باتاغونيا»[1] إلى شمال «آلاسكا»[2]. كانت تحمل في ذاتها ألف خصيصة عرقية: فوجهها، وحركاتها وقسماتها تنتمي إلى أنماط الهنود، والإنكا، واللابونيين، والزنوج والأمريكيين الجنوبيين بل وحتى أهل القوقاز. وبفضل الابتسامة الرائعة التي وُهِبتها كانت خلاّبة لألباب الضيوف. كانت الوجبة التي أعدّتها، إضافة إلى السلاطات المنوّعة بكل أصناف الصلصات، تشكيلة حقيقية من أسماك البركة، مقليّة في شيء من الدسم يخفي على نحو ما أن لحمها لا طعم له. حمد «كيل» الإله - أو بالأحرى الصدفة - أن كانت دراستهما هي موضوع الحوار الرئيسي على مائدة العشاء. أتى الحديث على مزايا الجامعة واختصاصاتها. وفي الوقت الذي كان «كيل» يعتقد فيه أنه نجا من الأسوإ، طوى السيد «ليبوفيتش» منديله بعناية ووضعه إلى جانب صحنه. وبعد أن تجشأ تجشوءاً خفيفاً بسبب المقليّات ابتسم لـ«كيل» وقال له:

- عزيزي «كيل»، فضلاً عن ابتهاجنا برؤيتكما أنت و«سول»، فإنّ «سول» كان قد ذكر لنا سببين لرحلتكما. فقد كان يرجو أن نلتقي بك، أنا وأمه، لمعرفة ما إذا كنّا نوافق أو نعترض على إقامتك معه في شقته بـ«مرفإ الصياد». بصدق، لم أرك إلا ساعات قليلة منذ وصولك، ولكنني أقرّ في هذا الصدد بأني لا أملك إلا أن أثني عليك. وإن لم ترتكب خطأً شنيعاً قبل رحيلكما

(1) باتاغونيا (Patagonie) منطقة تقع في أقصى جنوب أمريكا اللاتينية، الجزء الأكبر منها في الأرجنتين. (المترجم).

(2) آلاسكا (Alaska) هي إحدى الولايات الأمريكية، وهي الولاية الوحيدة المنفصلة عن بقية الولايات. تقع شمال غرب كندا. (المترجم).

مساء غد، شنيعاً حقاً كأن تحاول الهروب بقسم من الأواني الفضّيّة أو شيء من هذا القبيل، فليس ثمة في رأيي ما يمكن أن يضاف. كلا، كنت أمزح معك، لقد نجحتَ في امتحان «ليبوفيتش» بتقدير «مشرّف جدّاً». «سارّة» هل لك شيء تريدين إضافته؟

لفّت السيدة «ليبوفيتش» غطاء المائدة حول أصابعها. وحدّقت في «كيل» قائلة:

– كلا، لا أرى شيئاً مهماً يمكن أن يكون مثاراً للطعن في هذا الفتى. طبعاً، وهذا أمر يمكنك أن تتفهّمه يا «كيل»، كنت أفضّل أن يحدّثني ابني عن رغبته في أن يقيم مع شابّة يهودية. أتصوّر أنك قادر على إدراك الأمر. وإن كنت غير مهيَّأة لذلك. ما زال الوقت مبكراً جدّاً حتى تأخذ منّي إحدى الشابّات ولدي. وفي هذا الاتجاه أعتقد أن إقامتكما معاً فكرة طيبة، على الأقل في الوقت الراهن. حقاً، أجدها طيبة هذه الفكرة. ولكني أعتقد أنه لكي يكون كل شيء واضحاً يتعين على «كيل» أن يسهم في نفقات الشقة. ليس المطلوب قطعاً أن يكون هذا الإسهام متناسباً مع أهمية الموضع، بطبيعة الحال، ولكن عليه أن يدفع ما كان ينفقه عندما كان يعيش بمفرده، أظن أن الأمر معقول بهذه الصورة. ما رأيك يا «قاري»؟

– أعتقد أنك محقّة تماماً، يا «سارّة». والآن وقد اتفقنا على هذه المسألة، علينا أن نتطرق إلى الجانب الثاني من هذه الرحلة وأنا أنتظره بفارغ صبر. فـ«سول» الذي أثق فيه ثقة تامّة قال لي إن لكما معاً فكرة أعمال استثنائية وأنها، زيادة على ذلك، تتقاطع مع مجال الماء وهو، كما ترى، مجال تخصّصي. تفضّل يا «كيل»، نحن مصغون إليك.

انتابته رهبة غريبة، يشترك فيها أولئك الذين تعرضوا، في وقت ما، لفقدان كل ما جمعوه إلى ذلك الحين. كلاعب البوكر الذي يغامر بكل ما لديه من أجل أربع سبعات. إلى ذلك الوقت كان «كيل» يرى نفسه غنياً: فهذه الأسرة كانت

على وشك أن تتبناه، على نحو ما. كانت مُقاسَمَتُه «سول» شقّتَه فرصةً رائعة؛ ليخفّف دفعة واحدة من همومه المالية. وفجأة، في الوقت الذي كان يبدو فيه أن كل شيء يسير على ما يرام، نشب لديه يقين بأنه سيقضي على كل شيء في طرفة عين، حين يفصّل القول في هذا المشروع الذي سيسبب الإذلال للسيدة «ليبوفيتش». خطرت بباله فكرة طبيعية على نحو ما هي أن يتظاهر بأنه أصيب بوعكة صحّيّة ويُغمَى عليه. كيف يترك «سول» بجزرة كهذه تقع على مرأى منه، ومن أبويه دون أن يحرّك ساكناً؟ نظر إليه نظرة المتضرّع. ولكن «سول» الصغير لم يدرك من معاناته شيئاً. كان يتململ على مقعده، وقد نفد صبره ليذهل والده بذلك المشروع المجدّد.

طفق «كيل» يتكلم بصوت يكاد يكون خافتاً، متفادياً نظرات أهل البيت:

– حسنا، لقد فكرتُ أنه بإمكاننا أن نتصوّر سوقاً حول المراكز المائيّة لـ... أقصد... أعني أن الوزن المفرط هو بالنسبة إلى شريحة من سكان أمريكا مصدرُ معاناة كبرى. ففكرتُ بأننا يمكن أن نخفف آلام أولئك الناس إن أتحنا لهم إمكانية العيش في هذه المراكز المتخصّصة التي ستصمَّم خصيصاً لاستقبالهم. ووفرنا لهم بيئة لا يكون وزنهم عائقاً لهم فيها.

توقف «كيل»؛ ليستردّ أنفاسه، وليرصد الأضرار التي تركها في ضيوفه دخولُه في الموضوع. كان السيد والسيدة «ليبوفيتش» يرمقانه، دون أن يبدو عليهما أي انفعال.

– أشرحُ رأيي. لا يتعلق الأمر بإنشاء محطات مائية، ولا مراكز للعلاج بالمياه، وإنما أرى أن نفتح بيوتاً متخصصة، طبّيّة، يمكن فيها للأشخاص الذين يعانونَ من زيادة في الوزن كبيرة أن يجدوا بعض الراحة في تنقلهم، لأنهم سيكونون في سائر حركاتهم محمولين بالماء. نريد أن نقترح عليهم أن يعيشوا في حالة انعدام الوزن في الماء. لا مراء في أن الفكرة جديرة بأن تُطوَّر. ولكن علينا أن نتعمق في الموضوع، إذ هناك بالتأكيد ألم حقيقي ولكن هناك أيضاً

سوق حقيقية. فثلاثون في المائة من الأمريكان يعانون من السمنة. نصفهم تقريباً صاروا عاجزين عن الحركة بصورة طبيعية. مما يعني أن هذا المشروع يهمّ خمسة عشر بالمائة من الأمريكان...أي ما يقرب من أربعين مليون شخص. طبعاً توجد اليوم أنواع كثيرة من العربات المتحركة المزوّدة بمحرّك والتي تسهّل التنقل...

في تلك اللحظة بالذات قرّر «كيل» أن يواجه نظرات السيدة «ليبوفيتش». وأن يخاطبها مباشرة. كأنما ليقول لها: «لستِ معنيّة بالموضوع، إنما أتحدث عن أناس لا صلة لهم بك». لم يكن «كيل» يدرك آنئذ أنه كان يخطو خطواته الأولى في مجال السياسة. أردف حديثه قائلاً:

- تلك العربات المتحركة يمكن أن نعتبرها أبرز منافس لنا. ذلك أن الواضح هو أنها تضع ضمنياً مستخدميها في صنف المعوقين. وهذا أمر يعسر على ضحايا الوزن الزائد أن يتحملوه، إذ هم يجدون أنفسهم وقد ضُمّوا إلى صنف من الناس لا صلة تربطهم بهم. في المراكز التي ننصح الأشخاص البدينين بارتيادها سيستعيدون شيئاً من الكرامة. وسيوفر لهم الماءُ خفّةً جديدة. سيكون بإمكانهم أن يطفوا على سطحه، أو يسبحوا فيه، بل وحتى أن يغطسوا فيه بفضل اسطوانات الأكسيجين. هنا مكمن الأهمية، أن يستعيد المرء لمدة ساعات، وحتى أيام ذلك الشعور بالقدرة على التنقل، والحياة دون أن يبذل مجهوداً. بل إني أملك في أوراقي نظاماً لاستخدام الحمامات. من أين خطرت لي تلك الفكرة؟ من مراقبتي للحيوانات البحرية الضخمة. تصوّروا أنها تعيش على سطح الأرض... هذا مستحيل. ومع ذلك فمن يملك أن يجادل في براعتها وهي في الماء. وسواء علينا أتحدّثنا عن الحوت أم عن الحوت الأبيض والأسود، أم عن حوت العنبر، فيا لها من روعة ويا لها من رشاقة! أي سبّاح بإمكانه أن يدّعي أن سمك القرش قليل السرعة حين يسبح في جنوب المحيط الهادي؟ ذاك هو الحدس الذي يشكّل أساس هذا المشروع. فقبل كل مبادرة لا

بدّ من نظرية. وأنا أرى أنها قابلة للإنجاز، رغم طابعها المثالي. وبعد ذلك، لا بدّ من السوق. والسوق جاهزة، لا شك فيها ولا اختلاف. وسيصبح المستهلك مرتبطاً ارتباطاً كلياً بالمفهوم. فمن سيرغب في الرجوع إلى الأرض بعد أن يكون قد قضى أسبوعاً في بيئة بحرية امّحت فيها العوائق؟ ليس أمامنا إلا أن نعمل. هدفنا إخراج البدينين من مأساة الإعاقة هذه التي يسهل على البعض أن يتركوهم حبيسين فيها. علينا أن ننظر في حالتهم من زاوية إيجابية، وأن نفتح لهم آفاقاً. علينا أن نعطيهم الانطباع بأنهم مستقبل تطوّر الجنس البشري. بأنّ هذا كله جزء من دورة، وأن الإنسان عائد إلى المحيط الذي منه وُلِد. وبعد انقضاء ملايين السنوات على ذلك ها هي فئة غير قليلة من ذلك النوع الذي انبثق من البحار – ربما كانت الفئة الأكثر حظاً من الثقافة؛ لأنها تعيش في الولايات المتحدة – تهفو إلى العودة من حيث أتت، الأمر بديهي. لماذا؟ ذاك سؤال واسع، فيه شيء من السياسة، ولم نجتمع في هذا البيت؛ لنتعاطى السياسة، وإنما جئنا لنستكشف سوقاً ونفحص عما يمكن أن نجنيه منها من أرباح.

ما إن تفوه «كيل» بتلك الكلمات الأخيرة حتى خفض بصره، وحبس نفَسه كما لو كان يمارس رياضة انقطاع النفس. كان ينتظر رد الفعل الجماعي، ولكن خاصة رد فعل السيدة «ليبوفيتش». وهنا سمع تصفيقها الخافت. كانت كلمات التهليل تتصاعد، إذ انضم إليها «سول» و«قاري». كان نجاح المؤسسة محتوماً، وكان «كيل» واثقاً من ذلك. كانت السيدة «ليبوفيتش» تبتسم. وكان «سول» في قمة السعادة. لقد كُسِبَت القضية.

أردفت السيدة «ليبوفيتش» قائلة:

– أعتقد أن الفكرة طريفة. أعترف لك بأنني أول وهلة ظننت لحظة أنك ستحدثنا عن فكرة قريبة من المحطات المائية «الآكوالاند». أما الآن فقد أدركتُ أننا مع مشروع تكنولوجي حقيقي. إنه مشروع جيّد يا «كيل»، هو بالذات ذلك النوع من التحدّيات التي يهمّني أن أتجاوزها.

وردّدتْ:

– حقاً، إنّه لمشروع جيّد جدّاً.

قال «قاري»:

– حسناً، لنترك الليل يمرّ على هذه المقاربة الأولى ولْنَرَ غدا كيف نتقدم. ما رأيك يا «سول»؟

– إنها فكرة ممتازة، يا أبي.

أسرّ لابنه وهو ينهض:

– إنني لفخور بأن تكون هذه الفكرة قد انقدحت أيضاً في ذهنك يا «سول»، تصبح على خير.

كانت السيدة «ليبوفيتش» تحاول النهوض للمرة الثالثة. ولكن محاولتها نجحت، فاتجهوا إلى غرفهم التي كانت في الطابق نفسه. أما الشابّان فما إن وصلا أمام جناحهما حتى ضربا كفاً بكف، كما يفعل المنتصرون في مباراة للكرة الطائرة. دعا «سول» «كيل» ليتناقشا هنيهة في غرفته.

قال «سول» وهو يلقي بجسده على سريره:

– لقد كنتَ مدهشاً يا «كيل»، مدهشاً حقاً.

– نعم، ولكن كان عليك أن تعلمني قبل أن نصل هاهنا أن... كيف أقول... أن أمّك كانت...

– تريد أن تقول إن أمّي هي الحريف المحتمل الأول للمشروع؟

– هو ذاك، إن شئت.

– لم أقل لك شيئاً؛ لأن كل شيء كان مناسباً إلى أبعد حدّ. فأبي مهندس متخصّص في المياه والسوائل، وأمي هي المستخدم النموذجي في هذا النوع من المشاريع. لا تستطيع أن تجد مجالاً أفضل من هذا. ذاك كل ما في الأمر.

– ولكن قل لي يا «سول»، هل إن أمك على هذه الحالة منذ أمد بعيد؟

– لم أرها قط على غير تلك الحال. أعتقد أن الأمر بدأ حين تعرّفتْ على

والدي. والدتي يونانية. كل ما أعرفه أنها أُبعِدتْ قبيل نهاية الحرب الأخيرة بثلاثة أسابيع تقريباً. ثم هاجرت إلى الولايات المتحدة مع سائر أفراد أسرتها. ولكن حدثت مأساة. ففي لحظة ركوب السفينة أفلتَ أخوها الصغير من رقابة الأسرة وسقط بين السفينة والرصيف. فقضى نحبه. هل تتصور أسرة يهودية تنجو من الموت في الحرب الأخيرة؟ لم يمت منها أحد في المعسكرات. وهنا، في لحظات قليلة، تقع الفاجعة. إن هذا يذكّرني بكل أولئك الأشخاص الذين جرحوا ثلاث أو أربع مرات في حرب سنة 1914 ونجوا مع ذلك، ولكنهم ماتوا بسبب الحمى الإسبانية في أواخر سنة 1918 أو بدايات سنة 1919... ومهما يكن من أمر فقد وصلتْ والدتي سنة 1945 والتقت بوالدي في السبعينيات. يبدو لي أنها بدأت تسمن في تلك الفترة، ولكن الأمر ظل في حدود المقبول. ولم يكن وضعها خلواً من الصعوبات... وبعد ولادتي قررت ألا تنجب أبداً، وفي ذلك الوقت بدأت تسمن حقاً. إنه المنطق البسيط.

ظل «كيل» مرتبكاً لحظات، ثم قال:

– قل لي يا «سول»، أتعتقد أن لدينا حظوظاً في رؤية مشروعنا يتحقق؟

– أنا على يقين من ذلك يا «كيل»، على يقين. لقد توافر له كل شيء حتى يتجسد. سترى، ما هذا إلا أول الغيث في سلسلة من المشاريع ستثبت شراكتنا. عليك الإبداع، وعليّ التسيير. هيا، تصبح على خير، ينتظرنا عمل غداً مع والدي.

– أتدري، أظن أنني نسيت شيئاً جوهرياً يخدم مشروعنا. فبالنسبة للذين نستهدفهم، ستكون قدرتهم على العيش في الماء، ضربا من استعادة إحساساتهم بالسائل الأمينوسي... لا ينبغي لنا أبداً أن نغفل عن أن كل كائن بشري يقضي الأشهر التسعة الأولى من حياته في الماء، دون أن يتنفس ذرة من الأوكسيجين. في تلك المرحلة نكون في أصل الحياة. ثم يكون انقطاع الماء، والطرد إلى المجال الهوائي، وهو الصدمة الكبيرة الأولى التي نتلقاها قبل قطع الحبل

السرّي... الذي يبعدنا نهائياً عن حالتنا بوصفنا ثدييات بحرية. والمصابون بالسمنة هم أكثر الناس تألماً من هذا الوضع الجديد إذ أنهم أقل الناس تأهلاً للعيش فيه. غير أنه يجوز اعتبارهم الأصلَ الأصيل للنوع البشري لا صورة من صور انحطاطه. يتعين علينا قطعاً أن نبرز هذا الجانب مستقبلاً. إنه ليحزّ في نفسي أنْ غفلتُ عن الإشارة إليه.

– لا عليك، فقد بسطنا من الحجج ما يكفي. تصبح على خير يا «كيل».

التحق «كيل» بالغرفة التي خُصّصت له، وحالُه كحال لاعب كرة المضرب الذي كان في أسفل الترتيب فارتقى إلى نهائيات البطولات الأربع الكبرى. لم يشعر في حياته أبداً بأنه مواطن أمريكي كما شعر به تحديداً في تلك اللحظة.

كانت غرفة واسعة مزودة بنافذة زجاجية يرجّح أنها تطلّ على البركة. من العسير عليه أن يجزم؛ لأن الظلام كان مخيماً. قبل أن يخلد «كيل» إلى النوم أراد أن يتذوق حلاوة انتصاره. تمدد على السرير، شابكاً ذراعيه وراء رأسه. استعرض بسرعة شريط حياته منذ بدايتها، طفولته التي يعتبرها نعمة، وفكّر أنه كان يود لو قاسمته هذه اللحظةَ امرأةٌ. خطرت بباله «نعومي». يقيناً أنها كانت تحبه حتى تتعرى على ذلك النحو أمامه وهو ينظر إليها بعيني فتى بارد الشعور.

ثم انطمست صورة «نعومي»، وحلَّت محلَّها صورة أمّه. حين جرفها المحيط الهادي لم يبك، لأنه كان على يقين من أن المحيط سيردّها إليه، مبلّلة ولكنها مبتسمة. لم يُعِدْ له البحرُ جسدَ أمه. حمله إلى الأعماق. كان يذكر لوعة زوج أمه، ولم يكن يذكر لوعته، فبما أن جسدها لم يُعثَر عليه فقد كان يعتبر أنها لم تفارقه. كان يعيش دائماً معها، ولئن لم يرتبط أبداً بعلاقة مع أي فتاة من الفتيات اللاتي راودنه، فإن ذلك لم يكن مراعاة لـ«نعومي» التي كانت جديرة بتفضيله إياها، بقدر ما كان تجنباً لإيذاء أمه، حتى لا يبسط أمام ناظريها أشياء يمكن أن تجرح شعورها.

وفي الصباح، وبعد ليلة قصيرة مضطربة، استيقظ «كيل» على ضجيج أصمّ كأنه صوت الزلزال سواء بسواء. ما عتّم «كيل» أن أدرك أن السيدة «ليبوفيتش» قد قطعت للحين طريق الذهاب اليومي بين غرفتها وشرفة البيت مستعينة بمشاء لا تلبث الخادمة بعد ذلك أن تخفيه عن أنظار الآخرين. كان «قاري» قد خرج في ساعات الصباح الأولى يسعى حثيثاً حول البركة. وكان «سول» ما يزال نائماً. وجد «كيل» نفسه وحيدا مع السيدة «ليبوفيتش» لتناول الإفطار. لم يشهد في حياته مائدة بمثل تلك الوفرة. كانت حافلة بكل ما عرفته الخليقة من أنواع الحبوب والخبز وعصائر الغلال. أكلت السيدة «ليبوفيتش» زهاء ساعة دون انقطاع. تساءل «كيل» عما إذا كان ذلك دأبها كل يوم، أم إنها كانت تستغل غياب زوجها وابنها استباقاً للأمور. وحين بدا أنها أكملت الأكل وضعت لها الخادمة على المائدة ستّ بيضات مقلية وما يقرب من دزينة من نقانق ستراز بورغ مع صلصة الطماطم والخردل. وقبل أن تهجم على القسم الأهم من الإفطار، قررت أن تبوح لـ«كيل» بما كان يضيق به صدرُها:

– لا تغضبْ يا «كيل»، ولكني سأكون صريحة معك. لم أكن أبداً موافقة على إقامتك في بيت ابني وما زلتُ على رأيي...

نطقتْ بهذه الجملة بسرعة مذهلة، كما لو أنها لم تكن تريد أن يحدث لها أي تأخّر في الوجبة. ثم التقفت ثلاث لقم متتالية وغمغمت وهي تمضغ:

–...بما أنه يبدو أن ابني حريص على ذلك، وأن زوجي لا يرى فيه مانعاً، فقد انضممتُ إلى الأغلبية. ولكن لا يذهبنّ بك الظن إلى أن تَسمُّري على هذا المقعد قبالة هذه البركة الاصطناعية يمنعني من التفكير. العكس هو الصحيح. إنني أنفق حياتي في التفكير، وبإمكاني أن أقول دون تبجّح إنني وإن لم أكن أبداً في وضع يسمح لي بأن أغدو ملكة جمال «أوريغون»، فإن بمقدوري أن أفوز بجائزة «أوارد» للمرأة الأكثر تعقلاً في الولاية. والحاصل، أنني أريد فقط أن يطلب «قاري» من محاميه أن يُعدّ عقداً يحدد الشروط التي بمقتضاها ستقيم

في بيت ابني. لا أريد أن يبدو هذا كما لو أنه ضرب من الإيجار غير المعلن، وأن يعطيك حقوقاً. أريد أن تقرّ دون لبس أنك إنما تعيش في بيته بفضل تكرمه وأنك تتنازل عن الاستفادة من هذا الجميل أمام المحاكم.

أراد «كيل» أن يحتجّ:

– ولكن يا سيدة «ليبوفيتش» لم تكن لديّ أيّ نيّة في...

– أعرف يا ولدي، أنا لا أشك في نواياك. ولكنّ لكل إنسان جانباً خفياً. وما نراه منك اليوم يمكن أن ينقلب رأساً على عقب بسبب المصالح الشخصية. ففي أعماق كل منا وحش نائم، ولا أريد أن يكون لي شأن بوحشك، ولا أن يواجهه ابني، دون أن أحميه منه مسبقاً على الأقل. هل إن كلامي واضح لحد الآن؟

– تماماً يا سيدة «ليبوفيتش»، إن مقاصدك جديرة بالثناء.

– أضيف أنني إن قبلت بهذه المساكنة، فإنني أرجو مقابل كرمنا، أن تتعهد بالدفاع عن ابننا ضدّ أي اعتداء بدني. فأنت طويل القامة قوي البنية إلى حدّ ما، وولدنا قصير ونحيف. عليك إذاً أن تلتزم تعاقدياً بأن تبذل قصاراك في حال تعرّضه لاعتداء، وألا تستغل ذلك فيما بعد للمطالبة بتعويض مادّي ما.

توقّفتْ لتلتهم ثلاث بيضات دفعة واحدة، دون أن تفتّت محّها، وأردفت قائلة:

– لقد حرصتُ على هذه المحادثة بيني وبينك يا «كيل»؛ لأنني في هذا البيت أنا الشخص الوحيد الذي ما زال يحس بمعنى الواقع. زوجي لا يرى أبداً هذا الجانب من الأشياء، فهو مفرط الانشغال بتطوير اختراعاته. وإلى ذلك فلديه نقطة ضعف – أعترف أنه تخلص منها بعض الشيء بمرّ الزمان – هي أنه يثق في أي شخص يمكن أن يُلهِمَه. أنت تعلم، أن جميع الناس اليوم يعلنون إعجابهم بنجاح زوجي. ولكنهم ينسون أنني لو لم أكن هنا لأضع شيئاً من الصرامة في علاقاته بالناس، لأفلس اليوم بسبب أسلوبه الديموقراطي. ترى يا

«كيل»، بما أنه كان لزاماً علينا أن نتلاقى، فقد أحببتُ أن تعرف عني المزيد. عليك أن تتناول مرة أخرى من هذه الحبوب مع شراب القيقب، إنها لذيذة.

وفي اللحظة التي بدت فيها وكأنها أتمت خطابها تراجعت قائلة:

– لدي سؤال أخير يا «كيل» ولن نثير الموضوع مرة أخرى. هل تثير الفتيات اهتمامك؟

حكّ «كيل» رأسه وأجاب:

– قليلاً.

– فهنّ يغوينك إذاً.

– لا أكثر من ذلك، بصدق، يا سيدة «ليبوفيتش».

صرخت وفتات كسرة الخبز يتطاير من فمها:

– المهمّ، لست من المثليّين الجنسيّين؟

– يمكن للمرء ألا تغويه الفتيات دون أن يشعر مع ذلك بانجذاب إلى الفتيان. هذه كلمة شرف منّي.

تنهّدت قائلة:

– إذاً سأكتفي بهذا. وسأضيف شيئاً. إن رأيتَ يهودية حسناء تدنو من «سولي» في الجامعة، أشكنازية متفائلة أو سفاردية متميزة، فشجّعه. هذا اتّفاق بيني وبينك.

ما كادت المحادثة تنتهي حتى بدا «سول»، والنعاس يغالبه. كان يجهد ليستيقظ. سأل وهو يصبّ لنفسه القهوة:

– هل قطعتُ محادثتكما أم إنني أخطأت؟

أجابته أمه:

– كلا، كلا، يا عزيزي. لقد انتهينا من الحديث حالاً.

– عمّ كنتما تتحدّثان؟

– من هنا وهناك. لا شيء يستحقّ أن يكون في الصندوق الأسود لهذا

البيت الرائع. أليس كذلك يا «كيل»؟

– هو كما قلتِ، يا سيدة «ليبوفيتش».

دخل «قاري» بدوره، منشرحاً. يبدو أن هذا الطبع المرح لا يفارقه أبداً. قال:

– أخيرا استيقظتم. لقد فاتتكم بداية يوم رائع. هذا الصباح عندما ذهبتُ إلى البركة لتغيير مصفاة، رأيت أيّلا يشرب. إن شئتم أن تشاهدوا الحيوانات البرّيّة، فعليكم أن تبادروا في الفجر أو عند الغروب. أعتقد أن الفجر أفضل؛ لأن الحيوانات تشعر أن الفجر يتلو السكون في حين أن الغروب يتلو الجلبة... إنني مصرّ على أن أصطاد سمكة كركي قبل هذه الليلة، فإن أردتما أيها الفتَيان أن نتناقش حول مشروعكما، فأعتقد أن عليكما أن تتحركا قليلاً.

استقرّ الرجال الثلاثة في المكتب، وهو غرفة فسيحة تطلّ على الجهة الخلفية. كانت تخيّم عليه فوضى مذهلة. رزم من الملفات والوثائق التقنية والمجلات التي لا تتفاضل إلا في درجة التخصص. كانت الجدران مكسوة كتباً، وكانت المنضدة الواسعة المصنوعة من خشب الكمثرى تُستخدَم لوضع أجهزة إعلامية من آخر طراز، كانت خيوطها متداخلة في خصلة. ولم ينج في الظاهر من ذلك الركام إلا جدار واحد، إذ نُشِرت عليه صورة مكبَّرة للأخوين «كيندي». كانت الصورة الشهيرة تمثل «جون» و«بوب» جالسين متحاذيين على أريكة في البيت الأبيض وقد استغرقا في الأفكار. لم يكن التواطؤ الأخوي المعلن كافياً لإخفاء شعور القلق الذي كان طاغياً على وجهيهما.

كان «كيل» يلقي نظرة عجلى على المكان، فقاطعه «قاري» قائلاً:

– حسناً، أعتقد أنه من غير الضروري أن نرجع إلى الأهمية التي أعلّقها على فكرتك يا «كيل»، فهذا أمر حاصل.

استقرّ «قاري» وراء مكتبه، وجلس ابنُه بجواره وظل «كيل» وحده قبالتهما.

أردف «قاري» قائلاً:

– علينا الآن أن نبحث عن الطريقة التي نستطيع بها أن نضع الفكرة موضع التنفيذ. لن ننطلق إلا إذا حصلتما على شهادتيكما. وهذا يعني أن لدينا سبعة شهور لتطوير جوانب المشروع التقنية، وإنجاز دراسة للسوق مفصلة، ووضع التقديرات المالية. وبطبيعة الحال إنشاء الشركة. وقبل هذا كله ينبغي أن نحرر بروتوكول اتفاق بين الشركاء، حتى تكون بنودُ اتفاقنا مدوّنةً كتابياً مصحوبة بالعقوبات المالية التي تترتب على الطرف الذي يخلّ بالاتفاق. هل الأمر واضح بالنسبة إليك يا «كيل»؟

– وضوح الشمس، سيدي.

– حسناً، قبل أن نبدأ بتحرير هذه الوثيقة مع أحد المحامين، يتعين علينا أن نتفق على توزيع الحصص. هل لك تصوّر حول هذه النقطة؟

أجاب «كيل» مازحاً، وقد فاجأه السؤال:

– أوه، كلا. ليس لديّ تصوّر دقيق.

ثم حدّث «كيل» نفسه بأنه في الحقيقة صاحب المبادرة في المشروع، فاستدرك قائلاً:

– بل لديّ تصوّر. أفكّر في شيء قريب من المناصفة، يا سيد «ليبوفيتش».

ابتسم له «قاري» أجمل ابتسامة أنتجها علم تقويم الأسنان، وقال:

– خمسون في المائة لي، وخمسون تتقاسمانها أنت و«سول». فعلا، أعتقد أنها قسمة عادلة إلى حدّ ما...

ألقى «كيل» نظرة إلى «سول» فخفض بصره. وأشار موافقاً.

*

غادر الولدان البيت بعد الغداء مباشرة. يحتاج قطع الطريق إلى «سان فرنسيسكو» إلى ما يقرب من ست ساعات، وهما عازمان على التمتع قدر

المستطاع بالسيارة المكشوفة في فترة بعد الظهر قبل أن يضطرّا إلى رد غطائها بسبب البرد. أثناء الغداء لم يشر أحد إلى الاتّفاق المبرم. فالسيدة «ليبوفيتش» ما كانت لترحّب به. فقد عارضتْ دائماً أي شكل من أشكال الشراكة مع أطراف خارجية. وكان زوجها يشاطرها الرأي، غير أن الأمر هذه المرة لا يتعلق بهما وإنما يتعلق بابنهما. كان «قاري» متيقناً من أن «سول» لا يملك القدرة على مواصلة أعمال أبيه ولا على استنباط أعمال جديدة بنفسه. كانت تلك طريقتَه في أن يضع له رجله في الركاب. كان من العسير عليه أن يكوّن لنفسه فكرة بمثل هذه السرعة، وفي يومين غير كاملين، ولكن ما لا شك فيه هو أن «كيل» كان ولداً مبدعاً، وواثق القدم، و«سول» شديد التمسك به. لقد أثبت أثناء المفاوضة أنه يملك ردود فعل جيدة. كان «قاري» على يقين من أن المشروع قابل فعلاً للتحقق.

ترك «سول» صديقه يقود السيارة. كان على غرار كلب الصيد الإيرلندي تستهويه الريح اللاذعة، ورجلاه موضوعتان على لوحة السيارة. وقال:

– أرجو ألا تكون قد تضايقت. لقد بالغ والدي. ولكن لم يكن ذلك إلا لاختبارك. ذاك ما يسميه «استراتيجيا القطع». إننا لا نعرف شخصاً حق المعرفة إلا إذا وضعنا أنفسنا في موضع قطع الصلة معه تماماً... الآن أنا أعرف أنه يكنّ لك تقديراً حقيقياً. أتدري، أن والدي ليس شخصاً غريباً، إنه يشتغل ببساطة.

– أمك قالت لي أثناء تناولي الإفطار معها هذا الصباح أن نقنّن علاقتنا في الشقة.

– لا عليك، أنا على علم بذلك. فهي مصابة بجنون الارتياب على نحو ما. اسمعْ، سنرى الوثيقة التي سيحرّرها المحامون. المهم هو أننا نجحنا في قضاء عطلة نهاية أسبوع موفقة. والداي موافقان على أن نتقاسم الشقة ومشروعنا على الطريق. فماذا نرجو فوق ذلك؟

– لا شيء يا عزيزي «سول». حقاً لقد صدمتني قليلاً الطريقة التي سارت

عليها الأمور مع أمك. لقد نجحنا في قضاء عطلة نهاية أسبوع موفقة، وهذا هو المهم... قل لي، لماذا يضع أبوك تلك الصورة الكبيرة المؤطرة للأخوين «كيندي» على جدار مكتبه؟

– كان أبي يقدّر دائماً أنه لو لم يمت الأخوان «كيندي» لما كانت أمريكا على ما هي عليه اليوم. لقد كان على الدوام ديموقراطياً، ويعتقد أنه من المثقفين. وبالنسبة إليه لا وجود لمثقفين جمهوريين، فما هم إلا خبراء في الاستراتيجيا عديمو الضمير. أعتقد أن والدي رجل حسن النية. وقد أثبت ذلك مع والدتي. بصراحة، أي رجل يستطيع أن ينام مائلاً في سرير امرأة تزن مائة وثلاثة وستين كيلوغراماً؟ لم يتّخذ أبداً سريراً خاصاً به ولا غرفة على حدة. وأنا واثق من أنه لا يخون والدتي.

– وأمك كيف تتفاهم معها؟

– مع أمي الأمر عسير جداً. لا شيء يسير على ما يرام. لا بدنها، ولا رأسها، ولم تقبل أبداً أن تفعل شيئاً لمقاومة هذا المشكل المزدوج. بالنسبة إلي، الأمر فظيع، فهي أم تزن مائة وثلاثة وستين كيلوغراماً لا تنظرُ إليّ أبداً كما أنا. إنها لا تنظر إليّ حتى بوصفي ابنَها. ولا حتى بوصفي رضيعاً، إنها تراني... جنيناً.

اتخذا مسلكاً مختصراً لبلوغ الطريق رقم 101، وهي أطول من الطريق السريعة وأكثر منعطفات منها، ولكنها أشدّ منها امتاعاً بكثير. لا بل إن الصديقين كانا يعتبرانها أعجب طرقات الولايات المتحدة. فـ«سول» الذي كان يملك الإمكانيات للسفر في طول البلاد وعرضها كان يقول ذلك عن دراية. أما «كيل» فيقوله حدساً. لقد كانت تلك طريقهما معاً. نقلتْ «كيل» من «لينكولن» إلى «سان فرنسيسكو». وأبعدتْ «سول» عن أمه. كانت تُطوَى كطيّ الزلاقة الهادئة في حفل كرنفال، وتشرف على المحيط الهادي المخيف الذي تتكسر أمواجه على الشواطئ الصخرية.

– لماذا يقول أبوك لو أنّ الأخوين كيندي لا يزالان على قيد الحياة لما كانت

أمريكا على ما هي عليه الآن؟

– أَثِرِ المسألةَ معه يوماً ما. إنه مقتنع بأن اغتيالَيْ «جون» و«روبرت» كانا انقلابين حقيقيين. كما كانا تحذيراً لكل رئيس ديموقراطي يمكن أن يفكر في أن يرسي سياسة ديموقراطية. كان والدي يقول دائماً إن أمريكا ديموقراطية ذات حزبين مُنع أحد حزبيها من الحكم. ووالدي يزعم أيضاً أنه من الوحيدين الذين تنبؤوا باغتيال «روبرت» سنة 1968، حين تبيّن أنه سيفوز في الانتخابات. وبلغ به الأمر إلى أن كتب له. أُقسِمُ على ذلك. بعث إليه رسالة في أبريل أو مايو 1968 ليُودِع لديه أموالاً من أجل حملته الانتخابية. وقد قال له فيها أن يحافظ على نفسه، إذ كل شيء توفّر لقتلة أخيه بأن يعيدوا الكرّة معه، ليحولوا دونه ودون الرئاسة. ولكن يبدو أن «بوب» كان مقتنعاً بأنهم لن يجرؤوا أبداً على أن يقتلوه بعد أن صرعوا أخاه. ومع ذلك فقد فعلوها. لم يفقد والدي أبداً إيمانه بالنظام الأمريكي؛ لأنه ليبرالي ولأنه يؤمن بالعمل الحر. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون على يقين من أننا نعيش في ضرب من الدكتاتورية...

– هل جاء أبوك من أوروبا بعد الحرب، هو أيضاً؟

– كلا، بل قبل ذلك بكثير. لقد وصلتْ عائلتُنا في أواخر القرن التاسع عشر. هرباً من الاضطهاد في أوروبا الشرقية. وشيئاً فشيئاً أصبحنا مختصّين في كل ما له صلة بالماء، وخصوصا المياه المستخدمة. والدي يقول إنه سيكون بإمكاننا قريباً أن نستعيض عن البترول بالماء في تشغيل السيارات، إن كنا حقاً نريد ذلك. ولكننا لن نستخرج أبداً ماء من البترول. وعادة ما يضيف: «لقد انتهى البترول بعد، وهذا بالذات ما يزعج أهل «تكساس». لأنهم لا يحسنون شيئا غيره. إنهم يبذلون لذلك جهداً كبيراً». أبي لا يحبّ أهل «تكساس»؛ لأن «كيندي» مات بـ«دالاس». أسرتي هي أسرة يهودية قديمة من الغرب، كما أن أسرة «كيندي» هي أسرة قديمة من الشرق. ورغم أن الكاثوليك لا يقلّون عن البروتستانت عداء للسامية، فإنهم عندما وصلوا إلى القارة الأمريكية كانوا

أقلية، مثلنا. وفي جامعة «هارفارد» كان البروتستانت ما زالوا يطالبون بتحديد حصص للكاثوليك واليهود حتى لا يتمكن هذان الجنسان من إحراز قصب السبق عليهم في النخبة المثقفة الأمريكية. لم يكن الدين أبداً أساساً بالنسبة إلينا. والدي لا يحيي أيّ عيد ولستُ حتّى متأكداً من أنه يؤمن بالإله. له نظرية في هذا الصدد. يقول إنه ما كان علينا أن نخلق هذا الإله الواحد الشرير. حين قذف النازيون بأهلنا في غرف الغاز فإنهم تحدّوا هذا الإله عينه مقدّمين للعالم الدليل على لا مبالاته. تلك هي مشكلتنا الحق، فالنازيون لم يكتفوا بإبادة شعبنا بل سفّهوا معتقداته.

ظل «سول» ساهماً هنيهة ثم أردف قائلاً:

– المشكلة الأخرى لدينا، ولكننا نشترك فيها هذه المرة مع المسلمين، هي مشكلة أمهاتنا. إنهن يتعاملن مع الحبل السرّي كما يتعامل صياد الطعم مع خيط قصبته.

كان «كيل» وهو يصغي إلى اعترافات «سول» يحسّ على وجهه بمداعبة الريح، ريح الصيف الهندي الدافئة التي كانت تثير شَعره. كان الصديقان يؤجّلان أكثر ما يمكن لحظة تغطية السيارة المكشوفة، حتى يتمتعا بلحظة الحرية تلك المألوفة جدّاً في الميثولوجيا الأمريكية: رجلان يجلسان في سيارة مكشوفة وينطلقان في طريق أحلامهما. إنهما لا يدركان ذلك؛ لأنهما لا يعيرانه قيمة ولأن الميثومانيا[1] والميثولوجيا متحدّرتين من أصل لغوي واحد. إن الميتومانيين[2] يخلقون الواقع خلقاً جديداً. فلماذا يُحظَر عليه ما يبيحه المجتمع بأسره لنفسه؟ كان يُفعِم روحَ «كيل» مزيجٌ من النشوة والتوتر، وهو على أبواب

(1) الميثومانيا (mythomanie) مرض نفسي يصيب الإنسان بالازدواجية، وهو خال من التحفيز الإجباري الذي يدفع صاحبه إلى خلق الأكاذيب وربطها بالحقائق، فينتهي به الأمر إلى خداع نفسه وخداع الغير. فهو يكذب عامداً بشكل دائم وفي أبسط الأمور ولأتفه الأسباب. (المترجم).

(2) الميثوماني (mythomane) هو مريض متهوس بالكذب حتى إنه يجعل من الكذب حياة بديلة. (المترجم).

نجاح لا يدين به إلا لنفسه. بعيداً عن ماضيه، وعن تفاهة أسرته بالتبنّي، لم يكن يشغل باله إلا حماسه الراهن، وآفاق مستقبله الزاهر. أمّا «سول» فقد كان مصدرُ بهجته أن أتاحت له هذه الفرصة أن يكون في مستوى أبيه، كما كانت تُثلِج صدرَه هذه الصداقةُ الناشئة التي قد تتيح له أن يصبح ذا شأن. وهو يدرك أنه لا يستطيع أن يبلغ ذلك بمفرده. كان «سول» بحاجة إلى شخص يعطيه ثقة في نفسه، ويقوده إلى مجال متحرك يجرؤ فيه على أن يضطلع بالدور الرئيس. كان «سول» معجباً بـ«كيل»؛ لأنه كان فارع القامة، متين البنية، واثقاً من نفسه، غير هيّاب. كل الصفات التي كان «سول» يودّ أن يمتلكها لو لم تجتمع لأبيه. لقد كان بإمكان «سول»، بفضل حساسيته الفائقة، أن يكون شخصاً ذا شأن دونما حاجة إلى غيره. كاتباً أو موسيقياً أو رساماً، فكل شكل من أشكال التعبير الفني كان يمكن أن يلائمه. غير أنه كان يعيش جالساً على موهبته، مخفياً إياها عن أنظار الغير. لقد كان بإمكان المحيطين به أن يفكّروا في أنّه لم يُخلَقْ للأعمال، وأنه غير خليق بأن يخلف أباه. ودون أن يتكون له تصور واضح عن المسألة فقد اتخذ هذا القرار. لم يكن يريد أن يواجه عدم فهم أمه، التي كانت تعتقد أن شخصاً ينتمي إلى عائلة «ليبوفيتش» لا يجوز له أن يكون رهين المجتمع بنشاط غير مادي من قبيل الإبداع الفني. فهي منزلة لا تقل خسة عن منزلة الأجير. لقد كان «كيل» محظوظاً أن عاش طفولة بائسة على نحو آخر، فلم يعرف هذا المأزق.

*

كان الظلام قد خيّم على المحيط الهادي، ولم تعد أضواء السيارة المكشوفة تضيء غير ثعبان من الإسفلت منطلق باتجاه الجنوب. وفجأة ارتطم أيّل ارتطاماً تامّاً بمقدمة السيارة «الشفروليه». انقذف الحيوان في الفضاء كما لو كان قشة تبن، قبل أن يتهاوى جثة هامدة على بلور السيارة الأمامي الذي لم ينكسر

بأعجوبة. فكّر «كيل» في أن يهدّئ من السرعة أو أن ينحرف، ولكنّه في بضعة أعشار الثانية قرر ألا يفعل شيئاً، نظرا إلى سنّ السيارة ووضعية الطريق التي كانت تشرف على البحر. خفّف من السرعة، ورجلاه مكدومتان، في حين كان صوت «سول» يرتفع بالزعيق. كانت فكرة أن سيارته النادرة قد تهشمت تملؤه حنقاً. كان الجزء الأمامي قد خفّف الصدمة. وكان البلور الأمامي مكسوّاً بالدماء، كما لو أن أحدهم سكب عليه علبة طلاء أحمر. نزل «سول»، وفي أوج نوبة هستيرية، صَفَقَ الباب ودار بالسيارة عدواً. ثم عاد، وقد هدأ روعه، إلى «كيل» الذي كان، لفرط الصعقة لا يريم.

– لقد صمد مقدّم السيارة جيداً، لم ينكسر إلا مصباح واحد. إن هذا لعجيب.

كان الأيل الذي يبدو أن وزنه لا يتجاوز عشرين كيلوغراماً منطرحاً على البلور الأمامي، لسانه يتدلى، وعيناه منطفئتان.

– «كيل»، أرجوك، أزِلْ هذا الحيوان الكريه من هنا.

خلّص «كيل» جسده من السيارة، وبحركة آلية أمسك بالحيوان من قائمتيه الخلفيتين وألقى به على قارعة الطريق.

– إننا لمحظوظان يا «كيل».

أجاب «كيل» وقد عاد إليه وعيه:

– لماذا؟

– لأنها أنثى فيما يبدو. ليس لها قرون. ولولا ذلك لتعين علينا أن نصلح هيكل السيارة ونعيد طلاءها... حسناً، ماذا نفعل؟

– لم يبق لنا إلا مصباح من اثنين. والليل حالك الظلمة. من المستحيل أن نواصل السير في هذه الظروف. الأمر بالغ الخطورة في هذه الطريق المتلوّية.

– ماذا تقترح؟

– لا أقترح شيئاً، أنا أصف الحالة.

– أفّ لك، أسمح لك بقيادة سيارتي التي تبلغ قيمتها أربعين ألف دولار، ولا تقدر حتى على تجنّب ظبي يُرَى من مسافة مائة متر... ولا تقترح شيئاً!

– اسمع يا «سول»، نحن شريكان، أليس كذلك؟

– أجل، ثم ماذا؟

– الشركاء لا يتخاصمون من أجل تفاهات. متفقان؟ لأننا إن بدأنا بهذه الطريقة فبأي دم بارد سنتحدّث حين يتعلق الأمر بمئات ملايين الدولارات؟

– حقاً، قبل أن نتشاحن من أجل مئات ملايين الدولارات، ما زال لدينا من الوقت ما نحطّم به سيارات خارقة!

– ليست المسألة مسألة مبالغ، إنها مسألة موقف. أنا شديد التعلق بالمواقف، وأنت خير من يعرف ذلك.

– حسناً، فلنهدأ... ولكن ماذا نفعل؟

– إما أن نضع الغطاء وأن نبيت هنا إلى الصباح - ولكن الأمر يمكن أن يطول، إذ الساعة الآن حوالي العاشرة–، وإما أن نواصل بتؤدة إلى أن نعثر على موتيل. على أني أعرف الطريق جيداً وأنه لا يوجد موتيل في حدود خمسين ميلاً على الأقل. وليس من المتأكد أن يكون مفتوحاً في أكتوبر. فهؤلاء الناس يملؤون جيوبهم خلال الموسم، ويَغُطّون في النوم بقية السنة.

– إذاً لم يبق لنا إلا أن ننام في السيارة؟

– أخشى ألا يكون لنا حلّ آخر.

– قبل هذا لا ينبغي لنا أن نظلّ في هذا المكان، فلو أن شاحنة ذات سبعين طنا انحدرت علينا من الشمال لدكّتنا دكاً.

كان «كيل» و«سول» على أهبة الصعود في سيارتهما حين شاهدا أضواء مصابيح. كانت سيارة تصعد الطريق بتؤدة متجهة إليهما. وقفا بلا حراك. كانت شاحنة صغيرة ذات صندوق خلفي زال طلاؤه، ولم يبق له إلا لون المعدن. خفّفتْ سرعتها حتى وقفت أمامهما. نزل منها رجل بدين ودنا منهما.

نظر إلى السيارة الفارهة وقال بصوت عال جداً:

- إذاً أيها الفَتَيان، هل تحوّل الحلم الأمريكي كابوساً؟

تقدّم منه «كيل»، في حين ظلّ «سول» في الخلف.

- لقد صطدمنا حيواناً ومصباحنا ليس على ما يرام.

- نحن نظن أننا وحدنا، أليس كذلك؟ هل غاب عنا أننا نتقاسم هذا الكوكب مع كائنات حية أخرى؟ أين هو الحيوان؟ هل اختفى؟

- كلا، إنه هنا، في الخندق.

- هذا أفضل، فقد كان يمكن أن يصاب بجرح ويحتضر بقية الليل. لقد قمتما بعملكما على خير وجه، إن جاز القول.

اقترب الرجل من جثة الحيوان، وقال:

- إنه جدي صغير. لا يوجد منها الكثير في هذه الجهة. في العادة، يغلب وجودها في الداخل. لحسن الحظ أنها أنثى.

قال «سول»:

- هذا ما كنا نقوله، لو كان لها قرون لما صمد بلور سيارتنا الأمامي وفوق ذلك فإن الهيكل كان يمكن أن يُثْلَم.

- هذا صحيح. ما عدا أن الحادث كان يمكن أن يكون أخطر من هذا بكثير. فمنذ أقل من شهرين، وفي موضع أكثر إلى الشرق، في اتجاه «نابا فالي» اصطدم شخص بغزال. مرّ الحيوان المسكين عبر البلّور الأمامي، واخترقتْ قرونُه حنجرةَ السائق. وقد عثروا عليه وهو على تلك الحال، عيناه مفتوحتان تماماً، تبدو عليه نفس الدهشة التي ترتسم على الأيائل المحنطة المعلقة على الجدرانِ بوصفها تذكارَ صيد. حسناً، فلنضعْه في صندوق شاحنتي. لا يبدو أن هذا الحيوان ثقيل الوزن؛ لأنه إن مرّ شرطي أو حارس غابة بالمكان، فسيكون عليكما أنْ تشرحا الأمر. لستما ثمليْن، على كل حال؟

أجاب «كيل»:

– أبداً، لقد كنا نسير بهدوء؛ لنبلغ «سان فرنسيسكو» مساء.

– للأسف، ها قد فشلتْ مشاريعكما اللهم إلا إذا أردتما الذهاب بمصباح واحد.

أضاف «كيل»:

– هذا ما كنا نخوض فيه أنا وصديقي. كنا نفكّر في التوقّف في مكان أقلّ خطورة من جهة حركة المرور أو في العثور على موتيل غير بعيد.

– موتيل؟ أعرف موتيلاً يبعد عن هذا المكان خمسة وثلاثين ميلا. هو بالأحرى فندق فخم. غير أنه مغلق في هذا الموسم. يمكنني أن أعرض عليكما أن تقضّيا الليلة في بيتي إن شئتما، وتسافرا عند الفجر. إنه مكان هادئ وفيه متّسع. وهو قريب جدّاً من الموضع الذي صوّروا فيه «العصافير»، لعلكما لا تتذكران هذا الشريط.

ردّ «كيل»:

– بلى، بلى، إننا نتذكره.

– لا تقلقا، فقد ارتحلوا. إنني أدعوكما عن طيب خاطر. ليس في الأمر خديعة، فلست لوطياً ولا سفاحاً. أعرف أنكم جيل يعيش بمقياس خوف يشتغل على الدوام... ولكن عدد المعتوهين أقل مما يراد لنا أن نتصوره. على كل، هي تجارة رابحة. طيّب، أيها الفتيان، الخيار لكما، إن كان يغريكما سرير في مكان جافّ فبيتي بيتكما، وإلا فإني سأترككما تهلكان هنا. سيّان عندي. لا يوجد كثير من الناس مثلي ممن يخرجون من خمّارة مومسات على الساعة العاشرة مساء. والرأي عندي ألا تنتظرا رؤية مسافر آخر قبل الساعة الثانية صباحاً. أما سلْبُكما فما ذلك بمرجّح عندي. ولكن من يدري، فسيارة جميلة يمكن أن تثير الأطماع. والأطماع تولّد المكائد. ودون أن أكون مصاباً بداء الهذيان، فالعكس هو الصحيح، أقول لكما إنكما لن تتعرضا لخطر كبير إن بتّما في سيارتكما. ولكنني لا أقول أيضاً إنكما لن تتعرضا لأي خطر...

وجّه «سول» نظرة يائسة إلى «كيل» الذي لم يَدْرِ أي قرار يتخذ في حضور الرجل. لم يكونا يعرفان أي الخطرين أشدّ وطأة. والتشاور أمام هذا الرجل سيكون غير لائق. لم يكن «سول» قادراً على أن ينبس ببنت شفة. أدرك «كيل» أن عليه هو أن يكون يقظاً، وعلى كل حال، فإن رفيقه، بما يتصف به من ارتياب، سيلومه على قراره.

– أنت لطيف حقاً، ولكننا لا نريد أن نسبّب لك إزعاجاً و...

– لن تسبّبا لي أي إزعاج. فلست أقابل أناساً كثيرين، وستريان أن بيتي المتواضع مريح أكثر مما قد تشي به هيئتي، وعلى كل حال إن لم يغلبكما النعاس فسيكون بإمكاننا أن نتناقش. إن الحوار مع الشبان من أبناء العائلات ليس متاحاً دائماً. يوجد في هذه الجهات أناس محترمون، ولكن حكاياتهم تكاد لا تتغير. هيا، احسما الأمر.

ألقى «كيل» نظرة على «سول»، وقد استقرّ منه العزم على ألا يتعهد بشيء ما لم يُبْدِ صديقُه أدنى موافقة عليه. لم يملك «سول» إلا أن يمط شفتيه علامة القبول.

– إذاً، نحن موافقان يا سيد...

– «لارسون»، ولكن ادعواني «جاك».

أضاف «كيل»:

– حسناً، ولكن إن شئتَ ذلك، فنحن على استعداد لدفع مقابل الليلة.

انفجر الرجل في ضحكة مدوّية، وقال:

– دفع مقابل لي لإيواء مسافريْن مسكينيْن تائهيْن في الطريق؟ إن هذا لعجب عجاب. ليس هذا من شيمتي، ولست محتاجاً. حسناً، بيتي غير بعيد من هنا، حوالي ميلين، ولن يكون عسيراً عليكما أن تتبعاني بسيارتكما. بعد ميل من هذا المكان، سننعطف يميناً، ثم نتابع بعد ذلك السير في ضرب من الممر الخاص. جُحْري هو آخر مسكن في نهاية الممرّ، وهو على قمة الشاطئ

الصخري. فإن أضعنا بعضنا في الطريق، فستهتديان إليه. ولكن ما عليكما إلا أن تقتفيا أثري، فأنا لا أغذّ السير.

ركب «لارسون» سيارته من جديد، في حين كان الشابان يحوّلان سيارتهما إلى الاتجاه المعاكس. كان «كيل» يتوقّع من «سول» أنه لا بدّ مفصح له عن قلقه:

– أأنت واثق يا «كيل» من أننا سنكون في مأمن مع هذا الرجل؟

– لا يكون المرء أبداً في مأمن تام يا «سول». ولكن إن كانت هذه غاية ما سنواجهه من خطر في حياتنا، فإنني أغامر.

– حسناً، كما تريد. ولكن ينبغي أن نسأله أن يسمح لنا باستخدام هاتفه. لقد وعدت أمي بأن أتّصل بها ما إن أصل. لا بد أنها بدأت تتحيّر.

– وجوّالك؟

– لقد نسيتُ أن أشحنه.

– ولكن لم يكن متوقعاً أن نصل قبل الحادية عشرة والربع، والآن الساعة العاشرة.

– أعلم ذلك، ولكن أمي تبدأ في الانشغال قبل ساعة. ولذلك فإنني أتصل بها قبل ساعة؛ لأعلمها بأنني وصلت سالماً. وهذا ما أنوي فعله. لن يكون بإمكاني أن أروي لها ما وقع وإلا فإنني سأقضُّ مضجعها. يمكن أن يصل بها الأمر إلى أن تطلب من والدي أن يأتي للبحث عنا، وأن تصاب بنوبة سكّري أو ربو أو حتى حصباء.

– سنسأل «لارسون» هذا أن يسمح لنا بإجراء مكالمة هاتفية.

– وإن جال بخاطر أمي أي شك، فإنها ستتصل بي في الشقة، ولن تجد أحداً ليردّ عليها.

– ولكن يا «سول» هل أنت حقاً مجبر على أن تقول لها كل صغيرة وكبيرة؟

– كلا، فهي تريد فقط أن تعرف أين أنا، في حال وقع لي مكروه. فعلى سبيل المثال، أستطيع أن أذهب إلى الماخور إن شئتُ، وهي لا تطلب مني إلا أن أتصل بها عند خروجي.

– بصراحة يا «سول»، أنا أرثي لك.

– الرثاء لي لا يجدي نفعاً، هذا هو الواقع، فقط. لقد تعوّدتُ عليه.

كان البيت، كما بيّنه لهما «لارسون»، في نهاية طريق يؤدي إلى بضع منازل تختفي وراء أسيجة من النباتات الدائمة الأوراق. كانت بوابة صغيرة بيضاء تقشّر طلاؤها توصد الملكية. كان منزلاً ذا حظ من الجمال من منازل الستينيات. عَدَتْ عليه الريح والملح، ولكنه كان قد بُنِي؛ ليدوم. فرِحَ روعُ «كيل» و«سول» لرؤية هذا البيت الذي كان مقبولاً أكثر من صاحبه الذي بدا في الضوء الباهر لأول مرة. لا بد أنه كان فارع القامة بالنسبة إلى جيله، أما بالنسبة إلى جيلهما فهو ربع القامة. كان وجهه العريض المتغضن يشي بسنواته الثمانين، وإن هو لم يبلغها فلا شك في أنه عاش سنوات كان فيها محلّ استغلال فاحش. كان شعره الرمادي المشوب بصفرة، كما لو أن النيكوتين الذي شوّه صوته استقر هناك أيضاً، يغطّي على نحو سيء جمجمته الصلعاء دون منطق واضح. وكانت عيناه المتعبتان تومضان مع ذلك بحيوية لا تصدق.

– تفضلا، لا شك في أنكما جائعان. أتصوّر أنكما لم تتعشيا.

بادر «سول» بالقول:

– كلا، ولكننا بصدق لا نريد أن...

– كفى هراء. اتركا تربيتكما أمام المدخل، يا صغيريّ. سأعدّ لكما أفخاذ بط محفوظة في الدهن. لقد تعلمتُ هذه الطبخة في فرنسا، بعد الحرب. أشتري البط من أحد المزارعين وأتولى حفظه بنفسي. تسخينُه سهل وطعمه لذيذ مع حبات بطاطا صغيرة وشيء من النبيذ. يحسن أن يكون النبيذ فرنسياً. لا ذلك الشراب الذي يصنعونه في «نابا فالي» زاعمين أنه من الخارج. هل يناسبكما هذا؟

– هذا حقاً من فضلك، يا سيد «لارسون»، ولكن...

– هيا فلننطلق. تعاليا معي إلى المطبخ. أنا أعشق الطبخ، ولكنني أكره أن أبقى وحيداً مع القدور حين أعدّ العشاء لعدد كبير من الناس. ستريان، لن تندما على ذلك، فأنا خبير. وإن كان لديكما وساوس أخصائيي التغذية، فإن البط لا يترك رواسب في الشرايين. لقد شرعتُ منذ زمن بعيد في اعتماد هذا النظام الغذائي المتوسطي: الخضر والفواكه والثوم والبط والنبيذ الأحمر. ومنذ ذلك الوقت أصبحت مؤشراتي الضوئية في الأخضر. ولئن ازداد وزني قليلاً فليس لذلك أي علاقة بتغذيتي. فمخالفاتي المتمثلة في مزج الويسكي والجعة هي التي جعلت بطني شبيهاً بالإطار المنفوخ. حين يعيش الإنسان وحيداً، فليس له من خيار. إما أن يصبح بطلاً وإما أن يصيبه التعفن. أثناء إعدادي الطعام سأقدّم لكما كأسين من النبيذ.

قال «سول»:

– أنا لا أرغب في النبيذ.

– أما أنت فقد أدركتُ مذ رأيتُك أنك لستَ من أهل الراح ولا حتى من أهل الباه. أنا جاهز للمراهنة على ذلك. فالأرجح عندي أنك من النوع المادي الذي انتُزِعتْ منه مادّتُه، أتراني أخطأت؟

إزاء هذه الصبغة التي اتخذتها المحاورة تردد «سول» بين الدهشة والاغتياظ.

– صديقك يبدو أكثر منك ميلاً إلى التمتع بالوجود.

قال «كيل»:

– أنا أريد كأساً بكل سرور.

بدا أن «سول» أخذ ينطوي على نفسه. أخرج «لارسون» من تحت حوض المطبخ قنينة نبيذ فرنسي وفتحها وهو يضيف:

– إنه من نوع «ڤاياك»، وهو نبيذ من جنوب شرق فرنسا. أود أن أعرف

رأيك فيه. وبعده سنفتح قنينة من نوع «بيشارمان».

بدأ «كيل» يشعر بالارتياح ويستحسن ديكور البيت الصغير الشديد الإتقان رغم كثرة التحف والفوضى الظاهرة للعيان.

أردف «لارسون» قائلاً:

- إن كان المرء يعيش بمفرده فلزام عليه أن ينظّم نفسه. وإلا أصيب بالاكتئاب. لقد مضت علي ثماني سنوات وأنا أعيش وحيداً. زوجتي الأولى هجرتني؛ لأنني لم أكن ألزم البيت وقتاً كافياً. كنتُ في ذلك العهد كثيرَ الترحّل. والحق أنها كانت تأخذ عليّ حماستي الجنسية حين عودتي من سفراتي الطويلة في الخارج. كنت أقول لها إن ذلك النشاط مأتاه أنني خلال فترات الفراق الطويلة تلك كنت وفياً لها كل الوفاء. والواقع أن الأمر بلغ بها حداً صارت معه تلومني على وفائي. تلك هي الطامة الكبرى. بعد هذا أصبحتُ ألزم البيت. وهجرتني زوجتي الثانية؛ لأنني كنت أفرط في البقاء في البيت. وعلق فخوراً بنهاية قصته: ورغم أني انصرفت عن السفر فقد كنت أمارس عليها نفس الضغط الجنسي. أما زوجتي الثالثة فلم تكن تأخذ علي شيئاً، ولكنها هجرتني مع ذلك بأن ماتت. يا لها من طريقة غريبة في التوديع! ذاك هو خطر الزيجات المتأخرة. فحين تتزوج امرأة أربت على الخمسين، تقول في نفسك إنها ستبقى معك إلى نهاية حياتك، دون أن يخطر ببالك أن الحياة يمكن أن تكون قصيرة في تلك السن. أخرج «لارسون» من وعاء بلوري كبير ثلاثة أفخاذ بط ضخمة مكسوة بدهن خالص ورتّبها على مقلاة كبيرة تهتز تحتها نار هادئة.

قدّم «لارسون» إلى «كيل» كأسه، وصبّ لنفسه كأساً دهاقاً ارتشف منها رشفة خبير، ثم وضعها؛ ليدعها تتنسّم.

- لعلكما تجدان أني أفرط في الكلام، أليس كذلك؟ ذاك دأب الناس الوحيدين حين يجدون صحبة، خصوصاً إن جاءتهم من حيث لا يحتسبون. إنهم كالمغسلة القديمة المسدودة منذ أسابيع التي تسلّك دفعة واحدة. وأنتما أيها

الشابان، ما شغلكما في الدنيا عدا أنكما موسران؟

– نحن طالبان بـ«سان فرنسيسكو».

– بحق السماء! وماذا تدرسان؟

أجاب «كيل» بينما كان «سول» لا يزال يحرد في ركنه:

– الأعمال والإدارة. نحن في السنة الأخيرة.

– وما الذي تنويان فعله بعد التخرج؟ تلمّعان صورتكما في الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات، في انتظار اليوم الذي تستلمان فيه شيك تقاعدكما المبكّر؟

أردف «كيل»:

– كلا، سننشئ مؤسستنا.

– أرأيتما، إنكما لصغيران أمريكيان قحّان. مؤسسة ماذا؟

– من السابق لأوانه بعض الشيء أن نثير هذا الموضوع. الحق أننا جاهزان للانطلاق. ولكن الأمر سرّي في هذه المرحلة.

قال «لارسون» مبتسماً:

– واضح، لديكما فكرة ستقلب السوق؟

رد «كيل» خافضاً بصره بتواضع زائف:

– تقريباً.

– حقاً، ما أنا إلا أناني عجوز. لم أسألكما عن اسميكما.

– أنا «كيل»، وهو «سول». نحن صديقان وشريكان.

– ومن أي بلدة أنت؟

تجرّأ «سول» وقد تلاشى غضبه:

– كلانا من «أوريقون».

– ولكي تكون لديكما سيارة كهذه، ينبغي أيضاً أن يكون آباؤكما من ذوي الثروات الطائلة. أم تراني أخطأت؟

– إنها هدية من والديّ بمناسبة بلوغي سن العشرين.

– هي من طراز «ستين قراي»، إنهما لم يهزءا منك. إنها واحدة من أجمل ما أنتجته أمريكا من سيارات. وماذا يشتغل أبوك؟

– أبي يملك مؤسسة متخصصة في تنقية المياه.

– وأنت يا «كيل»؟

تجهم «كيل» هنيهة ثم أجاب وقد بدا عليه الارتياح:

– ليس لي أبوان، لقد رباني عمّ وعمّة لم تعد لي بهما والحق يقال أي علاقة.

قال «لارسون»:

– واضح، إنها الشراكة المثالية، أحدكما ينحدر من أسرة متوازنة وغنية على ما يبدو، والآخر بلا أسرة ويشعر بميل جارف إلى النجاح.

ثم التفت إلى «سول» وقال:

– أنت يا «سول» محظوظ بأن يكون لك شريك من طراز «كيل». فأكبر عائق يمكن أن يعترض سبيل الإنسان هو أن تكون له أسرة مُحِبّة؛ لأنه يظن في تلك الحالة أن العالم بأسره مصنوع من الحب. ثم عندما يغادر العش يتضح له أن العالم يسوده جو مرعب شرير. فلا يملك عليه نفْسَهُ إلا أمرٌ واحد: أن يعود إلى العش. ولكن بعد فوات الأوان. فيصرف حياته في السعي إلى أن يُشفَى من ذلك المرض دون أن يتحقق له ذلك تماماً. ذاك بالضبط ما وقع لي، ولهذا أنا أحدثكم عنه. أسرتي من الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً مفرطة الاتساع ولا مفرطة الضيق. لها إحساس بالقيم لا يتزعزع وإيمان بالثقافة. كان توازنا من النوع الذي يرجوه كل امرئ لسائر أبنائه. وبعد مضي بضع سنوات وجدت نفسي مراسلاً صحفياً، أجري وراء الصراعات التي يُقتَل فيها الأطفال مهشّمةً رؤوسُهم على الجدران توفيراً لشيء من الزاد... ذاك هو الواقع الحق لا الواقع الذي عشتُه. ومع ذلك فقد تشبثتُ بحماقة بفكرة مؤدّاها أن ما كنت

ألاحظه لا يعدو أن يكون شذوذاً وانحرافاً من اليسير أن نجد له تفسيراً. وحين أدركت أنني كنتُ على خطأ بدأتُ أدمن الخمرة إدماناً. طويلة هي الطريق التي تؤدّي إلى سنّ النضج بالنسبة إلى كل من لم يستعدّ لها. أرجو لشراكتكما أن تدوم أطول مدة ممكنة. أما في الوقت الراهن، فدون أن تكون لي بكما معرفة، أرى فتى فارع القامة ضامراً معدماً يستغل استغناءه عن ماضيه. وأرى فتى آخر يسحب من ورائه ترفاً على شيء من ثقل الوطأة لا يملك أن يتحرر منه. ولكن يوماً ما، دون سابق إعلام، سيجد الرجل الذي لا ماضي له نفسه على شفا الشاطئ الصخري، ظهره إلى الفراغ، على أهبة الاستعداد ليخطو خطوة إلى الخلف، دون أن يعرف لماذا. وفي تلك اللحظة سيساعده العَمول المدلل على أن يتقدم. لا أدري لماذا أحدثكما عن الخمرة. على كل حال، لقد خففتُ الوطء الآن. لم أعد أحتسي إلا النبيذ الأحمر. لا يمكننا أن نتكلم حقاً عن الكحول بالنسبة إلى الأحمر. النبيذ الوردي منتج كيمياوي. النبيذ الأبيض للنساء اللاتي يعرّضن أجسادهن دائماً للشمس ولا يجدن أنفسهن متغضّنات بَعدُ بقدر كاف. ذق من هذا.

رفع «لارسون» كأسه. وعبّ هو و«كيل» جرعة طويلة.

– في فرنسا يقولون عن هذا النبيذ إنه «المسيح الصغير [الذي ينزل في الحلق] في سروال حرير». إنه إحدى الأشياء النادرة التي تهبك معنى الكمال، والتي يظهر فيها الإنسان بمظهر يدل على البراعة. هل سبق لكما أن زرتما فرنسا؟

أجاب «كيل»:

– أبداً.

– إنها بلد جميل مذهل غريب يعمره الساخطون. يتمتع أهله بكل شيء. التاريخ، والقرى الرائعة، والمطبخ الفريد من نوعه، والضمان الاجتماعي، ولكنهم لدهشتهم أن يكون لهم هذا كله يصرفون أعمارهم في السخط. قد تكون تلك في نهاية الأمر طريقتهم في التقدم. أعتقد أن ما لا نظير له عندهم،

هو علاقتهم بالناس. إنهم يطالبون دائماً غيرهم بأكثر مما يطالبون به أنفسهم. وينتظرون منهم الكمال واثقين أن ذلك الكمال هو وحده الكفيل بأن ينقذهم من اكتئابهم المزمن. ولكنهم لا يملكون تلك السذاجة المذهلة التي تدفع بنا إلى الهلع عند أول رفرفة للعَلَم.

وضع «لارسون» على الخوان ثلاثة صحون مع لوازمها، وكانت سكاكين الصيادين يمكن أن تصلح للقضاء على دبّ. جلس الرجال الثلاثة حول المائدة. وكما يحدث غالباً للمتوحدين الذين انخرطوا في كلام طويل، ران الصمت فجأة على «لارسون». وكأنه بدأ بَعْدُ يضيق بحضور الشابين؛ لأنه صار يقتضي منه أن يبذل مجهوداً لم يعد راغباً في الاضطلاع به. كان «كيل» هو الذي بادر بوضع حدّ لذلك الصمت الذي أخذ يتسرب إلى علاقتهم.

– لذيذ هذا البط، يا سيد «لارسون».

– إن كان قد حظي بإعجابكما أيها الولدان، فنعم الطعام، وبهذا فإن وقتكما لم يذهب سدى.

أضاف «كيل» الذي بدأ النبيذ يفعل فيه فأخذ يكيل المديح:

– وفوق هذا فإن بيتك رائع الجمال.

أجاب «لارسون»:

– لقد كلّفني غالياً بعض الشيء، ولولا التأمين على موت زوجتي المسكينة، لما استطعتُ أن أحظى به. والحق أني كنت أفضّل ألا أملك القدرة على شرائه أبداً، ولكن القدر أراد غير ذلك. لقد كانت، والحق يقال، امرأة على حظ من اللطف كبير. وما كدتُ أجد الوقت لأدرك ذلك وأعترفُ لها بالفضل حتى انتُزعتْ منّي. وحين أستخدمُ المبني للمجهول فأنا لا أعرف من الذي انتزعها. إنه ركام يضمّ القدر والإله والوراثة وغيرها مما لا يبلغه علمي. على كل، لم تكن لدي الإمكانات حين التقيت بها... الآن صار بإمكاني. لقد شعرت بالارتياح منذ أخذت في كتابة روايات. وخصوصاً بداية من الرواية الثانية، التي نالت من

النجاح فوق كل ما كان يؤمّله ناشري. لقد كنت دائماً أعتقد أن نجاح كتاب ما أمر مشبوه. فإن هو نجح لدى عدد جم من القراء فينبغي أن يكون ذلك لأسباب سيئة. إن كل ما يقترب من الإجماع يبدو لي مثيراً للشبهات. قد أكون على خطأ. ومنذ نجاح الرواية الثانية، سارت على إثرها الروايات اللاحقة، بدرجة أقل بكثير، ولكن على نحو أفضل مما لو كان الناس اقتنوها لذاتها. والآن، إن أجهَزَ النقّادُ على روايتي الخامسة فستنزل رتبتي إلى أسفل اللوحة كلاعبي كرة المضرب القدامى الذين يحاولون أن يتشبثوا؛ ليظلوا بين اللاعبين العالميين المائة الأوائل. هذه أمور لا شأن لها. إننا لفي حال أفضل في هذا المكان، أليس كذلك؟ لن أروي لكم قصة حياتي، ولكني بدأت بعيداً عن الأحلام. لقد بدأت مسيرتي العملية في خضم الواقع، واقع الصحافة. أختَطِفُ الخبرَ بهوس. لقد كنت مراسلاً في زمن كان المراسلون فيه يتقاتلون لينبئوا الناس بما كان يحدث على الحقيقة. كان عصراً تباع فيه المفاجأة، والتحليل الرصين، وكنا نعتقد فيه اعتقاداً جازماً بأننا نعمل من أجل الديمقراطية. إنني أحدّثكم عن العصر الذي لم يكن فيه التلفزيون إلا في بداياته، ولم تكن مهمة الصحافة أن تبيع الخوف - الذي كان، والحق يقال، يروّج الإعلانات الإشهارية. لقد تدهورَتِ الأمورُ بعد ذلك تدهوراً كبيراً. دخلتُ ميدان التحقيق في «سان فرنسيسكو» ثم في «لوس أنجلوس». في ذلك العصر كان التعفن قد بدأ يكشف عن وجهه الحقيقي، وكانت السلط كلها تسبَحُ علانية ودون مواربة في نفس الوحل. ولكن، كيف أقول، كان هناك شيء من المرح. كان الأنذال، والسياسيون، والشرط، والقضاة، والنقابيون، ورجال الأعمال يتبادلون الأدوار، ليعزفوا قطعة موسيقية تغطي على أصوات فسادهم، حيث لم يكن أحد منخدعاً حقاً بما يحصل. كان كل طرف يجد بغيته، وباستثناء الحوادث على الحدود، كان الجميع راضين. ما عدا الزنوج بالطبع، ولكن الأمر في ذلك العهد لم يكن يزعج أحداً. ما عداهم هم، طبعاً. كنا، نحن أهل الصحافة، نواري من حين

إلى آخر جثة لا تنطوي على كبير خطر، أو نكشف النقاب عن حكاية فساد، أو رشوة تتصل بساسة أو بموظفين. وخلال بضعة أسابيع كان كل هؤلاء الناس يتظاهرون بإصلاح الوضع موهِمين بالتوجه إلى الخير. ثم تعود حليمة إلى عادتها القديمة. كان كل واحد يعرف الحدود التي يقف عندها. ولم يكن العدوّ الخارجي أقوى مما كان عليه في تلك الحقبة، فقد كنا في صميم الحرب الباردة، ولكننا كنا جميعاً مكلَّلين بهالة انتصارنا على الفاشية. وفوق هذا كله لم تكن التجاوزات التي نسمح بها لأنفسنا في الداخل ولا في الخارج ذاتَ شأن مقارنة بما أسديناه للعالم. ربما لم يكن الواقع تماماً على هذا النحو، ولكنني كنت أراه على هذه الصورة. لا أقول إننا لم نكن معرّضين لأي مخاطر. فحالات الصحافيين الذين كانوا يفْرِطون في القيام بعملهم على الوجه الأكمل، والذين يقضون غرقاً في فَرْشة من الإسمنت المسلّح مخصصة لبناء مجمّع سكني على شاطئ البحر لحساب أحد المليونيرات لم تكن بالأمر الشائع ولكنها كانت تقع. وبما أنه لا علم لأحد أبداً بما إن كان الرجل قضى نحبه؛ لأنه كان لا يقبل أن يبيع ذمّته أم إنه مات لأنه كان يريد لقمة أكبر من فمه، فقد كان يُترَك للشكّ أن يُعِدّ للفقيد جنازةً لائقة.

قطع «لارسون» حديثه؛ ليلاحظ أن قنينة النبيذ كانت فارغة، فقام ليحضر أخرى.

توجّه إلى «سول»، الذي كان يصغي إليه وقد بدا عليه الافتتان بشخصية الرجل، قائلاً:

– هذه المرة أرجو أن تتذوق منها. سل طبيباً نزيهاً – إن كان يوجد طبيب نزيه – يخبرْك أن فوائد النبيذ الأحمر تفوق بكثير مضارّه.

أبدى «سول» موافقته، فاستأنف «لارسون» حديثه وهو يفتح القنينة:

– إلى ذلك الحدّ كان كل شيء يسير على ما يرام. كان لدي انطباع بأنني أنتمي إلى سلطة مضادة تحتفظ بمقامها، وإن كانت تقدّم تنازلات لروح العصر.

غير أن الأمور تغيرت بالنسبة إليّ. على نحو جذري. كان ذلك يوم 22 نوفمبر 1963، في منتصف النهار، حين علمتُ أن شخصاً أطلق النار على الرئيس «كيندي». كنت صوّتُّ له في الانتخابات. بأطراف الأصابع. كما نفعل في كل مرة ينبغي لنا فيها أن نولي شخصاً أهمية لا تتناسب مع خصاله. وهذه حال كل رئيس في بلاد واسعة ومهمة كبلادنا، تضطلع بدور بارز في العالم. ولكني كنت أعتقد أن ذلك الشاب المليح كانت لديه مؤهلات للنجاح، خصوصاً بعد «إيزنهاور» العجوز الذي كان يغوص في الشيخوخة. كان «كيندي» يشبّب صورتنا، وبإمكانه أن يضفي نفساً جديداً على الداخل وعلى الخارج، في مواجهة حشرات «الكريملين» - الذين نظرا إلى إصابتهم بمرض باركنسون، يمكنهم أن يضغطوا على الزر الخاطئ ويلقوا بنا في شتاء نووي أبدي. كنت أعتقد أن «ج ف ك»[1] سيكون أيضاً قادراً على الاهتمام بكل الذين كان الحلم الأمريكي بالنسبة إليهم ردهة للعذاب، أعني السود. في تلك الحقبة، كان السود في الجنوب لم يرتقوا بعد إلى مرتبة الكائنات البشرية، مقابل بيض كانوا نادمين على ترك بنادقهم فارغة من الرصاص بعد مجزرة الهنود، بدل اغتنام الفرصة؛ لإتمام عملهم مع كل الأجناس الملوّنة. ليس بإمكاننا أن نقول إن «كيندي» وفى بكل وعوده. ولكن من ذا الذي يفي بكل وعوده؟ كانت الرصاصة التي قلعت أذنه وانتزعت ربع دماغه قد غيّرت كل شيء بالنسبة إليّ. ليس على التوّ. ففي المرحلة الأولى صدّقتُ ككل الناس نظرية القاتل المنعزل، المختلّ نفسياً والشيوعي فضلاً عن ذلك. كان لـ«لي هارفي أوزوالد» صورة على المقاس من الأمريكي المعتوه: كان قناصاً جيداً، أعصابه تالفة، مع شيء من الإيديولوجيا تدعو إلى الاعتقاد بأنه الذراع المسلحة لذي اللحية الكوبي. لقد كنتُ مصدّقاً. حتى حدثتْ على المباشر تلك المذبحة التي انقضّ فيها «جاك روبي» على

(1) «ج ف ك» الحروف الثلاثة الأولى من اسم الرئيس الأمريكي المغتال: «جون فيتزجيرالد كيندي». (المترجم).

«أوزوالد» المغلول اليدين بطلقة من مسدسه. أذكر أنه بعد مصرع «مانويل رودريقاز» الملقب بـ«مانوليت»، وهو أعظم مصارع ثيران عرفتْه إسبانيا في كل العصور، حين أصيب في «لينارس» بطعنة قرن في القفص الصدري تحت صفير أهل قرطبة الذين كانوا يسخرون جهاراً من المعشوق؛ لأنه كان يردُهم بطيشه إلى الاندفاع إلى الموت، أذكر أن المملكة الإسبانية بطمّها وطميمها قررت أن تقف له دقيقة صمت. وقد قال أحدهم في ذلك العهد: «إنها دقيقة صمت ستمتدّ أربعين عاما». وهذا ما حصل مع «ج ف ك». ثم قال في نفسه: مع فارق هو أن دقيقة الصمت لم تنته أبداً. حسنا، أرجو ألا يضجركما حديثي، على الأقل.

صبّ «لارسون» لنفسه كأساً أخرى قبل أن يواصل:

–آسف. المشكل حين يتقدّم المرء في السن هو أنه يتعين عليه أن يتخلص من كثير من الذكريات. ويبقى له ركام هائل من الأحداث يَفترِض أنها هامة، لا يدري على وجه الدقة ما يصنع بها... ومن ثم تغدو هوساً. مثلاً، لست أدري إن سبق لكما أن وُجِدتُما في موضع جريمة. وإلا فإنكم دون شك قد رأيتم آلافاً منها في أشرطة سينمائية أو برامج تلفزيونية. موضع الجريمة هو آخر مكان على موضة بلدنا، فيه يبدأ كل شيء وفيه ينتهي كل شيء. هل تريان الأشرطة الصفراء والسوداء التي كتب عليها «يمنع تجاوز هذه النقطة»؟ ذاك ما وضعوه حول اغتيال الرئيس. ولم يزيلوا أبداً أختام الشمع الأحمر. وكل من اقترب منها تمّت تصفيته اجتماعياً أو جسدياً. وفي المجموع، أعتقد أن ما يقرب من ستين رجلاً وامرأة، من الشهود أو من المتطفلين، إما قُتِلوا، وإما لَقُوا مصرعهم في حوادث أو أصيبوا بأمراض فجائية. وحين رأيتُ كل المتشدّقين، وأبطال البحث، وملوك التحقيق الجنائي يتوارون عن الأنظار أدركت أن الاغتيال لم يقف عند رئيس الولايات المتحدة. كانت أول ديمقراطية في العالم قد عاشت انقلاباً. أنجز بكتمان كما ينجز الإجهاض. وإذا بالذهان الهذياني الكبير الذي كان يثيرنا منذ

الحرب الباردة يتحول إلى فصام. لم يَقتُلْ أحد «كيندي». ولم يتّخذْ أي شخص أبداً بمفرده قرار إقامة الليبرالية. إن هذه البلاد التي لا يتردد على شفتيها إلا اسم الإله أنجزت طقساً قربانياً مثالياً كما تنجزه أقدم المجتمعات الوثنية. شعرتُ، بما شعر به كثير من الناس غيري، وأشهرهم النائب العام «جيم قاريسون»، بأن لي روح محبّ للعدل. ولكن لكي تكون محباً للعدل في هذه البلاد فإنك تحتاج إلى إمكانيات، إلى كثير من الإمكانيات. استطاع «قاريسون» أن يمسك بزمام القضية؛ لأنه كان وكيل نيابة وكانت مقاطعة «أورليان الجديدة» معنيّة بالدرجة الأولى بقضية «كيندي». أما أنا، فإن صحيفتي قطعت عليّ المؤونة على الفور. ثم جاء زمن التهديد والوعيد. لقد أثبت التنظيم الهادف إلى إسكات كل من لم يستسلم بَعدُ، نجاعةً منقطعة النظير. كانت مطاردات «ماك كارتي» تمثيلية إذا ما قورنت بعملية المراقبة الشاملة لخنق أي حريق. ما كدت أُعلِم رئيسي بنيّتي في أن أقوم بتحقيق شخصي حتى باغتني رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف. بي. آي) في بيتي في الليلة الموالية. كان ثلاثة رجال أشدّاء يتصرّفون بمقتضى تفويض مطابق للأصول الواجبة يفتشون بيتي رأساً على عقب. أبرز لي رئيسهم كيساً من مسحوق أبيض. طلبوا من شرطة الإقليم الحضور. كان من بينهم ملازم عجوز عرفتُه منذ زمان بعيد قال لي إن المسألة سيوضع لها حد إن أنا أوقفت تلك التحقيقات السياسية الحمقاء. فتنازلتُ. كما تنازل عدد كبير من الفرنسيين أمام «بيتان» والألمان. كما تنازل عدد كبير من الأرجنتيين أمام «فاليدا». كما تنازل عدد كبير من الشيليين أمام «بينوشيه». وحين عدتُ إلى الصحيفة أعلموني بترقيتي إلى القسم الأجنبي وبعزمهم على إرسالي إلى إفريقيا. إن هؤلاء الناس، من العرّابين لم يعرفوا أبداً معارضة على الحقيقة. لم يكن هناك نظام لمواجهتهم. فبعد نظام «كيندي» لم يعد هناك أي نظام. فقط بعض السود الذين يريدون أن تتغير الأمور، وحفنة من البيض الذين يدعمون الحقوق المدنية، وجماعة من النساء المفتونات بموضة

«جاكلين كينيدي» تفرّقتْ على كل حال كسرب من عصافير الدوري عند أول فرقعة. لم تدم إقامتي طويلاً في إفريقيا. لم تكن للصحيفة إمكانيات مادية لتعيين مراسل لها في كل قارة. ولكن الفترة كانت كافية لي حتى أرى الأمور بشكل مقبول. ومهما يكن من أمر فلم يكن بإمكاني أن أبقى هنالك سنوات. وحين عدتُ إلى «لوس أنجلس» كان الويسكي المثلّج والطفيليات وحمّى الملاريا قد نالت منّي كل منال. حمّلتُ تلك الأمراض الاستوائية مسؤولية ذلك الانهيار العصبي الذي دمّرني في مستهلّ سنة 1967، بعد ما يزيد قليلاً على عام على رجوعي، وقد كانوا وضعوني حينذاك في الشؤون الاقتصادية المحلية وهم يعرفون أنني لا أفقه فيها شيئاً. وتلا ذلك انهيار عصبي حقيقي. كانت الحياة تنسلّ بهدوء، على أطراف أصابعها، دون نأمة. ومنذ ذلك الوقت أصبحنا اثنين في ذهني، أنا والعدوُّ الداخلي الذي يأمر وينهى في كل شيء. صارت أجمل المساءات المشمسة معتّمة كيوم عيد جميع القديسين، وصارت أكثر الأزهار مسالمة سامّةً، وصار ألطفُ العطور اعتداءً متعمداً من المرأة التي تضع منه... الحاصل أنهم أرادوا لي أن أشارك في لعبة تلفزيونية صارت فيها حياتي نزولاً إلى الجحيم. كنت أقضي الوقت نائماً. كانت لياليّ أول الأمر تتطاول. وحين بلغتِ الليالي اثنتي عشرة ساعة ، أخذتُ أنام نهاراً. وكنت إذا فتحت عينيّ لا ألبث أن أغمضهما. خوفاً مما ينتظرني. حتى آل بي الأمر إلى أن اقتصرتُ على أربع ساعات من اليقظة في اليوم، موزعة على أربع وجبات. ومن عجب أن شهيتي للأكل لم تكن لتنقطع. ولكنها لم تكن كشهيتي سابقاً. توقفتُ عن العمل منذ الشهر الثاني. كنت أشعر برغبة في البكاء لمجرد أن تمر بخاطري فكرة ركوب سيارتي للالتحاق بالصحيفة. وانتهى بي الأمر إلى الاستقالة. وضعتُ ذلك على حساب الصحة. مرض غريب أصبت به في إفريقيا. كنت أقول الشيء نفسه لزوجتي. لا بل إني تلاعبت أيضاً حتى بطبيب الأسرة. حين نصحني بإجراء سلسلة من الفحوص في مستشفى تعالج

فيه الأمراض المعْديَة أجبته بأننا لم نكن نملك الإمكانيات وبأنني لم أكن راغباً في أن تصبح منحة تأميني ثلاثة أضعاف. كانت زوجتي الثانية آنذاك تدير شؤون التزويد في سلسلة من المحلات التجارية الكبرى. لم يكن لدينا أطفال. ولم أكن أنفق شيئاً؛ لأنني لم أعد أصنع شيئاً. عشنا براتبها ثمانية أشهر. في الشهر التاسع ذهبتْ. وقد اتضح لها أن مرضي لا يرجع إلى علة ظاهرة، وأن الأمر كله نفساني. تركتني كما يُترَك البقل. ومن الغريب أن الشرب وحانات المومسات هي التي ردّت إليّ صحتي. ذلك أنني وأنا أنظر إلى الفتيات يُسقِطن بَتَلاتِهنّ وهن يحتسين الويسكي، عاد دماغي إلى الاشتغال. عليّ أن أذهب إلى طبيب نفساني. وفي الوقت نفسه، كانت فكرة أن ذلك الرجل سينقّب في لا وعيي تقضّ مضجعي. تماماً كما يحدث حين يلمس مستقيمَك طبيب يفحص عن غدة البروستات. أعطيت نفسي مهلة ثلاثة أشهر؛ لأفهم ما كان يقع لي. فإن لم يحالفني التوفيق فلن يكون أمامي إلا أن أطلق رصاصة على نفسي. أذكر أنني دوّنتُ في ذلك التاريخ بمفكرتي: «النهاية أو الانبعاث». كنت قد قبضت نصف ثمن البيت الصغير الذي كنا نملكه بـ«لوس أنجلوس». وهو مبلغ يكفي، بعد أن أكون قد سدّدتُ نصيبي من الديون، لكي أتحمل البقاء ثلاثة أشهر في وضع لا يطاق. سلكتُ الطريق إلى الشمال. كنت كل ليلة أتوقف في موتيل بعشرين دولاراً. كنت أضع أغراضي. ثم أسارع إلى حانة مومسات. وأعود ثملاً. كنت أنام حتى صباح اليوم التالي، ثم أستأنف طريقي. كان يحدث لي أن ألتقي بفتيات يقبلن بي معي دون مقابل، لأني في ذلك العهد كنت ما زلت أشبه شيئاً ما. لم أستسلم لهن قط. التزمتُ بنظام عيش كان يبعدني عن حالات الخُدار، تلك التي كنت أفرضها على نفسي منذ شهور. الطريق والويسكي والمومسات. وذات يوم توقفتُ في الطريق رقم 101 التي هي قاب قوسين أو أدنى منا، لأتناول ساندويتش سجق ساخناً على الشاطئ، حوالي منتصف النهار. كانت صحتي قد تحسّنتْ تحسناً صرت معه قادراً على أن أتمتع بالبحر

وأن أُسْلِم نفسي لهدهدة ارتداد أمواجه على الصخور، وهو لعمري تطور مشهود. لم أتنبّه على الفور للصعلوك الحقيقي الذي كان يجلس منفرداً غير بعيد عني. كان طويل الشعر، ويرتدي الجزء الأعلى من بزة عمل وقد تيبّس من الوسخ وسروال جينز غامقاً ملطخاً ببقع زيت. حين التقت نظراتنا أشار إلي برأسه. أكملت ساندويتشي ثم بادرني بالكلام قائلاً:

– لا يبدو أن الأمر على ما يرام!

شعرت بشيء من الانزعاج؛ لاقتحامه حياتي الخاصة، وأجبته:

– كيف عرفت ذلك؟

فواصل حديثه دون أن يرفّ له جفن:

– لأن لي قدرة على الاستدلال على المعتدّين بأنفسهم.

لم أكن أدرك الصلة بين طرفَيْ كلامه. وإزاء حذري الظاهر، أردف ساخراً:

– إن الانهيار العصبي لا يصيب إلا المعتدّين بأنفسهم. وأنا بما أقول عليم. لو لم يقع لي ما وقع لك لما قلتُ لك هذا. لا بد أنك اصطدمت بجدار دون أن تشعر، هو جدار التقدير الكبير الذي تكنّه لنفسك. أنا، حين سافرت إلى «الفيتنام»، كنت قد قطعت على نفسي عهداً بألا أتصرف أبداً تصرف الحيوان الوحشي. كنت قد قبلت فكرة أنني ذاهب لقتل الفييتكونغ؛ لأن الحكومة الأمريكية كانت تجبرني على ذلك؛ ولأن الخيار لم يكن بيدي. والحق أن الخيار كان بيدي. ولكني كنت قد اتخذت قراراً بعدم الفرار من الجندية. وبناء على ذلك فإن القتل لم يكن له أن يصيبني بالانهيار بما أنني قبلته. غير أني وضعت مؤشر اعتدادي بنفسي في مكان آخر، هو أنني، بصرف النظر عن القتل، لم أكن أرغب في أن أتصرف كالحيوان الوحشي. وذات يوم خلال هجومنا على إحدى القرى قبضنا على حوالي عشرة فييتكونغ كانوا قد زَرَعوا المكان ألغاماً تسبّبتْ حتى ذلك الحين في بتر أعضاء ثلاثة من رجالنا. قررنا أن نُعدِمهم. ولكن كان بينهم واحد لم ينفكّ عن الابتسام. أؤكد لك أيها الرجل أنه كان

يبتسم. عندئذ بدل أن أصرعه برصاصة في الرأس، فإنني، جزاء له لابتسامته، أمسكته من أنفه حتى يفتح فمه، ودفعت بأنبوبة البندقية في أقصى حلقه. أطلقت رصاصة فجّرتْ لوزتيه. في تلك اللحظة تلاشى التقدير الكبير الذي كنتُ أكنّه لنفسي. ربما قلتَ لي: وما الفرق؟ فالرجل كان سيموت على كل حال. ومع ذلك فقد انتهى بي الأمر إلى مستشفى الأمراض النفسية. شيء ما يقول لي أيها الرجل إنك تعيش تلك الوضعية نفسها. وما دمت لا تقر بهزيمتك، بفظاعتك، فلن تتحسن أحوالك. هذا خبير يحدثك أيها الرجل. ولم تتحسن أحوالي حقاً.

دخّنَ بعد ذلك لفافة حشيش ضخمة دون أن ينبس. عرض عليّ واحدة ولكن كان علي أن ألتزم بالنظام الذي كنت حدّدتُه لنفسي: الطريق، الشراب، والمومسات. بتلك الطريقة أدركتُ سرّ مشكلتي. لقد كان الشعورُ بالذنب لعدم وقوفي في وجه انقلاب دنيء، يأكلني كما يأكل الدود الجيفة. كان ما زال في الوقت متّسع لأقاتل. بأن أفتح تحقيقي وحدي، أو ألتحق بشخص من قبيل «قاريسون»... كلا، لقد فضّلتُ ألا أقاتل، وأن أقبل الأمر الواقع. وحين أُعلِن، بعد ستة أشهر، عن موت «روبرت كينيدي»، سارعتُ بقبول الرأي القائل بأن «شيران شيران» اقترف جريمته بمفرده وهو في حالة جنون. وبعد انقضاء ثلاث وثلاثين سنة، ها أنذا كما ترياني: تحسّنتْ حالتي تحسناً كبيراً، على مستوى حقيقتي الواقعة لا على مستوى ما كنتُ أود أن أكون.

كان اهتمام «سول» بحكاية «لارسون» يتزايد، في حين كان انتباه «كيل» يتناقص تحت تأثير النعاس الذي سبّبه النبيذ.

عبَر «لارسون» الحجرة الرئيسية التي كانت تطلّ على البحر، ليقودهما إلى غرفتهما. كانت حجرة بسيطة الأثاث، فيها سريران، ومنضدة وخزانة. كانت فيها رائحة الغبار. يبدو أن نافذتها لم تفتح منذ سنين. كانت غرفة أصدقاء لشخص بلا أصدقاء. أخرج «لارسون» من الخزانة كيسي نوم، وبطانيتين من

ريش الوزّ تعودان إلى فترة ما بعد الحرب مباشرة. غمغم الشابان بكلمات شكر وغرقا في النوم دون أن يجدا وقتاً؛ ليتبادلا كلمة واحدة.

في ساعات الصباح الأولى، كان «سول» أول من استيقظ. هز «كيل» الذي كان يغط في ذلك النوم العميق الذي يستسلم له ذوو المزاج الرائق. وما إن أصبحا جاهزين حتى يمّما شطر المطبخ، معتقدين أن يجدا فيه «لارسون»، وعبرا غرفة الاستقبال المزدانة بنباتات الزينة والسابحة في نور جديد بسماوات «هوبر»[1]. لم يكن في المطبخ أحد. كانت آلة إعداد القهوة الكهربائية التي شُغّلت البارحة مليئة بالقهوة الساخنة. كانت قطع من الخبز الصغير الصناعي وبيضات مسلوقة منضّدة على الطاولة في طبق كبير عليه شعار أحد نوادي اليخوت بـ«سان دييقو». كان على الطاولة ورقة كبيرة، كتب عليها بخط مائل ومشوش: «تفضلا أيها الزائران، البيت بيتكما. لن أكون قد استيقظت من نومي عند رحيلكما. أنا لا أقول أبداً لشخص إلى اللقاء، فهي كلمة تفوح منها رائحة الموت. الحكاية التي حدّثتكما بها أمس ليست حكايتي ولا حتى حكاية أحد. لقد حدثتُكما بالقصة الحقيقية لشخص غير موجود، وهي أيضاً أسطورة شخص موجود. لقد مرّ عليّ زمن طويل مذ قررتُ أن أتلبّس قصص كائن خيالي، حين ألتقي بشخص غريب. تفتنني دائماً سرعة الناس في عرض حياتهم كما لو أنها كانت ذاتَ أهمية، ونادراً ما تكون. وخلافاً لذلك، فإنني أجد أن اللجوء إلى الحلم أهمّ، فالحلم أقدر على تصوير حياتك من أي استحضار موئلم لأحدوثتك الخاصة. لا تخطئا، فليس ذلك من قبيل الميثومانيا، التي هي في نظري قلة احترام كبيرة للغير. فالحلم على عكس ذلك جهد رائع يبذله المرء؛ ليَظهَر في أحسن صورة. لقد بدوتما لي ولدين متمتعين بمستوى من

(1) هوبر (Hopper) لعل المقصود هنا هو «إدوارد هوبر» (1882– 1967) وهو رسام ونحات أمريكي، يعد من ممثلي الطبيعية أو المشهد الأمريكي؛ لأنه كان يرسم الحياة اليومية للطبقة الوسطى. عرف برسم المناظر الطبيعية الأمريكية، وبأنه كان شاهداً على التحولات الاجتماعية في الولايات المتحدة. (المترجم).

الوعي مشرّف، وبقدرة جيدة على تطويره. أقول هذا وليس لي بكما معرفة، ولكنه أمر نشعر به من أول نظرة، تماماً كأصولكما العائلية. عليكما أيضاً أن تعرفا كيف تحددان مجال الوعي، وإلا فإن الرأس ستأخذ يوماً ما في ملامسة النجوم، ولن يرضيكما شيء على هذه البسيطة. حينئذ سيبدو لكما كل شيء ضيقاً، وسيبدو لكما الناس خاملين - وإنهم لكذلك، إلا أن ذلك لا يمنعهم من أن يتفوّقوا عليكم، وهم يقيمون في مجرّتهم التافهة. حسناً أيها الزائران. بعض المضيّفين يدعون ضيوفهم إلى التوقيع في سجلّ ذهبي ويطلبون منهم أن يضيفوا جملة صغيرة للمجاملة. أما أنا، فأسلوبي غير أسلوبهم، إنني أكتب إحدى حكاياتي. طريق السلامة، أيها الزائران. ملحق: كدتُ أنسى، عندما تستأنفان طريقكما، تساءلا لماذا لا تضطلع الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا بدور واحد على الساحة الدولية».

على ظهر الورقة جواب «لارسون»: «الولايات المتحدة أسّسها الطهريون[1]، وأستراليا أسّسها نزيلو سجون منفيّون. فالأوّلون كانوا يرون أن الإنسان تَجَلٍّ لإرادة الإله ومسموح له صراحة أن يتكلم باسمه، أما الآخرون فكانوا يقدّرون أننا كنا آخر تجلّ للحياة في عالم ميت. ودون غلالة، فإن الحقيقة يعوزها الشِّعْر ولن يكون للفن وجود. إن عالماً يقوم على اليقين لهو عالم بلا فن، والروائعُ التي صُنِعتْ تمجيداً؛ للإله لن تزيل من ذهني أن صانعيها كانوا من الشكاكين، إذ أنهم تركوا في أعمالهم كل آثار الغموض الذي كان رُعاتُهم يظنّون أنهم طمسوه. لعلكما فهمتما الآن، فما أنا بأكثر احترافاً للكتابة من ذئب البراري على قارعة طريق. فلستُ أكتب إلا لأمثالكما من عابري السبيل».

أثار الجواب حيرة «سول»، فمدّ الورقة إلى «كيل» الذي قرأها وهو يترشف قهوته. حين أكمل قراءتها جحظت عيناه. إنها الحياة تقدم نصيبها

(1) الطهريون (Puritains) هم أتباع الطهرية وهو مذهب كالفيني يهدف إلى «تطهير» الكنيسة الإنجليزية من الكاثوليكية. وقد تطور في إنجلترا ابتداء من سنة 1559 وفي إنجلترا الجديدة ابتداء من سنة 1630. وهو في الوقت نفسه مذهب ديني ومذهب سياسي. (المترجم).

من المفاجآت. حين شربا قهوتيهما، غادرا البيت بهدوء واستأنفا طريقهما إلى «سان فرنسيسكو» بمحاذاة الشاطئ. كان«سول» يقود السيارة، في حين كان «كيل» يستأنف نومه من حيث قطعه. وفجأة، في برودة الصباح الباهرة أخذ «سول» في الزعيق، لقد نسي أن يهاتف أمه. اندفع إلى غرفة الهاتف في أول قرية. دامت المكالمة ما يقرب من نصف ساعة، وانقطعت مراراً؛ لأن «سول» لم يكن يملك قطعا نقدية. عاد من تلك المكالمة مستاء. كلما كلم أمه وجد نفسه في وضعية معقدة. واحتاج إلى ساعات حتى يتمكن من رفع معنوياته. كان «كيل» لا يزال يغط في النوم. وحين لم يبق على «سان فرنسيسكو» إلا أقل من ساعة استيقظ، رائق المزاج، باسماً. بحث عن موضوع للحوار مع صديقه:

– إذاً، كيف وجدت «لارسون» هذا؟

أجاب «سول»:

– إنّ به لوثة، ألا تعتقد؟

– لوثة؟ لا أظن. ولكنه بالتأكيد طريف.

– هل صدّقتَ حكايته؟

تثاءب «كيل» وعيناه محمرّتان من النوم، وقال:

– طبعاً، صدّقتها لمّا رواها لنا. كانت معقولة، وربّما صحيحة.

سكت هنيهة، ثم أردف:

– حقاً، أن يسير شخص هكذا في سيارة مكشوفة، هادئاً، وهو يستنشق الريح، وفجأة تصيبه رصاصة مباشرة في وجهه، ينبغي أن يترك فيه انطباعاً غريباً.

أجابْ «سول»:

– إن الأمر لأسوا من ذلك يا «كيل». فحين تصيبك رصاصة في أمّ رأسك من بندقية من عيار تلك التي يملكها «أوزوالد»، فإنك لا تشعر حتى بموتك. ينفجر دماغك، دون ألم عملياً. ربما أحسستَ في جزء من ألف من الثانية بألم

عصبي خاطف. أما «كيندي» فإنه تلقّى أولاً رصاصة أسفل العنق لم تُصِبْ منه مقتلاً. وضع يديه على حلقه كما لو أن زنبوراً لسعه. وما عتم أن أدرك أنها رصاصة لأن الدم كان يتدفق، واخترقت جسدَه رصاصةٌ ثانية، أما الرصاصة الثالثة فقد انتزعتْه من دهشته ومحت وعيه. في تلك اللحظة أدركتْ «جاكي كيندي» أن النار تُطلَق عليهما، حينما رأت جزءاً من دماغ زوجها يتطاير شظايا. عندها أسرعت باتجاه مقعدها على الصندوق الخلفي؛ اتقاء للطلقات. ولكن كل شيء كان قد انتهى.

– بالمناسبة، لماذا رفضت أمك دائماً التحليل النفسي؟

– لأنها قرأت «فرويد». الذي قال: «إن التحليل النفسي يلائم الأمريكان كما يلائم القميصُ الأبيضُ الغرابَ». كان يزدريهم، بسبب شهيتهم المفرطة للتحليل النفسي. كان يقول: إنّ الأمريكان ليسوا إلا طهريّين يبحثون عن السعادة. لا غير.

– وإلا فماذا قالت لك في الهاتف؟

– لا تُحدّثني عنها. لقد كانت هائجة. اتصلتْ بكل شرطة الإقليم على الطريق. لا شك في أنها اطمأنّتْ حين أعلموها بأنه لم يقع الإبلاغ عن أي حادث. ثم خطر ببالها فجأة أننا اختنقنا بالغاز عند وصولنا. فطلبت من شرطة «سان فرنسيسكو» أن يخلعوا باب الشقة. حين نصل سنجد بالباب شرطياً ببزته النظامية. على والدي أن يدفع مرة أخرى.

– هل قلتَ لها إنني أنا الذي صدمتُ الأيل؟

– أبداً. بل قلت لها إنني أنا الذي صدمته. ولولا ذلك لأمرتني بأن أطردك إلى غرفة الطالب التي كنت تشغلها. لا بسبب الخسائر. بل لأنها يمكن أن ترى في الحادث نذير شؤم.

اكتنفتهما سحابة من الضباب ببرودتها وهما يتركان الطريق رقم 101 للالتحاق بالطريق الوطنية الكبرى التي تؤدي إلى «سان فرنسيسكو».

– ربما فضّلتُ أن أكون بلا أم مطلقاً على أن تكون لي أم كأمك يا «سول».

– لا ينبغي لك أن تتفوه بمثل هذا الكلام يا «كيل». إنني ابنُها الوحيد ومركز اهتمامها في حياة قُضِيَ عليها فيها بالعجز التام عن الحركة. لهذا السبب تراها شديدة الانشغال بكل ما يمكن أن يقع لي.

– أعتقد أنه من الخير لنا حقاً أن نعوّمها.

– ماذا تقول؟

– أقول إنه عندما تتحقق مشاريعنا ونستقبلها في مركزنا الأول بوصفها زبونة من الشخصيات الهامة جداً، فإنها ستتركك وشأنك قليلاً. سيتّسع عالمها. ستلتقي بزبائن لنا آخرين يمكنها أن تتحدّث معهم. ستغدو حياتُها أكثرَ تنوعاً.

– لا تتوقّعْ ذلك. فهي أم يهودية لها ولد وحيد. ليس في الأمر ما يدعو إلى العجب. فكل الأمهات اليهوديات اللاتي لهن أولاد وحيدون يتصرفن بالطريقة نفسها. هل تتصور، لو وقع لي مكروه؟ ستهلك العائلة، ومعي سيهلك فرع من اليهودية. لا شيء يمكن أن يمنع أماً يهودية من أن تقلق.

– وحين ستعيش مع امرأة، هلِ سيبقى الأمر على ما هو عليه؟

– لن أعيش أبداً مع امرأة ما دامت أمي على قيد الحياة. أبداً. ينبغي أن تكون يهودية وينبغي أن تعجبها. ولكي تُعجِبَ أمّي عليها أن تشبهها. ولا أستطيع أبداً أن أعيش مع امرأة تشبه أمي. ولو خطر ببالي أن أعيش مع امرأة غير يهودية أو لا تُعجِب أمي وإن كانت يهودية، فإن هذا سيودي بوالدتي إلى الموت. سيؤنبني ضميري لموت أمي، والحال أنها أرادت لي حياة مثالية. وأنّى للمرء أن يعيش مع امرأة تسببت في موت أمه؟ كلا، هذا محال.

– إذاً، ياعزيزي، إن فهمتُ جيداً منطقك، فهل هذا يعني أنك ستعيش دون امرأة؟

– دون امرأة. وعلى كل حال فالحقيقة أن النساء لا يُثِرن شهيّتي في الوقت الراهن.

– وهل تجد هذا طبيعياً؟

– أنا لا أجد أي شيء طبيعياً يا «كيل». فأن تكون لك أم يهودية تزن مائة وثلاثة وستين كيلوغراماً فهذا على كل حال أمر غير طبيعي. ولكنني أحبّ أمي.

– خسارة يا «سول». أفهمتَ لماذا أتساءل ما إذا كان الحرمان التام من الأم، وهي مأساة كبرى في الظاهر، فاجعاً إلى هذا الحد في نهاية الأمر؟

– لا ينبغي لك أن تتفوه بمثل هذا الكلام يا «كيل». ففي تلك الحالة ستحتاج دائماً إلى شيء، وستبحث عنه في كل النساء اللاتي ستتعرف عليهن. حب الأم. يوماً ما ستقيس هشاشة روحك. تذكر ما قاله «لارسون»، يوما ما سيكون ظهرك إلى صخرة الشاطئ، وعندها ستكون سعيداً حقاً أن يكون لك صديق مثلي، كانت له أم يهودية حقيقية.

– لعلك على حق، ولكني الآن أفضّل مأساتي على سجنك.

*

كانت الشقة الكائنة بـ«مرفإ الصياد» تتميز ببانوراما فاتنة على المحيط. كان والد «سول» يقدّر أن شقة بمواجهة البحر في «سان فرنسيسكو» استثمار جيد. وكان يفكر بأن هذا المشهد لن يُحجَز أبداً. ومع ذلك فإن مستثمرين آخرين كانوا يرون الأمور بعين أخرى. فالمؤكد أنه لن يتمكن أحد أبداً من أن يبني على الماء ويحتاز ذلك المشهد، ولكن الخوف من الزلازل كان حياً في النفوس، كما أن الفكرة القائلة بأن هذا الشريط الأرضي الشديد القرب من البحر يمكن أن ينفصل يوماً ما بتأثير هزة زلزالية ويسقط في المحيط لم تكن فكرة خرقاء تماماً. لذلك اشترى «قاري» الشقة بأقل من ثمنها الحقيقي، وهو

على يقين من أن الناس، ذات يوم، حين يزول عنهم رعب نهاية العالم سيُعيدون النظر في موقعها الفريد. هكذا كان «قاري ليبوفيتش». كان قد اشترى تلك الشقة بُعَيد الزلزال الأخير، حين كان الملاكون الذين استبدّ بهم الفزع يبيعون عقاراتهم بثمن بخس؛ ليقيموا في أماكن أقرب إلى الشمال. لم يبق له إلا أن ينتظر أن يمحو الزمن شيئاً فشيئاً ذلك الحدث المشؤوم من الذاكرة الجماعية. كان «سول» يمقت تلك الشقة: فالأفق يشعره بأنه يُقذَف به في عالم رائع، إلا أنه عالم لا يحبّه. أما «كيل» فكان يشعر بالراحة في ذلك المكان. فبفضل الضباب كانت السماء والأرض تتمازجان، فلا تُرَى إلا حركة الميناء المتصلة ورقصة السفائن المعقدة.

كان «كيل» يُنفق كل أوقات فراغه يجرّب نماذج من حركة السوائل في حوض الاستحمام بالشقة، وهي تجارب كان يودعها حاسوبه. كانت الصعوبة الرئيسية تكمن في استحالة إبقاء المرضى باستمرار في الماء دون المجازفة بتعريضهم لمخاطر الإصابة بمضاعفات جلدية وعضلية. كان لا بد من مواجهة الحقيقة. لقد أصبح الإنسان قبل كل شيء من الثدييات الأرضية، ومن ثم فإنّ نقْله إلى بيئة بحرية صِرف ينطوي على مخاطر. وعلى هامش تلك التأملات كان «كيل» قد صمم جهازا لرفع أي مريض من الماء ونقله دون جهد، جالساً أو مضطجعاً، إلى سطح جاف. كان ذلك الجهاز الذي يعمل بالهندسة المائية يستخدم ماء المركز ويستهلك أدنى قدر من الطاقة.

أما المركز نفسه فإنه كان يستعيد طريقة عمل الدير. كانت كل حجرة تفتح على ممر مشترك، أو قل قناة صغيرة، تسمح لكل مريض بأن يتنقل في ذلك المركّبْ المائي الضخم. وفي الوسط، ينبغي أن يتم إنشاء صورة مطابقة لأحد أجمل شواطئ «هاواي»، برمله الدقيق ونخيله الطبيعي، وأن يُربَط بالنهر الداخلي الرئيسي. وفي أجمل أوقات النهار، يُشْبه الشاطئُ ميناءَ السكينة الذي يولد من الجليد الساحلي – حيث تسترخي الفقمات الضخمة في أُسَر قبل أن

تقفز من جديد في بيئتها الأصلية التي تنسى فيها أنها بلا أذرعة ولا أرجل. كانت كل حجرة تمكّن الساكن فيها من أن يقيم إما في الماء وإما على سطح جاف، جالساً أو مضطجعاً قبالة شاشة تليفزيون توفر دون انقطاع القنوات الأربعمائة في شبكات الأقمار الاصطناعية.

كان المشروع في خطوطه الكبرى سليماً. كان «سول» موهوباً في مجال التسويق. أكبّ على أن يبسط للجمهور العريض ما كان يبدو لشريكه بديهياً، وأعدّ مذكّرة تقدّم ابتكارَه على نحو مفصّل، وكتيّباً موجهاً إلى للمستثمرين الذين سيحتاج الشابان ذات يوم إلى الدفاع أمامهم عن ذلك المشروع. إنه ضرب من الاختبار الشفاهي الكبير، أو الامتحان الذي يمكن أن يبدّد أياماً وليالي من العمل، بسبب نقطة غير ذات شأن في الظاهر يمكن أن تهدّد صلاحية المجموع برمّته. كان «قاري» قد اتصل مراراً؛ ليقترح على الشريكين أن يعودا لقضاء عطلة نهاية أسبوع في «أوريقون». تعلل «كيل» بأنه يفقد تركيزه هناك. والحقيقة أنه لم يكن يأنس في نفسه القدرة على أن يواجه السيدة «لايبوفيتش» مرة أخرى. كان «كيل» يشعر بأن سكون السيدة «لايبوفيتش» يضخّ المحيطين بها بطاقة عجيبة: فقد كانت تسعى باستمرار إلى جلب من حولها إليها لتخنقهم كما يخنق ثعبان الأصلة الأرنب. ولما يئس «قاري» من قدومهما إلى «أوريقون» ابتاع في نهاية المطاف تذكرة ذهاب وإياب إلى «سان فرنسيسكو» أتاحت له أن يقوم فوق ذلك بزيارات مهنية. عرض عليه «سول» أن يؤويه، ولكن «قاري» كان يحرص على حريته وأقام في فندق صغير مريح في وسط المدينة كان يتردد عليه. دعاهم «قاري» ليلة وصوله إلى العشاء في مطعم سمك قبالة البحر في خليج «هاف مون». مطعم ما زال المرء يستطيع أن يرى منه، عند حلول الظلام، المتزلجين الأخيرين على الموج يصارعون أمواج المحيط. كان «قاري» قد حجز طاولة ملاصقة للنافذة الزجاجية، على الرغم من أن المرء لا يرى، بمرور الزمن، من البحر شيئاً. كان

«قاري» قد اتصل بالمذكّرة في صباح ذلك اليوم نفسه، ووَجَدَ، بين موعدين لأعماله الخاصة، ساعتين كاملتين لفحص الوثيقة. وطوال الطريق المتعرج الرابط بين المدينة وخليج «هاف مون»، لم يَفُهْ عنها بكلمة. اتسم حديثهم بالمجاملة الصرف والفكاهة حول نبيذ «نابا فالي» الكاليفورني الذي أوصى منه «قاري» على عدة صناديق. وهو يرى أن «الزويلفلاندر» لا يقل قيمة عن النبيذ الفرنسي، وخاصة منه «البوردو». ولو كان الناقد الشهير «باركر»[1] حاضراً، لبكى صاعاً؛ من الدموع إزاء هذا التطور النوعي. كان مزاج «قاري» مرحاً. كان يحب «سان فرنسيسكو» وتروقه تلك الجلسة الساحلية المختلسة مع ابنه وشريكه. طلب قنينة نبيذ أبيض من نفس النوع «الزويلفلاندر»، ودون أن يستشير أحداً طلب ثلاثة أطباق من جراد البحر معدة بالبخار، وثلاثة من سرطانات البحر بالزبدة البيضاء. كانت تلك أغلى المأكولات حسب الطلب، ولم يَدُرْ بخلده أن الشابين يمكن أن يغريهما شيء آخر.

ما إن وُضِعَتْ جراداتُ البحر على الطاولة حتى جاءت خادمة، منسجمة انسجاماً تاماً مع ذلك المطعم الجميل، تسأل عما يفضله الضيوف من أنواع الصلصات للسلطة المقبلة. ثم أخذت تبرم مِطْحَنَةَ فلفل أسود هائلة جعلت حبوبُها المسحوقة تتساقط على الأطباق بنفس الأناقة التي كانت تتساقط بها القنابل على مدينة «درسدن» سنة 1945. كان «قاري» يبدو في قمة الابتهاج. انتظر حتى أكمل كل واحد جرادته ليتطرق إلى القضية التي كانت، رغم كل ما بذله لصرف الأنظار عنها، مستبدّةً بأذهان رجال الأعمال الثلاثة. دفع «قاري» بإهمال الهياكل الحمراء للقشريات بظهر شوكته قبل أن يمضي إلى الهدف:

– حسناً أيها الولدان، لقد خصصتُ اليوم ما يلزم من الوقت لفحص ملفّكما التقني، وليس لي إلا شيء واحد أريد أن أقوله.

(1) روبيرت باركر (Robert Parker): ذواقة أمريكي للنبيذ. ولد سنة 1947 عرف بكتبه عن النبيذ وفيها يعلق على تذوقه. (المترجم).

أخذ الوقتَ الكافي؛ ليصدع بالنتيجة التي توصّل إليها الخبير:

– هذا الملفّ لافت للانتباه. الفرضيات التقنية سليمة، ودقيقة. الفكرة في ذاتها وجدت مداها. إنه عمل بلا أخطاء، وهو نادر المثال في هذه المرحلة الأولية. وبفضل هذا الملف الرائع الوثوقية بدأتُ من جهتي أُعِدّ نموذجاً مالياً. وقد أقمتُه على أساس الفرضيات الأكثر محافظة، وهي الأسس التي تعتبر أن الإقبال على الفكرة سيكون بطيئاً جدّاً، وأن سعر الماء سيكون أغلى مما هو عليه اليوم، وأن المحيط الاقتصادي الكلي سيكون راكداً إن لم نقل إنه باعث على الاكتئاب. في هذا السياق العسير، سأحصل على عائد استثمار في سبع سنوات يقدر بـ 21،06 في المائة. سنجد شيئاً من الصعوبة في العثور على مستثمرين لأقل من خمسة وعشرين في المائة، ولكننا لسنا بعيدين جدّاً. حسبنا أن نخفض بعض الكلفة، وأن نستغني عن بعض الأفكار، وتنتهي القضية.

«نجعلكم خفافا»: هذا شعار بسيط، ومفهوم، وهو في متناول ربة البيت البدينة في ولاية «مينيزوتا» والمدير التنفيذي السمين في ولاية «نيو هامبشاير» على السواء. فكر «سول» في «ابق كما أنت بربع وزنك»، غير أن «كيل» و«قاري» معاً وجدا الشعار مفرط الطول وقليل الوضوح. ولكن «سول» هو الذي وجد الملصق الإعلاني الذي سيُستخدَم في إعلان إطلاق المشروع. صورتان متراكبتان. تمثل الأولى باخرة بحجم «الملكة إيليزابيت»[1] في حوض بناء السفن على خلفية ترسانة كئيبة مصحوبة بتعليق: «هكذا ترون أنفسكم». وتمثل الثانية، وهي بنفس الحجم، وتحتها مباشرة، الباخرة نفسها تمخر عباب البحر الكاريبي الأزرق وقد تغيرت تماماً، مصحوبة بتعليق «هكذا ستصبحون». أما الشعار فقد كان العثور عليه أكثر عسراً.

(1) «الملكة إيليزابيت» (Queen Elizabeth) هنا هي باخرة ركاب بريطانية عبر الأطلسي جابت البحار من سنة 1969 إلى سنة 2008 واستخدمت أساسا لتأمين الربط البحري المنتظم بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم).

واتفق الشركاء الثلاثة على أن يكون «المركز المائي الكلي الخفة»[1].

حُدّد موعد توقيع العقود بـ«نيويورك» في النصف الأول من شهر سبتمبر. تصرّف محامي المستثمرين، الذي كان له مكتب فسيح في الطابق الثاني والخمسين في أحد برجَيْ مركز التجارة العالمي، مع محامي «قاري» في البداية بعجرفة، يصحبها الازدراء المعتاد الذي يكنّه رجل الأعمال الدولي إزاء زميل من الأقاليم. ولربما كانت تلك أول مرة يلتقي فيها بمحام من «أوريقون». حُدّد موعد آخر قبيل التوقيع، بحضور كافة المستثمرين، أي ممثلين رسميين لشركة استثمارات بالمجازفة توجد في «بوستن»، ذائعة الصيت لجرأتها في مجال الأعمال. وبما أن «كيل» لم يكن يعرف جيداً ما تعنيه شركة الاستثمارات بالمجازفة، فقد شرح له «قاري» أن هؤلاء القوم كانوا يخسرون أموالاً في تسع من عشر شركات يستثمرون فيها، ولكنهم كانوا ينقلبون انقلاباً هائلاً في العاشرة. وهم يعتقدون أن مشروع «كيل» و«سول» من المشاريع التي يمكن أن تقضي على الخسائر الحاصلة في المشاريع التسعة الأخرى. كانت مكاتب تلك الشركة في أحد الطوابق العالية بأحد برجَيْ مركز التجارة العالمي المذكور.

كان «كيل» قد أصابه الدوار في المصعد المؤدي إلى تلك المكاتب. لم يُظهِر لمرافقيه شيئاً من الشعور بالاضطهاد الذي استمر لديه بعد دخولهم المكاتب الفاخرة لشريكهم المالي المقبل. في المدخل، طاولة من خشب ثمين صقيل تقطع الطريق المؤدية إلى المكاتب. كانت شابة صهباء نافرة الصدر تجلس من خلفها، وترتدي بدلة رمادية بدا لـ«كيل» أنها لا تتلاءم ولونها المنمّش. كانت تختفي وراء نظارتيها، وحين تبتسم كان يمكن للمرء أن يرى على الفور أنها ندمت على ذلك. رجت الرجال الثلاثة أن ينتظروا على أرائك عميقة من الجلد الأسود. على طاولة صغيرة صُفّفت مجلاتٌ على شكل مروحة. كانت كلها تتحدث عن المال. كان يتربع على عرشها ملحق صحيفة «فورتيون» (الثروة)

(1) الاسم بالإنجليزية في الأصل (Absolutely light hydro center) (المترجم).

الذي يقدم ترتيباً للرجال المائة الأكثر ثراء على وجه الأرض. ألقى «كيل» عليه نظرة. كانت الفكرة الوحيدة التي أوحت له بها تلك القراءة هي أن الغالبية العظمى من أولئك الناس كانوا أقربَ إلى الهرم وأن كل ذلك المال لن يمنع عنهم الموت. ولعلهم لم يعودوا يجدون أي لذة في العيش. لم يطل انتظارهم. برز رجل في عنفوان الشباب ذو قامة أطول بكثير من المعتاد يرتدي بدلة غامقة ذات خطوط رقيقة. كان يلبس ربطة عنق حريرية. لا يبدو على بشرته الملساء أي أثر للخشونة. حيّا الرجال الثلاثة بحرارة حسب ما تقتضيه الأصول، ثم رجاهم أن يتبعوه. كانت سجادة سميكة تكتم أصوات خطى الرجال الأربعة الذين دخلوا المكاتب في رتل. ألقى «كيل»، وهو يغادر القاعة، نظرة أخيرة على صدر موظفة الاستقبال، وقال في نفسه: إنه كان يود أن يلمسه، فقد كان حقا عملا فنيا. صافح رجلاً أكبر سناً من الأول، ولكنه لا يقلّ عنه كمالاً في المظهر، بينما كانوا يدخلون قاعة اجتماعات يُرى من خلال جدارها المزجّج مشهدٌ أخّاذ من مدينة «نيويورك». أبدى «قاري» إعجابه بالمشهد متملقاً المستثمرَيْن. ابتدره المستثمر الذي يبدو أنه نائب الرئيس قائلاً:

– قبل ثلاثة أسابيع وحسب، كنا سنستقدمكم إلى «بوسطن»، ولكن شركة كشركتنا لا يمكنها أن تدير ظهرها لمكاتب في هذا المكان. فالانفتاح على العالم الذي تمثله استثنائي ومثير للإلهام.

سارع «قاري» إلى القول مضيفاً:

– ومنيع.

وافق نائب الرئيس بهزّة جانبية من رأسه، وهي سمة المحاورين الذين يريدون أن يشاطروا غيرهم الرأي لا لشيء إلا ليحوزوا إعجابهم، وقال:

– بالتأكيد.

كانت طاولة الاجتماعات مصنوعة من بلور سميك شفاف. لم يكن في المكان من ديكور إلا «شواهد قبور» صغيرة تزين منضدتين. هكذا تُسمَّى، في

الاصطلاح المالي، اللوحاتُ التذكارية التي تُصنَع بمناسبة التوقيع على صفقة كبيرة. جلس الحاضرون في أماكنهم. وكانت تتربّع في وسط الطاولة رزمة من العقود تضمّ عدة آلاف من الصفحات.

قال نائب الرئيس:

– تفضلوا، كل شيء جاهز.

نظر «كيل» مشدوها إلى رزمة الوثائق. وعنّت له فكرة غريبة. فمنذ قرون كان الحمق البشري وعلم القانون ينخرطان في سباق محموم. وشيئاً فشيئاً، وصلنا إلى ألفين وسبعمائة صفحة حتى تطمئنّ شركة وتستثمر مالاً في أحد المشاريع.

كانوا على أهبة التوقيع النهائي، ولم يعد هناك مجال لمناقشة شيء جوهري. كانوا يضبطون بعض التفاصيل المتصلة بعقد شراكة ينبغي تحريره وتوقيعه يوم غد في أكثر من اثنتي عشرة نسخة. وكان هذا مسوغاً للدعوة لاجتماع يبدأ في السابعة والنصف صباحاً ولا ينبغي أن تُتَوقَّع نهايتُه قبل حلول الظلام. ففي هذا المستوى من الحرفية، يحسن أن نتجنب مفاجآت اللحظة الأخيرة. كان الأوان قد آن لـ«كيل» حتى يبتهج ويتصوّر أنه لن يلبث أن يصبح غنياً. يقيناً، أن الاعتراضات نفسها كانت تخطر ببال الرجال الثلاثة، تلك الاعتراضات التي أبداها المستثمرون: «ما الذي يمكن أن يحدث لو اختُرِع دواء للسمنة؟»، «ولو أن شركة تملك التكنولوجيا العالية وجدت وسيلة لوضع من نستهدفهم في حالة انعدام الوزن؟». كان كل المجتمعين حول الطاولة يعلمون بوجود خطر، ولكن كان كل منهم يقبله دون تحفظ، ذاك هو سرُّ توهّجِ أمريكا. ذلك الخطر، هو أن يتلاشى البدينون من أمريكا. خطر يمكن التحكم فيه ومع ذلك فمن كان بإمكانه قبل قرنين أن يتصوّر أن الهنود يمكن أن يتنازلوا عن قارّتهم لأمّة من البدينين؟ غير أن أحد أصحاب القرار كان قد قال: «هيا بنا» فانزاحت آخر الشكوك إلى الأبد.

في المساء، كان الجميع يشعرون بخفة عجيبة. دعاهما «قاري» إلى مطعم إيطالي في الشارع السابع والخمسين قبل أن يعودوا إلى الفندق الكائن في ركن «ليكسينقتون». في المصعد الذي كان يحملهم إلى غرفهم شدّ «قاري» قبضتيه ورفعهما إلى أعلى دلالة على أنهم كانوا قريبين من الهدف. ولما أحس «كيل» بأن النوم لا يطاوعه، عاود الخروج ليشرب كأساً. كان مزيج من الإثارة والاكتئاب؛ لاقتراب موعد الحدث يدفعه إلى الشرب، لأول مرة في حياته. ارتاد على هذا النحو ما يقرب من عشر حانات، وعبّ قنينة دجين كاملة. كان يشعر بالارتياح، وببساطة، أنه سيد العالم، وفي آخر الليل كان يحدّث كل من يريد أن يسمعه أنه يوم غد سيصبح مليونيراً. ومن عجب أنه لم يوجد أحدٌ ليحطّم رأسه، إذ كلما تقدم به الليل، ازداد الناس انصرافاً عن حكايته، وازداد ضيقاً بها ألآف الحانات، وهم أشخاص تم إقصاؤهم غالباً من نموذج النجاح الأمريكي الذي كان، دون أن يعطيهم شيئاً، يتركهم يشربون كأساً أخيرة قبل الإغلاق. بعد ذلك، وفي لحظة لا يذكرها جيداً، سقط في الطريق على وجهه، دون أن يدفعه أحد. التقطه رجال الشرطة واقتادوه إلى المخفر ثم احتجزوه في زنزانةِ إزالة السكر التي سبقه إليها حوالي عشرين مخموراً، لم يكونوا، ولله الحمد، أكثر منه عنفاً. وفي السابعة صباحاً نهض وقد اعتراه غثيان ودوار في الرأس كما لو أن أحدهم دَقّ له إسفيناً أسفل الجمجمة. أخذ يقرع السياج حتى يأتي من يطلق سراحه، وهو ما أغضب قليلاً رفاقه في الزنزانة الذين قرّ قرارهم على أن يناموا إلى الضحى. ولكن لم يأت أحد. ظل كذلك إلى الثامنة والربع حين أخرجه أحد الحجاب، وطلب منه أن يجلس أمام مكتب ليحرّر محضراً. حاول جهده أن يشرح له أن عليه أن يحضر منذ السابعة والنصف جلسة توقيع عقد بعدة ملايين من الدولارات. ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح. اكتفى الرجل بأن قال له: «إن كانت صفقة جيدة حقاً، فيمكنها أن تتحمل هذا التأخير الطفيف. ستكون هنالك في حوالي التاسعة والنصف.

علينا أن ننتظر قدوم الطبيب وقراره ما إذا كنا نستطيع أن نتركك تمضي في حال سبيلك». كان الطبيب رجلاً معتاداً على كل تعاسات العالم، وبالنظر إلى تلك التعاسات أدرك «كيل» من نظرة الطبيب أنه لم يكن من الصفوة. لم يسأله عما كان يصنع في ذلك المكان، فهذا الضرب من الانزلاق الذي يصيب شبّاناً طموحين يرتدون بدلاتٍ أمرٌ أكثر من عادي في «نيويورك». «تجنبْ فقط أن تجعل من هذا الصنيع عادة. فالجسد لا يحب التجاوزات، والناس يدفعون ثمنها دائماً في اللحظات التي يكونون فيها أقل ما يكونون توقعاً لها». لاحظ الطبيب أن «كيل» كان على عجلة من أمره فتركه ينصرف.

عاد «كيل» إلى الفندق ليغيّر ملابسه ويخفّف من رائحته في الليلة الماضية. وأثناء مروره بالبواب أبلغه رسائلَ من «قاري» تنمّ عن السخط أكثر مما تشي بالحيرة. وحين عاد إلى الاستقبال، وهو يستعدّ للخروج، حالَ البوّابُ، وكان وجهه أبيض طباشيرياً، دونه ودون الباب الدوّار الذي كانت حافّةُ درابزينه تلمع كأنها كنز من كنوز «الإنكا».

– آسف يا سيدي، ولكن ما وجهتك؟

كان متلعثماً كما لو أنه كان عاجزاً عن التنفس. ورغم أن «كيل» فوجئ فإنه أجاب الرجل بأنه ذاهب إلى مركز التجارة العالمي. جذب البواب نفساً عميقاً آخر، ثم قال:

– أخشى ألا يكون ذلك ممكناً، يا سيدي، فأحد البرجين يحترق، يبدو أن طائرة ارتطمتْ به.

نظر «كيل» إلى الرجل، مرتاباً: كان صامتاً، وكانت نظرته ساهمة في شرود تام. فلم يجد «كيل» غير أن يقول:

– وفي رأيك، هل هي طائرة كبيرة؟

أجاب البوّاب بنفس النظرة الشاخصة: «إنها طائرة ضخمة جدّاً». وبينما كانا واقفَيْن هنالك مشدوهين كتمثالين في متحف شمع، هرول نحوهما فرّاش

في بدلة رسمية وعلى رأسه قبّعة بنفسجية. ودون أن ينظر إلى «كيل»، خفض صوته واتجه إلى البواب قائلاً: «طائرة أخرى ارتطمت منذ حين بالبرج الثاني». أخذ البواب يدير رأسه كطائر غريب، كما لو أن الخبر لا يستطيع أن يجد طريقاً للوصول إلى دماغه. ثم غمغم، متصنعاً الوقار، بصوت خافت: «طائرة واحدة هذا حادث، طائرتان هي كارثة... ربما كان الموت يتهددنا الآن جميعاً.»

وحين رآه «كيل» على تلك الدرجة من الهلع، جازف بإلقاء نظرة على الخارج. لا يميز المرء شيئاً من درج مدخل الفندق، إذ أن ناطحات سحاب كانت تعوق الرؤية. لا شيء يمنع إذاً من أن ترتطم طائرة ثالثة أو رابعة بالمدينة. فكّر بأن السكون هو أفضل ردّ على هذا القصف. كان يتصور الناس يَعْدُون في كل اتّجاه. ولو غامر بالخروج لجرفه تيار هائل من الذعر، شبيه بالموجة العارمة التي جرفت أمه. صعد إلى غرفته.

في كل طابق كانت تُسمَع صرخات الذعر. لم يشعر أبداً أنه هو هو، ولكنه لم يكن يخشى الموت. التمعتْ في ذاكرته صورة ذلك المتزمت الذي هزّأه أمام عمّته بالتبني يوم تحدّث عن النهاية المحتملة للنوع البشري. شغّل جهاز التلفزيون. على كل القنوات كان الدخان يتصاعد من البرجين. جنّدت القناة 43 جيشاً من المعلّقين، والخبراءِ من كل نوع، ومحترفي الرأي العام، مما لا يملك سرَّ إنتاجه إلا مجتمعنا؛، لإبقاء الجمهور في حالة من الجهل المتحضّر.

ثم انهار البرجان في سحابة من الغبار كانت تتصاعد كفطر «هيروشيما». بدأ «كيل» حقاً يقلق على «سول» و«قاري» وهو يقول في نفسه إن غضبهما منه لا يمكن أن يصل بهما إلى حدّ الإعراض عن مكالمته. كان مقتنعاً بأنهما وَجدا الوقت الكافي للنزول ولكنهما عَلِقا في الفوضى العارمة التي يفترض أن تسود في محيط الأنقاض.

كان متفائلاً. ظل أمام جهاز التلفزيون إلى صباح الغد، لا يتحرك ولا يأكل، وهو في بدلته. اتصل مراراً بالاستقبال سائلاً عما إذا كان رجلان يكسوهما

الغبار قد سألا عنه. ولكن لم يظهر أحد. في اليوم الثاني، وبعد أن اقتصد في الإفادة من خدمة الغرف - لعلمه بأنه لن يستطيع أبداً أن يدفع ثمنها لو أن شريكيه قلبا له ظهر المجن-، ساورته فكرة مكالمة السيدة «لايبوفيتش». وفضلاً عن أن مشروع المكالمة كان يرعبه، فإنه لم يكن يعرف رقمها، ولا كان يذكر على نحو دقيق المنطقة التي كانت تعيش فيها. شكّل مراراً رقمَ جوّال «سول»، ولكن كانت تجيبه دائماً رسالته الصوتية، دون أن تسبقها رنة الهاتف، كما لو أن الجهاز كان مغلقاً. وفي صباح اليوم الثالث على الاعتداءات، استقر رأيه على أن يغادر المكان، واثقاً من أن الفندق لن يمهله أكثر. نزل إلى صندوق المحاسبة وشرح لهم أنه قدِم إلى «نيويورك» مع شريكين له لتوقيع صفقة كبيرة، وأن أكبر رفيقيه سنّاً هو الذي كان ينبغي أن يسدّد المبلغ، ولكن يبدو أن ذلك الرجل وابنه هلكاً في الكارثة قبل دقائق معدودات من إنهاء ترتيبات صفقتهم الخارقة. بدا الارتياب على موظف الصندوق، فسأل «كيل»، وهو يرتب حزمة من الفواتير أمامه، بصوت يحاول أن يكون محايداً:

- ولكن، كيف تفسر عدم كونك مع شريكيك؟

قلب «كيل» عينيه كما لو أن السؤال لم يكن قادراً على أن ينفذ إلى دماغه. وقال في نهاية المطاف:

- هذا سؤال تقتضي الإجابة عنه وقتاً طويلاً. ولعلي أنا نفسي لا أعرف عن الجواب شيئاً... ولكنني واثق من أنني بحاجة إلى حياة كاملة؛ لأتفكر في الصدفة التي جعلتني لا أكون معهما في ذلك البرج.

عندها، تفحصه موظف الصندوق بنظرة ثاقبة، إلى حد أن «كيل» شعر معها بشيء من الارتباك. وحين رأى الموظف أن «كيل» كان يحاول أن يتفادى نظراته، قال له:

- إن هذا التناقض يدعوني بطبيعة الحال إلى أن أطلب منك أن تتفضل بالجلوس في الاستقبال ريثما يأتي عون من مكتب التحقيقات الفيديرالي،

سأتولى إبلاغه، فيستجوبك. أنت أجنبي، أليس كذلك؟

رد «كيل»:

– كلا. أنا أمريكي.

– اسمك بالتأكيد هو «كيل بروساك»، صحيح؟

– نعم، «بروساك» اسم فرنسي، ولكنني ولدت في «سان فرنسيسكو».

– ومع ذلك، فلا يبدو عليك أنك فرنسي.

وقف ليدقق في «كيل» وأردف:

– يقال: إن الفرنسيين لهم كثير من العرب في بلادهم، هل أنت منهم؟

– كلا، أنا لا أعرف فرنسا، وأمي مكسيكية.

عاد إلى الجلوس وتنهّد.

– على كل حال، ليس من مهمتي أن أقوم بهذا الاستجواب. أنا محب لوطني. ونحن في حالة حرب، طبيعي جدّاً أن أتجند، ولكن لندع هذا لأهله. اجلس، اجلس، سأحيطك علماً.

جلس «كيل» على كنبة في الاستقبال وانتظر. مرت ساعة، ولم يأت أحد، فاقترب منه موظف الصندوق. كانت تظهر عليه علامات الضيق:

– رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي مرهقون بالعمل، ولم يُجْدِ إلحاحي، فلستَ من أولوياتهم. الشخص الذي اتصلتُ به – وهو زوج أخت ابنة عم لي نشأنا معاً في ولاية «ويسكونسين» – طلب مني أن أحتفظ بأوراقك الثبوتية. ستعاد إليك عندما يجدون الوقت للتثبت منها. عليك أن تعود في حدود يومين حتى يستجوبك. لا يمكننا إبقاؤك هنا ريثما يتم ذلك، إذ ليس بوسعك أن تدفع، عليّ أن أخلي غرفتك. عليك إذاً أن تتصرف مع أسرتك، عُدْ بعد يومين للدفع، وبعد الاستجواب، إن كان كلُّ شيء على ما يرام، سنعيد إليك أوراقك. مفهوم؟

نهض «كيل» وخرج لا يلوي على شيء. فكر أول الأمر في أن يطوف

بالمستشفيات، ولكن ذلك كان بلا جدوى، فلم يكن يُسمَح لأحد بأن يقترب منها. وإذا كان الأمر متعلقاً بتقديم إرشادات عن المفقودين، فقد كانت الأولوية لعائلاتهم، ولم يكن «سول» ولا «قاري» من أقربائه على وجه التدقيق. عاوده التفكير في الاتصال بالسيدة «لايبوفيتش»، فليس من المرجّح أن يوجد كثير ممن يتسَمَّوْن بهذا الاسم في ولاية قليلة السكان كولاية «أوريقون». ثم عدل عن رأيه. فلربما عابت عليه أمّ «سول» عدم حمايته ابنَها، وعدم تنفيذه اتّفاقَهُما. ولكن كيف له أن يحمي صديقه من طائرة إرهابيين؟ ومن البديهي أنها لن تستطيع أبداً أن تغفر له بقاءه على قيد الحياة بعد وفاة زوجها وابنها. ولربما غدت بعد سكون الألم قادرة على أن تتبناه، وتلك قاصمة الظهر.

أحياناً تفرض بعض البديهيات نفسها جارفة الشكوك، بناء على خيمياء يعسر على الإنسان العقلاني أن يفهمها. كان «كيل» قد حصل له اليقين بأن شريكيه قضيا نحبهما. ولم يفكر لحظة في وحدة السيدة «لايبوفيتش» ولا في لوعتها.

رضي «كيل» بالركوب في قطار مكتظ بالمسافرين كان متجها إلى الجنوب. كانت كل الأحاديث تحوم حول المأساة. وبينما أخذت المشاهد الطبيعية تتحرر من المباني بدأ ذهنه يشرد. كانت السيدة «لايبوفيتش» أوّلَ غصن حَطَّ عليه. استعاد صورتها وهي في شرفتها التي تغمرها الشمس، لحافُها على رجليها، وهي ترتفق الدرابزين المتين، ذراعها المشوهة تتدلى، ووجهها ذو القسمات الباهتة، وعيناها الصغيرتان المدوّرتان السوداوان المركزتان على البحيرة الاصطناعية. تخيّلَها وهي تُكمِل حياتها بين تلك الشرفة وسريرها، لا أنيس لها إلا طيور مالك الحزين الرمادية التي تأتي؛ لتستهزئ بها. ونظراً لقلة ما بقي في جيوبه من مال فإنه قصد «المكسيك» دون أن يسأل نفسه عن سبب ذلك. كان يصعد من أعماقه صوتٌ خافت كالهمس أو يكاد، يقول له إن ما حصل هو بالتأكيد بداية نهاية العالم، وفي هذه الحالة، إن كان لا بد

له من أن يموت متحجّراً بسبب ذلك الحادث فسيكون موته على الأرض التي كانت مسقط رأس أمه. أما النهاية الحق، فقد كان من العسير أن نحدد أوانها. ذات يوم أومضت في ذهنه فكرة: إن لغز الحياة والوعي سيتوقف بلا شك، قبل أن يجد له الإنسان حلاً...أحزنه ذلك. أكثر مما أحزنه موت شريكيه اللذين شعر في قرارة نفسه بأنهما لم يفعلا إلا أن سبقاه إلى العدم. لم يكن ذانك البرجان المنهاران إلا نذيرا بنهاية العالم. إن الصراع الأبدي بين التفاهة والمثل السامية سيتوقف. شعر للحظة بعطف على تلك الكائنات التي قد تأتي بعدنا وتكتشف بقايانا، بقايا الأرض المدمرة، وتبذل قصاراها لمحاولة فهم الانتحار البطيء لجنسنا، والضراوة اللامحدودة التي استخدمها ليدير ظهره للحياة.

على مسافة بضع ساعات من الحدود المكسيكية، قرأ في إعلان بصحيفة محلية تركها أحدُ المسافرين عند نزوله من القطار أن مكتب التحقيقات الفيدرالي كان يبحث عن رجل في مقتبل العمر، من النوع الملوّن، كان قد أقام بفندق «فيتزجيرالد»، حيث احتُجِزَتْ أوراقُه الثبوتية. وهو الفندق الذي فر منه دون أن يخبر أحداً، صباح 11 سبتمبر بالذات. ويُشتبه في أنه كان يتنقل باسم مستعار هو «كيل بروساك»، وهو اسم عائلة زائف إذ لم يُعثَر في التراب الأمريكي على أي عائلة تحمله، باستثناء صاحب حانة عجوز في «كاليفورنيا» أكد أنه لا سلالة له منذ توفي ابنه. وتشير التحقيقات الأولى التي قامت بها الشرطة الفيدرالية إلى أن هذا الرجل، الذي كان رسمه النموذجي مرفقاً، يمكن أن يكون متورطاً من قريب أو من بعيد في الاعتداءات. تأمل «كيل» رسمه باهتمام. وفي اللحظة نفسها، تنبه إلى أن جاره كان يقرأ المقال عينه من فوق كتفه. استدار ليتفرّس فيه، فالتفت الرجل، وقد بدا عليه شيء من الارتباك، مفكراً في شيء آخر. كان جلياً أنه لم يتعرف عليه. تأثر «كيل» شيئاً ما بسبب فظاظة الملامح التي نسبها إليه الرسم. لم يره أي بواب أو فراش أو مستخدم

كما هو على حقيقته. طوى الصحيفة وركز على الحيلة التي سيصطنعها ليجتاز الحدود دون أوراق.

كان المرور إلى «المكسيك» عملية شكلية. شرح لرجل الجمارك أنه مكسيكي الجنسية، وأنه أضاع حافظة أوراقه أثناء فراره من انهيار البرجين في «نيويورك» حيث كان لقضاء شؤون، وأنه مُقِرّ العزم على استخراج نسخ منها جميعا حال وصوله إلى «مكسيكو» التي يسافر إليها بالقطار، لشدة ما خيّب النقلُ الجويُّ ظنه. وبما أن رجل الجمارك لم يكن يستطيع منطقياً أن يفهم أن مكسيكياً كان وُفّق للهجرة إلى الولايات المتحدة يقرر أن يعود أدراجه دون سبب مقبول، فإنه يسّر أموره دون تعقيد.

شعر «كيل» بارتياح لفقدان هويته دون أن يملك لذلك تفسيراً مقبولاً. غير أن المرء لا يمكنه أن يعيش على تلك الحال إلى ما لا نهاية له. قام برحلة طويلة للوصول إلى البلدة التي جاءت منها أمه، على بعد أميال من الحدود مع «أريزونا» التي كانت حينئذ اجتازتها خلسة. ورغم حسن استعداد الإدارة، فلم يكن هناك رسمياً ما يثبت أنه كان ابنَ أمّه، وبالتالي رفضوا أن يستخرجوا له جواز سفر. فاضطلع بسلسلة من الأشغال المتواضعة، في مجال الفندقة غالباً. كان يعيش بالقليل ويدخر كثيراً. كانت تلك المدخرات كافية له على كل حال؛ ليبتاع بطاقة هوية زائفة باسم «كيل راموس». إن تغيير اسمه كان يمكن أن يسبب له إزعاجاً. لقد كان اسماً أمريكياً كانت أمه أحبت أن تطلقه عليه. بعد ذلك، قضى فترة طويلة يتساءل عمّن تراه يكون. كان يشعر بأن ظهره إلى صخرة الشاطئ ولم يكن صديقه هنا ليشدّ أزره. لم تغير هويته الجديدة شيئاً يُذكَر. لقد كان الإنسان على الدوام حصيلة مهاراتٍ وراثية، وطفولةٍ يمكن أن تشلّ سن البلوغ وإرادته، و تكيّفٍ إرادي، إن كثيراً أو قليلاً، مع الفكر السائد.

لم يكن السبب واضحاً، لعله كان الملل الذي عاناه من كل الأشغال المتواضعة

التي تعاطاها، ولعله كان الندم لترك السيدة «لايبوفيتش» دون أخبار، وعلى كل حال فإن شيئاً ما حداه إلى الرغبة في اجتياز الحدود ثانية في الاتجاه المعاكس. وقد نفّذ ما أراد، فقصدها بأوراقه المكسيكية، دون تأشيرة.

*

لم يكن حارس الحدود جلفاً من أولئك الأجلاف الذين يشاهدون في السينما وهم يصوّبون أسلحتهم إلى المتهرّبين من القانون كما تصوّب إلى الطيور المهاجرة. كان الاسترخاء المقرف الذي يفيض على حزامه المصنوع من جلد رخيص يضفي عليه مسحة من البساطة. تقدم منه «كيل» مترجلاً، في أحد المراكز التي كانت تسدّ طريقاً ممتدة. وهناك، أمام الحارس الذي كان يفتح زجاجة جعة، قدّم نفسه على أنه مواطن أمريكي، وطلب العودة إلى وطنه. اعتبر الرجل المسألة على قدر من الأهمية يدعوه إلى أن يضع القارورة وقد كان الزبد يخرج منها بغزارة. وقف، وغادر مركزه، وطاف به واقتاد «كيل» بأدب جم إلى بناية أبعد، حيث كان يبدو على الأشخاص المستجوَبين أنهم غارقون في لجّ من الأكاذيب. أجلس «كيل» في مواجهته، على مسافة هي من القرب منه بحيث كانت رائحته التمساحية تمارس عدوانها على حاسة شم الفتى.

– قلت لي، يا ولدي، إنك أمريكي، ولا مانع عندي من تصديقك. ولكنك تعلم أن هذه الحجة من الضعف بحيث لا نستطيع بناء عليها أن نسمح لك بالمرور. وعلى كل حال، فمزيتك أنك لم تلجأ إلى التزوير. هل لك وسيلة تثبت لي بها جنسيتك؟

أجاب «كيل»:

– كلا، فقد سُرِقت مني أوراقي عند وصولي إلى «المكسيك»، وكل ما أملكه هو أوراق مكسيكية! ولكي أكون صادقاً معك، فهي أوراق مزورة.

– ولكني لا أشك في أنك ولد صادق. فإن كنتَ أمريكياً حقاً، فهناك

وسائل قانونية يثبت بها المرء جنسيته.

– المشكلة هي أنني في عداد المفقودين.

– ماذا يعني ذلك؟

– يفترض أنني ميت.

– ميت؟

– نعم، في البرجين، يوم 11 سبتمبر 2001.

مسح الحارس على شاربه وابتسم جذلاً وقال:

– باختصار، أنت على نحو ما شبح. الفكرة غير مبتذلة. ولكن لك أسرة من غير شك، أليس كذلك؟

– كلا، لا أب ولا أم. لدي عمّتان. واحدة أمقتها، والأخرى أحَبّ إليّ من أن أجازف بتعريضها لسكتة قلبية إذا علمتْ أنني لم أمت. وهي مجازفة حقيقية؛ لأنها بدينة جدّاً جدّاً، ولها قلب لن يتحمل الصدمة. أعرف أيضاً امرأة بإمكانها أن تعرّف بي، ولكنني لا أدري إن كانت ما تزال على قيد الحياة. وإذا كانت من الأحياء فلست واثقاً من أنها ترغب في رؤيتي. وهي أيضاً بدينه جدّاً.

– يبدو لي كل هذا معقداً، يا بني. فلنبسّط الأمور إذاً. إن انطلقنا مثلاً من فرضية أنك تبدو مكسيكياً أكثر مما تبدو أمريكياً أصيلاً، أقصد من أصل أبيض، وأنك ترغب في الاستقرار بالولايات المتحدة، وأنك لا تملك الأوراق التي تمكّنك من تحقيق حلمك، فأنا على استعداد لأعرّفك بشخص بإمكانه أن يحل مشكلتك.

أجاب «كيل»:

– أنتَ ودود جدّاً يا سيدي، ولكن ليس لدي نقود.

– من حدّثك عن النقود؟ اليوم، تسمح لنا ملابسات تاريخية بالتحقق من إرادة الاندماج لدى طالبي الهجرة. يمكنني أن أعرّفك برقيب مجنِّد من جيش الولايات المتحدة. وإن وقّعت على الذهاب للحرب في العراق، ستسلّم

لك بطاقتك الخضراء عند عودتك. وهذا طبعاً أفضل للمرء من أن يكون مجبراً على أن يقف عند ترّهات لا أصل لها. فأفضل ما نصنعه بشخص عائد من 11 سبتمبر هو أن نقتاده إلى مستشفى للأمراض النفسية، أليس كذلك؟

قطع حديثه، ثم أردف:

– غير أنه توجد فرضيات أخرى. فربما كنتَ أمريكياً حقيقياً فاراً من مشاكل مع العدالة. دعني أنظر إليك. أي نوع من أنواع المشاكل يمكن أن تكون لشاب مثلك مع العدالة؟ المخدرات؟ بصدق لا أعتقد ذلك. ولا السطو المسلح. وجهك ملائكي. ولكنني، كما ترى، مسيحي حقيقي، أومن بأن الإنسان يمكن أن يكفّر عن أعظم سيّئاته. فأولئك الناس الذين آذيتَهم، وذلك المجتمع الذي أسأتَ إليه، لستُ أدري كيف، تفتح اليوم لك الباب حتى تغير ما بنفسك. أتراك تعرف بلدانا فاسدة كثيرة تسمح للمذنبين بأن يسددوا ديونهم إلى المجتمع؟ أما أنا فلم أسمع بأي بلد يهب مواطنيه مثل هذه الفرص. ما أقترحه عليك اليوم، يا ولدي، إن كانت «أمريكا» بلدك، هو أن تدخلها مرفوع الرأس، وإن لم تكن بلدك فهو أن تثبت أنك تستطيع أن تصبح مواطناً صالحاً. فالشخص التافه الذي يتلبّسك اليوم يمكنه بعد بضعة شهور أن يطأ التراب الأمريكي ناظراً إلى شيء آخر غير أطراف حذائه. أما الآن، فكما أراك، لن تكون أبداً إلا متسولاً.

نظر إليه «كيل» خافضا بصره، وقال:

– لقد اقترفتُ ذنوبا، يا سيدي، لست على يقين من أنها ذاتَ يوم ستُغفَر لي. ولكنها ليست من الكثرة بحيث أمحوها بقتل أناس آخرين لا أعرفهم ولن تتاح لي فرصة معرفتهم مبدئياً، لأنني سأقتلهم. يبدو لي أن القتل ينطوي على كثير من العيوب، ولكن أقل تقريباً من مجازفة المرء بحياته. وأنا شديد التعلق بحياتي.

– ولكن كيف يمكننا أن نكون متعلقين بحياة زهيدة القيمة كحياتك، يا

ولدي؟ حين يكلّلك المجدُ وأنت تعود من العراق، يحقّ لك أن تقول إنك متعلق بالحياة؛ لأن تلك الحياة ستكون ذات قيمة. أما اليوم، فلا شيء يبيح لك أن تقول هذا. ومن ثم، فإنك المرشّحُ المثالي لهذا التجنيد، يمكنك أن تخاطر بحياتك البائسة من أجل بلاد تستحق تلك المخاطرة إذ أنها تساعدك أخوياً على أن تكفر عن أخطائك.

- أشكرك من كل قلبي، ولكنني أعتقد أنني سأحتفظ بجنسيتي المكسيكية، وإن واجهتني معها بعض المشاكل.

-الأمر لك. اعلمْ أنني قادر على أن أسبب لك مضايقات لمحاولتك اجتياز الحدود بطريقة غير مشروعة. وفوق هذا، فإن رفضك سيكلفني أموالاً؛ لأن لي صفقة مع الرقيب المجنِّد. إذ أنّ لي نسبة من الأرباح على كل مجند جديد... لن يلومني على ذلك أحد، فمعاشي سيكون هزيلاً، ولا أتمتع بتغطية طبية تكميلية.

ثم ابتسم، مسلماً بالقضاء، وقال:

- ولكن تلك هي الحياة، لا يمكننا أن نكسب كل يوم.

عاد «كيل» إلى عمله في مجال الفندقة. في المركّب الفندقي الذي يأتيه «سَيْلُ الضجرين» بعبارة «بيكيت» ليلتقط صوراً من بلد يُعرَض للبيع في كل منعطف. إن عيب زيارة موقع كنا قد رأيناه مائة مرة في أشرطة وثائقية، هو أن إطاره لا يبقى مضبوطاً بالطريقة نفسها. فمن الأسهل على الكاميرا أن تنحرف عن كدس من القذارة حول كنيسة عتيقة. وبعد أن عمل في خدمة أولئك الزبائن التافهين في فنادق سيئة السمعة، ارتقى بعد بضع سنوات، بفضل خصاله المهنية، إلى دوائر أكثر نخبوية، حيث يتجمع المحظوظون الذين يشعرون في كل مكان بأنهم في بيوتهم، بعدما قلّصوا العالم، وأحاطوه بأسلاك شائكة من ذهب. ما كان ليسافر أبداً إلى المغرب، الذي لم يكن قادراً على تحديد موقعه على الخارطة، لولا أنه استرق السمع، ذات يوم، إلى محاورة بين اثنين من

مواطني ذلك البلد كانا يقضيان إقامة فاخرة حدّاً في فندق خمس النجوم الذي كان يشتغل فيه بـ«بونتا كانا». كان أحدهما يقول للآخر: «أتعلم، إن حكاية 11 سبتمبر هذه لغريبة حقاً، إذ يبدو أن اليهود العاملين في البرجين، لم يذهب أحد منهم للعمل في ذلك اليوم، كما لو أن الموساد حذّرهم من ذلك. لا أقصد أن للموساد ضلعاً في الحادث، ولكن، على كل حال، يبدو أنهم كانوا على علم». لم يكن من عادة «كيل» أن يتدخل في محادثات الزبائن الذين دفعوا غالياً جدّاً الحقّ في أن يقولوا بحرية ما يخطر ببالهم، ولكنه لم يستطع أن يمتنع عن أن يلفت انتباههما إلى ما في كلامهما من عدم دقة.

– اسمحا لي أيها السيدان، وإنني لآسِف حقاً للتدخل في محاورتكما، لا يحق لكما أن تقولا كلاماً من هذا القبيل. فأنا شخصياً فقدتُ صديقين يهوديين في البرجين. لقد كنت في «نيويورك» في ذلك اليوم».

التفتا إليه، مرتابَيْن.

– وما الدليل على أنهما لم يستغلا الوضع ليموتا ويغيرا حالتهما المدنية؟

رد «كيل»:

– أعتقد أن هذا بعيد الاحتمال شيئاً ما. فليس كل اليهود راغبين في التملص من ديونهم.

– أنت محقّ. وفوق هذا، فليس بيننا وبين اليهود شيء. وحين كانت «أوروبا» كلها تعاديهم، أمّنَ لهم مِلكُنا الحماية.

لم يكن ذانك الرجلان ماكرين ولا شريرين. ولكن كمليارات الكائنات البشرية، كان لهما، بكل بساطة، عاداتُهما.

تحدث الرجال الثلاثة معا عن ذلك اليوم المشؤوم. كان الزبونان متعطشين إلى التفاصيل التي كان «كيل» عاجزاً عن إعطائهما إياها، إذ كلما زاد اقتراب المرء من المنصة، قلت رؤيته المشهد، مهما كانت درجة فظاعته. وبمرور الأيام، تعاطفا مع الشاب. وبما أنهما كانا يملكان فندقاً كبيراً في إحدى المدن الملكية،

ونظرا إلى ما يتصف به «كيل» من حرفية، فقد عرضا عليه أن يسافر هناك للعمل. فوافق.

ظل بضع سنوات في ذلك البلد، وطاب له العيش فيه. تأقلم بسرعة مع تلك الطريقة التي يتوخاها الناس في اتباع حركات السفينة عند اضطراب الموج، دون أن ينفصلوا عن ابتسامتهم.

ومنذ ذلك الوقت اختفى «كيل» تماماً. لن يكون أبداً، كغيره، شخصية مرموقة وَسَمتْ عصرها بميسمها. لم يبق منه إلا صورة يَظهَر فيها على نحو عَرَضيّ على حافة مسبح الفندق الذي كان يعمل فيه. كان يتحدث مع رجل أمن يمسح جبينه، في عز الظهيرة، أمام جدار فناء. والصورة، بطبيعة الحال، لا تثبت ما كانا يقولانه. ومن جهة أخرى فإن الصورة التُقِطَتْ لهما على نحو لا إرادي، بما أن الشخص المستهدف كان سائحة تمسك كتاباً لا يمكن أن يُقرَأ عنوانُه. يعبّر وجه الزبونة عن غاية الضجر. التقَطَ الصورةَ ممثّلٌ مسرحي هو نفسه موضوع الكتاب، بالضبط قبيل أن يرتبط بتلك المرأة. وَضَعَ الصورة على المكتبة. الشتاءات باردة في شمال إفريقيا، خلافاً لما يُعتقَد. الرطوبة تسود شاطئ البحر، والبيوت قلما تتوفر فيها التدفئة. لذلك، انطوت الصورة على نفسها، كما لو أنها كانت تريد أن تختفي.

# فيتامينات الشمس

يوم أمس وقع الاعتداء الأخير. كان الموقع الذي حصل فيه الانفجار بعيداً عن نوافذي بعداً يمنعني من أن أراه، وقريباً قرباً يسمح لي بأن أسمعه. وقف الرجل أمام مركز ثقافي أجنبي كان مغلقاً في تلك الساعة. استوقف إحدى المارات، وكانت امرأةً محجّبة ترتدي جلباباً بنفسجياً طويلاً، وطرح عليها أسئلة كثيرة تتصل برأيها في قضايا شتى، دون أن يولي أجوبتها اهتماماً خاصاً. ثم نأى عنها، كما لو أنه، بتعفّف غير متوقّع، أراد أن يخلّص نفسه من نظراتها. وفي تلك اللحظة، وحيداً في مواجهة ذلك المبنى وما يرمز له، فجّر نفسه بقنبلة ضعيفة المفعول إلى حدّ ما، بحيث إنها لم تُلحِق ضرراً إلا به. اشتغل الحزامُ الناسف بفاعلية منشار كهربائي، فقطع الرجلَ من وسطه. تطايرت رجلاه الكاملتان في اتجاه، وارتمى جذعه في الاتجاه الآخر. وبتلك الأعضاء المتناثرة، وضع الرجل حداً لسلسلة من الاعتداءات الغريبة. هؤلاء الانتحاريون– الذين كانوا يجدون عنتاً في جر رجال آخرين إلى الموت، كما لو أن أحداً لم يكن يفهم جيدا سبب تضحيتهم– كانوا أصيلي الأحياء الشعبية. كان يأسُهم الذي جُبِل في الظلّ يقودهم بالتأكيد أكثر مما تقودهم قناعاتهم الدينية.

قبل أربع سنوات على ذلك الحدث، سبّبت عصابة من الصعاليك المنوَّمين مغناطيسياً خسائرَ أكبر حين دمّرت استقبال أحد الفنادق، ونادياً يهودياً مهجوراً، ومطعماً كنتُ كثيرَ التردّد عليه. كانت تلك الحوادث الأخيرة قد جَعَلتِ السهراتِ كئيبةً، إذ أصبح الناس ينعزلون في بيوتهم، ويتجنبون الخروج. ومع ذلك، فلم أجد ما يقنعني بمغادرة بلدي.

انسحبتُ إلى الجنوب أياماً، ريثما تتبدد الضجة والخوف في كآبة حياة يومية يرجو كل شخص أن يوفر له شغلُه فيها شيئاً من الثراء، في الوقت الذي لا تتحسّن فيه أسسُ توزيع الثروة. قسم من الناس، وهم قلّة، «يحمدون الله»

على هذا، وقسم، هم الأكثرية، يرَوْن أن «تلك إرادة الله».

لم تعترضني أي صعوبة في حجز غرفة في فندق بالمدينة الملكية[1]. وحين ساومت في الثمن، لم أنل إلا تخفيضاً رمزياً. والعادة أن الاعتداءات تفعل في السياح فعل طلقة بندقية الصيد في سرب من الزرازير. ولكن في تلك المرة لم يكن الأمرُ أو لم يَعُدْ على ذلك النحو. عدلتُ عن ركوب الطريق؛ نظراً لشدة خطورتها. ففيها يجازف الإنسان بحياته دون مسوّغ، على غرار ما يحدث في سائر البلدان التي يمتزج فيها اليقين بوجود آخرة مع عدم نضوج مدني فظ. وذات يوم لم أجد فيه بدّاً من استخدام سيّارتي أوقفني شرطي؛ لأنني تجاوزت السرعة بكيلومترين في الساعة. طلب مني أوراقي، ودار بالمركبة دورتين، ثم أصدر حكمَه وهو يُبْدي الأسف، قائلاً: «أربعمائة». كنت أعلم حق العلم أن المخالفة لا أصل لها، فطلبت منه، مبتسماً، إن كان يجوز لي أن أساوم. تظاهر بالتردد، ثم أجاب: «أربعمائة مع محضر، أو ما تجود به دون محضر». وهبتُه مائتين. فاكفهرّ وجهُه وحسم المسألة دون أن ينظر إلي، قائلاً: «هذا أكثر مما ينبغي. هات عشرين».

لذلك استقللتُ القطار هذه المرة. كان مليئاً ولكنه لم يكن مكتظاً. اتخذت مقعداً قرب النافذة، سعيداً بما قد تحمله هذه الرحلة في مقصورة موروثة من حقبة غابرة. ورغم أن الرحلة لا تستغرق مبدئياً إلا ثلاث ساعات، فقد أخذت معي عدداً من الكتب، خشية أن أقتصر منها على واحد، فيصطدم مني بنزوة مفاجئة: أخذت كتاباً لـ«جون فانت»، وآخر لـ«بيكيت»، و«من جهة بيت سوان» لـ«بروست». كلّ عشر سنوات، أعيد قراءة «بحثاً عن الزمن الضائع». لا أعرف لذلك تفسيراً. إنه ضرب من الرياضة.

ركبتِ المقصورةَ التي كنتُ فيها ثلاثُ حسناوات. أدركتُ على الفور أنهن،

(1) المدينة الملكية أو الأمبراطورية: اسم يطلق على أربع مدن مغربية هي مكناس ومراكش وفاس والرباط. (المترجم).

كعدد من أبناء جيلهن، يشتغلن في العاصمة الاقتصادية شغلاً يوفر لهن بشقّ الأنفس ما يحفظن به رمقهن، وأنهن ينشطن من عقالهن في نهاية الأسبوع طمعاً في المغامرة. وفي الغالب فإن مأواهن في المدينة الملكية يوفره لهن أحد الأقارب الأباعد. وهناك كن يتسكعن بحثاً عن رجل قد يطلق لأحلامهن العنان.

أحياناً كن يقعن على أحد أثرياء الشمال ممن يبحث عن غزوات. وأحياناً أخرى كن يقعن على أحد هؤلاء الأوروبيّين الذين يتصوّرون أن عيون تلكم النساء تنبهر أمام سحرهم الذي لا يحظى من نساء بلدانهم، ظلماً وعدواناً، بما يستحق. وربما اختطف أحدهم غادة ونقلها إلى ما وراء الحدود. الأمر نادر إلى حدّ ما، ولكن يكفي أن يحدث ذلك مرة من حولك حتى يعزز فيك الآمال.

البنات الثلاث سمراوات. ألقيْن عليّ نظرات ماكرة لا يملك سرَّها إلا نساء هذه الضفة من البحر الأبيض المتوسط، وابتسمن باستفزاز. ثم استخرجن موادَّ زينتهن، وكما تفعل الصغيرات اللائي سرقن عِدَّةَ زينةِ أمهاتهن، أخذن يجرّبن كلّ توليفات بودرة الوجه وأحمر الشفاه، غير مدركات للون بشرتهن اللماع. حاد نظري عن كتاب «بيكيت» الذي كان أوّلَ ما وقعت يداي عليه. كان حظهن من الجمال متفاوتا. إحداهن رقيقة. يبدو أنها أكثرهن حياء. الثانية، وهي شهوانية أكثر مما ينبغي، تبدو كما لو أنها خرجت من لوحة استشراقية من الحقبة الأكثر تطوراً. أما الثالثة فهي، وإن أعوزتها الملامح الرقيقة التي تتمتع بها الأولى، ذاتُ قوام ممشوق. تلكّأن في بدء الحوار. تردّدتُ لحظات. «مالون تقضي نحبها»[1] كتاب حزين كالمشاهد الطبيعية التي تتتابع. إن خشونة هذه الطبيعة الخالية من الماء تعكس انطباعَ الخواء العام الذي أغراني بالقدوم. أما في كتاب «مالون»، فعلى عكس ذلك، لا يتجلى أي خواء، وإنما يسود الإحساسُ بالقسوة. إن المجهود الذي تتطلبه قراءة هذا الكتاب لا يتلاءم والظروف.

---

(1) هي رواية لـ«صامويل بيكيت» نشرها سنة 1951 (المترجم).

تنازلتُ، وألقيت نظرة على كتاب «بروست»، وهو ليس بأكثر ملاءمة للإطار من سابقه، قبل أن أصرف نظري إلى كتاب «فانت» الذي لا تحتاج قراءته إلى كبير تركيز. ولكن، بعد فوات الأوان، فقد استشعرتِ الفتياتُ أن الواقع وما يتيحه من ضروب الإغراء قد تغلّب عندي على التخييل: ليس من الأدب في شيء ألا أنخرط في محادثة معهن. بدأتُ بابتسامة أتبعتُها ببضع كلمات بالعربية. أحاول طبعا أن أستخدم عبارات تحيل على الله. إنهن يحببن الفرنسيين الذين يعيشون هنا. أقل مما لو كانوا من سلالة المعمّرين، إذ ليس لهؤلاء ما للمسافرين العاديين، من انطواء، ومن اعتدال هو مزيج من الحياء والارتباك والارتياب، رغم أن ما يربط بين الصنفين، أساساً، هو ذلك الشعور بالاستعلاء الذي لا يملكون إخفاءه. وهن لا يحببن المتعاقدين الذين لا يرون في البلاد إلا عيوبَها، وينفقون أوقاتهم في التعجب من ذوي الفقر المدقع ومن ذوي الثراء الفاحش، ولكنهم حين يشغّلون خادمة يضعون قفلاً على الثلاجة؛ لمنعها من أن تأكل مما فيه بشراهة. لم يذهب بنا الحوار بعيداً؛ لأن معرفتي باللغة العربية متواضعة، ولأن فرنسيّتهنّ كالدرب الذي يكتظّ بالصخور الجلاميد. لقد كنتُ منذ عهد بعيد أجدُ يُسْراً في تعلّم اللغات. فأذني الموسيقية تساعدني على التقاط نبرات أهل اللغة الأصليين. ولكن، ما إن نتجاوز الكلمات الأولى حتى تنكشف الخدعة. والحق أنني لا أعرف إلا صيغَ المجاملة وبعضَ عباراتِ التعجّب المفيدة. ذاك شأني بالنسبة إلى ما يربو على عشر لغات. وليست العربيةُ الدارجةُ استثناءً في هذا السياق. وهنا إذا أردنا أن نتفاهم، نلتجئ إلى الحركات اليدوية، وطبعاً يعترينا الكلال. سألنني في أي فندق أنزل. أثار جوابي لديهن استياء: لن يُسمَح لهن أبداً بالدخول إن لم يدفعن ثمن غرفة ثانية ولا شيء يدلّ على أنني مستعدّ للدفع. تلاشت الدردشة. استأنفتُ قراءة كتاب «جون فانت». تواصلتِ الغمزاتُ على نحو تلقائي. وجدتُ شيئاً من العسر في التركيز، ثم وقعتُ على هذه الجملة: «لستُ شرّيراً، أنا أحب البشر والحيوانات على السواء». أرْدِفَتْ

بـ«لا يمكن للمرء أن يجمع بين كونه شريراً وكاتباً نحريراً». هذا التأكيد الأخير لغز. إنه جدير بالتأمل.

لست كاتباً وإنما أنا مؤلف مسرحي. الفرق؟ أقول دون تردد...لا أدري. شخصياً أحب كتابة الحوارات، وهذا لا يمنع من كتابة الصمت بين الحوارات، ولكنني لا أجد أي متعة في كل تلك التحولات التي تفرضها الرواية. ولهذا السبب لم أكتب رواية أبداً. أضِفْ إلى ذلك مسألةَ المال. من المتعيّن أن نتحدث عنه، وإن كان التقليدُ الفرنسيُّ يقتضي من المرء أن يختص نفسَه بالنصيب الأقصى منه دون أن يأتي على ذكره. أنا أكسب عيشي جيداً. أقدّم لكم خالص الاعتذار إن بدا لكم إقراري بذلك بذيئاً. تصلني أرقام أرباحي كل ليلة. وبشيء قليل من النجاح، فإن أقلّ العروض الحية يمكن يمكّن صاحبَه من أن يكسب عيشه. لا أتدخّل أبداً في وسائل الإعلام، ولا أشارك في الحملات الدعائية المكثفة، وهذا امتياز كبير على أيامنا. عرفتُ النجاح قبل خمس عشرة سنة، بفضل مسرحية راجت بسرعة الوباء. جاءني الاعتراف من إعادة عرضها غير المتوقعة في «برودواي»، وقد تلا ذلك عدد مذهل من العروض في «لندن». وقبل تلك المسرحية الرائجةِ جماهيرياً لم اكتب إلا كوارث. وبعدها، الشيء نفسه. وفي الفترة الأخيرة استعدْتُ، على استحياء، شيئاً من إعجاب النقاد والجمهور.

توقف القطار. وبعد انقضاء ربع ساعة، أطللتُ من النافذة محاولاً رؤية السبب الذي أدى إلى ذلك التوقف. المشهد متّسع الأرجاء، الأرض حمراء تنبئ بجدبها. بين سائق القطار وأحدِ الرعاة نقاش حامي الوطيس. لقد قضى القطار على القطيع الذي كان يرعى العشيبات الصغيرة النابتة بين العوارض. كانت عينا الراعي منطفئتين بسبب تلك المصيبة. لقد أفلس. حاول السائق أن يقنعه بأن الديوان الوطني سيعوّض له خسائره. ولكن الرجل لا يصدق. تربع على الأرض المحصبة، رفع قلنسوتَهُ وراح يتأمل المأساة. هدر القطار ليستأنف

طريقه، تاركاً الراعي في جلسته تلك، محاطاً بخرفان ميّتة يتشرّب صوفُها الدمَ كما لو كان جفّافاً.

*

ما إن وصلتُ إلى المدينة الملكية، على متن سيارة أجرة، حتى بادرتُ إلى نُطْق بضع كلمات بالعربية حتى لا أعامَل بوصفي سائحاً. تمتدّ المدينة إلى ما لا نهاية له، وفي كل قطعة أرض حظيرةُ بناء. لا يتوقف البناء لصالح أجانبَ يشترون على هذا النحو الفولكلور والدفء وأحياناً الجنس الرخيص.

الفندق عادي. هو الفندق نفسه الذي أنزل فيه منذ أكثر من عشر سنوات. أعرف فنادق أخرى أكثر راحة وأغلى ثمناً بكثير ولكني لا أعرف فندقاً مناسباً مثله وبالسعر نفسه. ثم إن ما يختص به هذا الفندق دون غيره من الفنادق، هو أن الفولكلور فيه مخيّب للظن شيئاً ما، وهذه علامة دالة على أنه يستهدف زبائن يعرفون البلد معرفة جيدة. أعطَوْني غرفة في الطابق المطل على الحديقة. خطر ببالي، وأنا أنظر إلى تلك النخلات، وَصْفُ «فانت» لنخلات «لوس أنجلس» إذ قال: «هذه النخلات التي يخنقها الرمل والنفط والأوساخ، هذه النخلات الشديدة التفاهة التي تنتصب هنا كأنها مساجين محتضرون، مكبّلون إلى قطعة الأرض الصغيرة التي ينشدّون إليها، وأرجلهم في القطران». أما النخلات التي تسدّ أفقي فتبدو أكثر بهجة بكثير. ثم تعود تلك الجملة التي تثيرني: «لا يمكن للمرء أن يجمع بين كونه شريراً وكاتباً نحريراً». ولكن، يا ترى، أنّى للمرء أن يكون كاتباً نحريراً إن هو أقصى نفسه عن الإنسانية؟ إن نخلاتي أسلم– وإن كانت مزدرعة، دون شك –، غير أنها لا تبدو مرهقة كتلك النخلات التي تنتشر على طول الشوارع الفسيحة في المدينة التي جئتُ منها، أشبه ما تكون بالخدم المكلفين بحجب فظاعة الهواء.

يقتضي النوم في الفندق أن يُسلِمَ المرءُ قيادَه إلى غيره، وأن يرخي العنان

على نحو ما، بابتهاج بالنسبة إلى البعض، وباحتراز بالنسبة إلى البعض الآخر. أخشى أن يعيدني السأم الذي أشعر به في هذا المكان إلى معضلة حياتي: الوحدة التي تضيّق عليّ الخناق ولكن لا غنى لي عنها. إن مجرد احتمال أن أتعشّى وحدي، سواء في مطعم الفندق أو في المدينة أو في غرفتي أمر لا أطيقه. غير أن الوقت تأخر بدرجة لم تعد تسمح بالخروج، اللهم إلا للذهاب إلى أحد تلك المواضع العصرية، بصبغتها الأرجوانية التي لا مفر منها وبمقاعدِها الواطئة التي تضغط على مَعِدَاتِ الزبائن. هنالك، يُقدَّم أي شيء طعاماً، في حين أن السمع، وهو آخر حواسنا، تعتدي عليه ألوان من الموسيقى التقليدية التافهة، تلفّق لـ«سمّار الليالي» الذين يستغلون الظلام للمّ شتات تناقضاتهم. كما أحب الذهاب إلى أماكن وضيعة تماماً؛ لأن الناس الذين نلتقيهم فيها أكثر احتراماً لبؤسهم. خدّرَني أملُ العثور على تلك النوعية، فتناولت عشائي في المطعم، وحيداً مع «بروست». ومن وراء كتابي كنت ألاحظ.

يواجهني زوجان. هو مقدّم برامج تلفزيونية فرنسي ينضح انفعالاً، وهي زوجته. ولكنهما كانا هامدين، خلافاً للشمعة التي كانت تضيء جزءاً من وجهيهما. لا يتحدثان ولا ينظر أحدهما إلى الآخر. كانت الخيبة ترشح من كل حركة يأتيانها. خضع وجهُها لعملية تجميل. شفتاها متورّمتان، متصلّبتان. كأنهما شفتا «دونالد دوك»[1] لحظة الانتقال إلى الشريط الملون. بشرتها مشدودة كجلدة الدفّ. ربما كانت تريد أن تستعيد شبابها، ولكنها حين شَدّتْ بشرتها، انصهرت في مجموعة النساء اللاتي يعسر تحديد سنهن فيبدون عجائز. ترى لم بذلتْ كل تلك الجهود إن كان زوجها لا يعيرها ولو نظرة. وهو نفسه منطو، حزين حزناً يستدرّ الدمع. هذا المصرّف للكلمات الخالية من المعنى التي تتقاطر عليه أرسالاً يُذهِله صمتُه. كان بإمكاني في تلك اللحظة أن أهنئ نفسي؛ لأنني

(1) «دونالد دوك» (Donald Duck) هو شخصية تخييلية من شخصيات الأفلام الكرتونية تتخذ صورة بطة ترتدي بدلة بحرية (المترجم).

لا يعرفني أحد ولا يعترف بي أحد، ولكن مثل هذه البساطة لا تليق بي. تتحول عيناي بلطف إلى منضدة يجلس حولها ثلاثة ضيوف، كأن على رؤوسهم الطير. لا أحد منهم يتحرك. إنهم يخشَوْن العذاب. وجوههم قانية. انتهى يومهم الأول في تلال الجنوب الممتدّ بهم إلى حقيقة: إنهم لم يقدّروا شمس إفريقيا الشمالية حقّ قدرها. لقد سعَوْا إليها، وجاؤوا إلى هذا المكان من أجلها، لا شك في ذلك، توّاقين إلى الرفع من قدرتهم على الإغراء. لقد أعدّوا أنفسهم للعذاب، ولكن ليس بهذا القدر فيما يبدو.

حين عدتُ إلى غرفتي تنفستُ الصعداء؛ لوجودي بمفردي، ولكني لم ألبث أن وجدتني مطوّقاً بقلق الوحدة. تأملتُ صورتي في مرآة بيت الحمام كما لو أن شخصاً آخر فيّ سيقرر كيف أقضي بقية السهرة. ومع ذلك، فلم يكن هناك أدنى شك في أنني سأخرج. إن الوجه الذي أراه دون موضوعية هو وجه رجل تافه. كان «نيتشة» يقول: «أكره النفوسَ التافهة، فليس فيها شيء حسن، والأدهى من ذلك أنه ليس فيها أشياء قبيحة ذات بال».

تجاوزت الخمسين، ولكن علامات السن لا تبدو آثارها واضحة على وجهي. والسبب في ذلك بسيط: فهي جلية إلا أنها على شيء من الندرة، وبناء على ذلك، فإن سماتها لا تدركها العين لحسن حظي من أول وهلة. تُوفِّر المدينةُ الملكيةُ أماكنَ للقاءات لا تُعدّ ولا تُحصى. فضاءات فسيحة يسيل فيها الشراب أنهاراً، وحلبات رقص كبيرةٌ يلوي فيها أوروبيون برعونةٍ أجسادَهم المنهكة. جيناتُهم خالية من الإيقاع. علبة الليل الأولى خاوية. ليس فيها إلا مجموعة صغيرة، ربما جاؤوا إلى هذا المكان؛ لإنهاء يوم دراسي تنظمه المؤسسة، وهم يتراقصون آملين أن تسمح لهم هذه التجربة القريبة من تخوم الشبق، حين يعودون إلى مكاتبهم، بتخفيف علاقات التراتبية والتنافس. اتجهتُ إلى مكان آخر. لا يختلف الجو فيه عن سابقه. ولكن الجماعة هنا ليسوا طائفة من التجاريين الذين تشغلهم شركة صيدلة، وإنما

هم زبائن وكالة سفر كبيرة أسعارها لا تقبل المنافسة.

البنات الجالسات إلى الحانة يتفحصنهنّ بمرارة. لا لأنهم يجسدون الذوق السيئ في أكمل صوره، ولكن لأنهن متأكدات من أن أي رجل لن ينفصل عن المجموعة؛ ليقوم بنزوة معهن. ولكن هذا لم يمنع هؤلاء الستّينيين الذين يرتدون قمصانا موحدة من أن يلقوا على الصغيرات نظرات شبقية. ونظراً إلى حرمانهن من أي فرصة حقيقية، فقد دنونَ مني. إنهن بنات هوى، ولكن الهوى ليس هواهن. فالحاجة هي التي تدفعهن إلى ذلك. هيأتهن التي شذّبها المنجل لم يلطّف منها لا عيونهن ولا لونهن وهو لون نساء أقصى الجنوب اللاتي دَفعتْ بهن الفاقةُ إلى الشمال. ومما يزيد دعارتهن بؤساً أنهن لا يملكن غيرها وسيلة للبقاء. انتصبت أصغرهن أمامي، حين كنت، مرتفقاً البار، أدخن السيجارة تلو الأخرى. إن اعتُبِرَتْ بالغةً فالفضل في ذلك يعود إلى طيبة الرجل الطويل القامة الذي يقف في المدخل. وهو يفتح لها باب مؤسسته مقابل أن تدفع إليه مقدماً على مداخيل تبدو لها الليلة أكثر من مشكوك فيها. كانت في وضع لا تُحسَد عليه، وطريقتها في مفاتحتي بالكلام تنبئ عن ذلك. لم تفدني عربيتي في شيء في بداية حديثنا. فهي لا تتكلم لغة الفاتحين الذين جاؤوا منذ ما يقرب من خمسة عشر قرناً؛ ليُدخِلوا في الإسلام هؤلاء الساميين من أهل البلاد الأصليين. لم نجد شيئاً نقوله، فدخلتْ في صلب الموضوع: «خمسمائة». ابتسمتُ لها رافضاً عرضَها. ابتسمتْ بدورها، ابتسامة تطلّبتْ منها جهداً كبيراً. وقالت بفرنسية ثقيلة كأنها قاع واد لم يشهد الماء منذ عقد من الزمان: «مائتان». ثم، إما لأنها لا تعرف الأعداد دون المائتين وإما لأنها في عجلة من أمرها، انتقلت دون تخلّص إلى «بيتزا»، وهي تتضرّع إليّ بنظرة كأنها نظرة السيدة العذراء. صرفتُ عنها وجهي.

لم يسبق لي أن تزوّجتُ. ولم يسبق لي أبداً أن قاسمتُ امرأة حياتي. كانت علاقاتي كلها متقطعة متحفظة. راودتني فكرة الإقامة مع امرأة في هذا البلد. كانت توفر لي ما لم أجده عند أي امرأة غيرها إلى ذلك الوقت: برنامجاً يومياً

فارغاً، ولكنه مؤثث ومنظم. لم نكن نتقاسم إلا القليل، وكان ذلك رائعاً. كانت ميولنا تستر اختلافاتنا الجوهرية التي لا تظهر إلا بمرّ الزمن. ولكننا انفصلنا. رغم أن وجود امرأة بالقرب منك كان أمراً مريحاً للغاية. فقد كان ذلك يسمح لي بالتركيز على مواضيع أخرى كثيرة. في حين أن الإنسان إذا كان وحيداً لا شغل له إلا النساء.

كان «بيكيت» يقول: «وُلدتُ متجهماً كما وُلد غيري مصاباً بالزهري». الطقس الرديء متواطئ مع التجهم. لقد أقمتُ في هذا الجزء من الشمال الإفريقي؛ لأن الزرقة الدائمة لسمائه المعدنية تريحني. في هذا الصقع من العالم، الطقس جميل بصفاقة، كما لو أنه لم يكن رديئاً أبداً ولا يمكنه أن يكون كذلك. ولكن الطقس ليس كل شيء. فالإسلام أيضاً يسهم بقسط كبير في سكينة روحي حين يقطع الأيامَ بإيقاع صلواته. يعلن المؤذن عن الوقت داعياً المؤمنين إلى الصلاة، تستعذب أذني نداءه الساحر. ولكن انجذابي إلى هذه البلاد ما كان يكون له شأن لو لم أكن أترجّح من حين إلى آخر بين السخط، وبعد سويعات مثلاً بين الفتور المريح.

في الصباح استيقظتُ في غرفتي وبرأسي صداع. لقد شربتُ أكثر مما أتذكر. تلتْ ذلك فترةُ ندم قصيرة طلبتُ بعدها فطور الصباح. وسألتهم أن يأتوني بقهوة، وهو أمر لا أفعله إلا إذا كان ضرورياً حقاً، حين أكون محتاجاً إلى أن أستيقظ. ولكن ذلك يتطلب مقادير دقيقة جدا. وإن لم أحتس منها ما يكفي، فإن نهاري يسوء. وإن احتسيتُ أكثر مما ينبغي، فإنني أحيي أكداراً خفية، لا تلبث أن تشتد، تحت مفعول الشك الوجودي.

*

ذات صباح، منذ عهد غير بعيد، أعلمني أحد أصحابي أنه سينتحر. بدا لي أن حديثه عن ذلك خبر سار، وظننت أن ذلك دليل على أنه سيصرف نظره عما أزمع عليه. إنه لأمر لا يخلو من عسر أن تقدِّم براهينَ لصالح الحياة إلى شخص لا يذكر أنه أحس يوماً في حياته أنه يحب الحياة. إن غريزة حب البقاء لا علاقة

لها بما هو عقلاني. كل ما استطعتُ أن أبيّن له من عيوب هذا الصنيع، هو التشريح. وطلبتُ منه أنه يُنعِمَ النظرَ في ذلك الاغتصاب الذي يتم بعد الموت. وفي الأيام الموالية وضع حداً لحياته تماماً. وقبل ذلك طلب أن يُحرَق جثمانُه. أثناء صعودي درجات ذلك الهيكل الذي كانت تتتالى فيه كل نصف ساعة المرامدُ الجنائزية لأشخاص تخلّوا عن العودة إلى الأرض، لاحظتُ أن غراباً كان ينظر إلي. أعلم أن الغربان تنقل الأرواح، ولكن ليس في وسعي أن أقول لكم إلى أي وجهة.

منذ ما يربو على ثلاثين عاماً، في هذا البلد الذي أحدّثكم عنه، دُبِّرَ انقلابٌ على حاكم الدولة. قُتِل ما لا يقلّ عن مائة من المدعوين إلى حفل استقبال. قيل إن الملك أغلق على نفسه بابَ أحدِ الحمّامات ليفلت من المتآمرين. حُكِم على الضبّاط الشبّان الذين غَرَّر بهم رؤساؤهم بالموت البطيء، في سجن مدفون في جنوب البلاد، على تخوم الصحراء. وهناك تُرِكوا يتعفّنون بلا نور، ولا ماء ولا غذاء. قَضَى المعتقَلون نحبَهم واحداً إثر واحد. نجا من الموت حفنة منهم. أعرف أحدهم حدثني أنه كلما حان أجل أحد رفاقه كانت بومة تنعق في الليلة السابقة لموته. ذكرتُ لكم هذا؛ لأبيّن لكم أنني لا أعرف الطبيعة الدقيقة للعلاقات بين الغربان والبوم.

علينا أن نُقرّ بأن الإنسان حين يستيقظ صباحاً وسط النخيل، وليس له أحد ينشغل بأمره، لا خيراً ولا شراً، يحس كما لو أن لكمة أصابته في أم بطنه. استيقظتُ بفكرة توهن العزم هي أنني لن أترك حتى ذكرى سيئة للذين قد يعيشون بعدي. حياة قضيتها في السعي إلى التخفي حتى لا يتنبه إلي أهل زماني، ولم أترك وصية إلا بضع مسرحيات لا ترتقي حتى إلى مستوى الأثر. فالراجح أنني عشتُ عيشة البخلاء، ككثير من المحظوظين.

في هذا البلد الذي يندر فيه الماء يستخدمونه كما لو أنه يفيض عن الحاجة. مرشّةٌ ميكانيكية تدفق مطراً منتظماً على مرجة الفندق الخضراء المخضلّة.

يقولون لنا إن الماء سيعوزنا عما قريب، وأننا سنتقاتل للحصول عليه. شأن قصة النفط، ولكن على نحو أشد عنفاً. إن طبيعتنا الحقيقية ترفض التفكير في الوسائل التي تجنبنا نقص الماء. وقد يترتب على هذا أن نقسط وأن نقتصد. الحيوانات تستطيع أن تكبح نفسها، أما البشر فلا؛ لأن في ذلك تهديداً للسوق. فنحن لا نقبل أبداً أن نتراجع. وإن حدث أن نقص الماء، فإننا سنعرف دائماً كيف نحفز ذكاءنا لنستغني عنه. سنغتسل دون ماء، ونشرب دون ماء ونحوّر جسدنا جينياً حتى لا يحتاج إلى الماء. وستتغضّن كُلانا حتى تصبحا كخصيتي عجوز. إلى أن تضمحلا كما لو أننا لم تكن لنا أبداً كلى. ليس الأمر ممكنا اليوم، ولكنه سيغدو ممكنا لا محالة غداً. ومع ذلك فإنه من المحيّر أن نرى الإنسانية، مع ميول كهذه للبخل، لا تملك إلا ميولاً قليلة للتقسيط.

من شرفتي، أرى جوانب المسبح تأهَلُ. وكلما ارتفعَتِ الشمسُ في السماء، تقاطر الزبائن متباطئين غير مكترثين. يمكن أن نقرأ في مشيتهم رخاوةَ وضعٍ يلبّي انتظاراتهم. فالمكان والجهة والزمان لم تخيب مخيلاتهم. يبادر كل منهم إلى تحديد حيزه ببسط فوطته على رأس المقعد الطويل. في هذا المكان كما هو الحال في غيره، لا مكان للرحّل. يجذب الزبائن الشمسيات وينظرون من أين تأتي الشمس قبل أن يفتحوها. توضع النظارات الشمسية على الأنف وتعطي لابسَها شعوراً بأنه غُفْل. ثم يأتي وقت التصالح مع قوارير الزيت، تُدهَن بها الجلودُ بسخاء؛ لمواجهة الشمس. بين خطر الورم القتاميني والحاجة التي لا تقاوم إلى الإغراء، حَسموا كلُّهم أمرَهم.

*

لفّتِ امرأةٌ بحذر الجزءَ الأعلى من ثوب السباحة على طول صدرها ملتفتة حتى لا تكشف عن نهديها. تمدَّد رجل مقابل الشمس تماماً، وطلى جسمه بزيت المونوي، وبرجليه المنفرجتين قليلاً كان يبدو وكأنه يتحدى الشمس. تقترب امرأة أخرى من المسبح. لمشيتها من الإثارة ما لقلة حظها من الجمال.

عدد الأسر قليل، ربما؛ لأن الموسم ليس موسم أُسَر. سيفضي الموسم السياحي قريباً إلى هجير حقيقي، وحينئذ سيحوّل القيظُ كلَّ شيء إلى جهد وبالتالي إلى ضيق. أتابع هذه الرقصة الصباحية بفضول حارسة البناية التي ترى سكان عمارتها يترددون جيئة وذهوباً. أتفحص سطح المسبح طولاً وعرضاً، ملقيا نظرة خفيّة على النساء الوحيدات. أكثرهن جاذبية – وأقربهن منالاً لمن هو في سني –تطالع إحدى تلك المجلات التي لا تجدي نفعاً، والتي نرى فيها صورا لأشخاص لا يصلحون لشيء. اخترتُ في النهاية مقعداً طويلاً تحت مقصورة منزوية، قرب سور الفندق. رجلان من الأمن يقومان بأعمال الدورية على نحو خفي على طول الحائط. لا ينمّ وجهاهما عن قلق، بل أقصى ما يُرى فيهما المللُ من تلك الوقفة الطويلة الممتدة وجهاً لوجه مع الهجير، في بزة نظامية ولكن دون سلاح. منذ بضعة أشهر فُكِّكَتْ شبكة مهمة من السلفيين. ومن مشاريعها المشؤومة تحدَّث الناس عن اعتداء يستهدف هذا الفندق. كان ذلك باعثاً على الاطمئنان بالأحرى؛ لأن الإرهابيين لا يستهدفون مرتين مكاناً واحداً.

مع شمس كهذه الشمس تَعبُر ذهنَك أفكارٌ خرقاء. ليس من شك أبداً في أن الاستقرار في هذه الجهة من المسبح أشد خطورة. فلو وقع هجوم، لكان من المنطقي أن ينطلق من السور، وفي هذه الحالة سأكون من أوائل المصابين. هذه الفكرة تسحرني، لا لأنني يمكن أن أكون ضحية من ضحايا الإرهاب، بل لأن هذه الفرضية توقظ فيّ غريزة حب البقاء، تلك الغريزة التي وإن كانت لا تتلاشى أبداً بشكل تام، فإنها تملك نزوعاً مؤسفاً للإغفاء. ترددتُ في تغيير مكاني.

في نهاية المطاف، تمدّدتُ في الظل؛ لأطالع. وهنا قَدِمت امرأة. لم يكن يجمعها مع الغير شيء كثير. ربما كانت فرنسيةً تجاوزت الخمسين قليلاً – وإن كان البتُّ في الأمر عسيراً –، بشرتها في لون العنب الناضج، صفراء تميل إلى اللون الذهبي. ليس تكوينها البدني متماشياً مع المكان، فهو ليس من النوع الذي

يستجمّ في هذا الجو التافه. ما إن جلستْ دقيقة حتى أخرجتْ سيجارة، ثم جريدة يومية فرنسية جادة، تصفحتْها على عجل، ثم قامت لتعدّل الشمسية.

إنها حقاً الشخص الوحيد الذي لم يَهَبْ بشرتَه لإله الشمس. ثم استأنفتْ قراءة جريدتها. وبالنظر إلى عدد الصفحات التي طوتها أرجّح أنها تتهيأ لقراءة زاوية «المجتمع». ظلتْ بضع دقائق مشدودة إلى أحد المقالات ثم تصفحت البقية. وبعد أن طوت الجريدة، أعادتها إلى حقيبتها التي أخرجت منها أنبوبة مرهم شمسي، راسمة على شفتيها علامة عدم اكتراث. أطفأتْ سيجارتها التي احترق نصفها، وتمددت مربّعة ذراعيها، ساهمة. يبدو أن أفكارها جعلتها متجهمة، إذ عادت إلى حقيبتها لتخرج منها كتاباً. من بعيد، بدا لي الغلاف مألوفاً، ولكن من المستحيل عليّ أن أرى العنوان بوضوح. ولما كان اهتمامي بالغير عابراً عادة، فقد توقفتُ عن النظر إليها. بدأتُ أضيق بمقعدي، إذ أنني حقاً لا أعرف بم أشغل نفسي خارج الكتابة والقراءة. في الأثناء جلستْ بجانبي امرأة يافعة. لم أرها قادمة فثأرتْ لنفسها وأرسلت علي شواظ نظراتها حين تجرأتُ على إطالة النظر إليها. رسمتُ ابتسامة مجاملة؛ تجنبا للمعركة، كما يفعل الكلب وهو يستلقي على ظهره. وما إن أدارت وجهها حتى تأملتها بالتفصيل بكل الشراسة الممكنة فتبيّن لي أنها ليست على شيء كثير، وقد كان ذلك خطأ. فالأصح أنها لم تكن في متناولي. وهذا أمر لا يخلو من إهانة إذ لم يكن لديها شيء خارق للمألوف. تركتُ أغراضي حيث كنتُ، حتى لا تحدّثَ أحداً نفسُه بأخذ مكاني، وذهبتُ أتجوّل. طفت بالمسبح وتنزهت في الحدائق، التي يفترض أن تنتج عينة من الزهور تليق بحدائق عدن. في طريق العودة، طفت بالمسبح في اتجاه عقارب الساعة حتى ألقي نظرة على كتاب المرأة التي كنت أراقبها منذ حين. أراهن على أنه ليس من أدب الشواطئ. شققتُ طريقي، متخفياً خلف نظاراتي الشمسية التي تسمح لي بأن أَرى دون أن أُرى، واقتربتُ منها قرباً كافياً جعلني أرى على الغلاف السلسلة التي تنشر

مسرحياتي. أثار ذلك اهتمامي؛ لأن الناس الذين يقرأون مسرحيات على حافة مسبح في فندق ذي أربع نجوم ليسوا كثيرين.

ينبغي أن تكون هذه المرأة من أهل الاختصاص. ولعلها تدير مسرحاً. أثار عنوان المسرحية فضولي، وبإطلالة خفية أخيرة تمكنتُ من قراءته. ويا لعظيم دهشتي! حتى لا أقول ذهولي، حين وجدتُ أنها إحدى مسرحياتي، هي أقلها رواجاً، ولم تمثل إلا ثلاث مرات أو أربعاً دون أن تحقق نجاحاً. إن للصدفة لسحراً. فخلال ثلاثين سنة من الكتابة لم أكن أبداً قد التقيتُ مع مجهول يقرأ إحدى مسرحياتي. لو حصل هذا لغيري؛ لاندفع إلى القارئ، واقترح عليه أن يكتب له إهداء، أو قل، إنهما كان يمكن أن يتحاورا بحماس. أما رد فعلي، فقد كان، خلافاً لذلك، أن أبتعد، كما لو أنني كنتُ أخشى أن تكسفني تلك القارئة. للآثار أسرارها التي يحسن ألا نفسدها بمعرفة مؤلفيها. فليس من النادر أن يكون كبار الأدباء دون مستوى موهبتهم. ومن العسير أن نؤاخذهم على ذلك. أما إذا كان المؤلف وسطاً أو ضعيفاً فإن تدحرجه دون مستوى أثره ليس مآلا يُحسَد عليه. بهذا ندرك لماذا يعمد عدد من الكتاب والممثلين إلى الظهور بمظهر الطيبين. ولهذا السبب، أتجنب عادة أن يُربَط بين عملي وشخصي، إلا أن يكون ذلك في دائرة ضيقة. الشعور الذي ينتابني مزيج من الرضى؛ لأن الناس يقرأون ما أكتبه، ومن الانزعاج لأنني اكتُشِفْتُ. إن الشكوك الكبرى هي نصيبي اليومي، أما الشكوك الصغيرة فتغيظني. ومع ذلك، فإنني أود أن أعلم إن كانت تلك المرأة تعرف وجهي، ولي الخيار بعد ذلك في أن أتحاماها.

مررتُ أمامها مرة، مرتين، ثلاث مرات، يحدوني الأمل في أن ترتفع عيناها إلي. ولكنها كانت مستغرقة في مطالعة مسرحيتي إلى حد أنها لم تلتف عنها إلا لتلقي نظرة ساهمة على رجليّ البيضاوين المكسوتين بالشعر. عدتُ إلى مكاني. لم يَعُد اليوم كالأيام السالفة. لقد خرجت من التنكير دون أن أصبح شخصاً ذا بال. فهناك، غيرَ بعيد عني، هناك امرأة تقرأ إحدى مسرحياتي،

وحين ستأتي عليها، ستُصدِر لا محالة حكماً عليها، على الأقل فيما بينها وبين نفسها. أود ألا أُلقِيَ لحكمها اهتماماً. ولكنه يهمني، وهذا أمر بديهي. من بعيد، أحاول أن أستشفّ في وجهها تعبيراً ما، قرينة تدل على رضاها، لا أطمع في أكثر من ذلك. أنا لم أبعث أبداً أحداً على الضحك. والحق أنه لو أضحكتْ إحدى مسرحياتي مشاهداً أو قارئاً فلن يكون ذلك إلا نتيجة سوء فهم. وسوء الفهم هذا، كما يعرف جميع الناس، هو أساس النجاح. فإن وُفّق المؤلف في أن يستل على الأقل بسمة خفيفة لطيفة من قارئه المبتهج فإنه يكون قد نسج معه عِلاقة حميمية. أما هي فأقل ما يقال فيها أنها لا تضحك ولا تبتسم. يحدث أحياناً أن المشاكل الشخصية – من قبيل الحزن العابر أو الكآبة العميقة – تشغل القارئ بقدر يحول دونه ودون أن يتمتع تمتعاً كاملاً بمزاح المؤلف وإن يكن مزاحاً لاذعاً.

في مطعم المسبح، بدأت الحركة استعداداً للغداء. العمال في لباسهم التقليدي يروحون ويجيئون. من بعيد، تبحث قارئتي عن سجائرها. قلَبتْ كتابَها المفتوح ووضعتْ وجهه إلى الأرض. إنها تبدو على الأقل مرتابة. سأمضي لإحضار ما أقتاته ثم أعود. في مرحلة أولى قررتُ أن أجلس في مكان مقابل لها تماماً. ولكن قوة لا أدري كنهها دفعتني إلى أن أجلس على مقعد طويل غير بعيد عن مقعدها. تركتْ قارئتي كتابي حذوها وهي تدخن ناظرة إلى السماء. ثم ابتسمتْ لي ابتسامة مجاملة. قابلتُها بأن قلت لها مباشرة:

– ألا يضايقك أن أجلس على هذا المقعد الطويل؟

بدا أن الملل ملأ عليها أقطار نفسها:

– أبداً، إن كان شاغرا فلك أن تجلس عليه.

قلت لأثير اهتمامها:

– إنني أسعى إلى القرب.

سألتني بفضول:

– لماذا؟

– لأنني لاحظت أننا الوحيدان اللذان ظلا مرتديين ثيابهما في هذا الحر القائظ، ولم يُسْلِما جسديهما إلى سرطان الجلد. يبدو الأمر تافهاً، ولكنه ذو دلالة كبرى على ما يجمع بيننا. لعلكِ لاحظت أن الناس يجتمعون أولاً على أساس ما يميزهم من غيرهم؟ في انتظار أن يكتشفوا وجوه الشبه الحقيقية بينهم.

وقعت عيناها على أديم ساقيها، وقالت:

– فيما يخصك، لا علم لي بمنطقك، أما من جهتي (انتصبتْ حتى تزداد استراحة في جلستها) فلدي بعد...

– ماذا لديك؟

– سرطان.

ألقت بالخبر ببرود. ظللتُ مصعوقاً. وسألتُها:

– سرطان جلد؟

– كلا، سرطان شيء آخر. ولكن صادف أن طبيبي يعتقد أن فيتامينات الشمس تساعد على مقاومة هذا الداء. شرط ألا نبالغ. لهذا أبقى في الشمس دون أن أعرّض جسمي لها.

– حقاً، إن الناس من حولنا يبالغون في ذلك. إنهم مستعدون للموت حتى يحظوا بشيء أكثر من الإعجاب.

– لهم ذلك، فهم غير مصابين بعد. وأنت، ألا تبحث عن الإعجاب؟

– كلا.

أمعنتُ فيها النظر شيئاً ما، فواجهتْ نظراتي، خفضتُ عينيّ وصوتي واعترفتُ لها:

– لا تتصوري أن ما ذكرتِه لي منذ حين لا يحرّك فيّ ساكناً.

– لا أشك في ذلك. أو لنقل، إنه يترك فيك أثراً مثلما يتركه في أكثر الناس.

فالخوف من أن يصيبك المرض أقوى من الشفقة الحقيقية. ولكن الأمر طبيعي جداً، فليس بيننا سابق معرفة. فبصرف النظر عن التطيّر، قلما يجد المرء سبباً للحزن على أناس لا يعرفهم...ولكن معذرة، لقد انحرف بنا الحديث قليلا عن هذا الموضوع.

– من النادر أن يتحدث مصاب بالسرطان عن هذا المرض بمثل هذه العفوية.

– إن الصمت يزيد الأمل، وليس حظي من الأمل كبيرا. إن المحكوم عليهم لا يعلنون ذلك على رؤوس الملإ. وإنها لمعاناة ثقيلة للعائلة أن تشاهد شخصا كل يوم وهي متيقنة من أنّه قاب قوسين أو أدنى من العدم. هذا لايعنيني، إذ لا أسرة لي. وبالنسبة إلى الآخرين، كل الآخرين الذين لا يشعرون بأي عاطفة تجاهك، أنت تفتح ثغرة، لأنك تصبح سريع التأثر...من أنّه درب يشق فيه كل واحد طريقه إلى أن يدهسك، وإن كنت مريضا. فالميت هو دائما فرصة. فحين أخبرتُ زملائي بمرضي وخطورته، أثرت اهتمامهم بمنصبي، لأنني خرجت من السباق. وبما أنني لا أملك شيئا، فلا يحوم حولي أي فرد من أفراد العائلة الأباعد. إن أكثر ما ندمت عليه في حياتي أنني لم أنقل تجربتي. ذلك أن من لم يَنقُل لم يصلح لشيء. لقد خُلِق الإنسانُ ليتعلم، يتعلم ويَنقُل.

– المؤسف أن المعرفة لا تجعل الإنسان أفضل مما هو عليه. ولكنني على رأيك. فهل يَكتب المرءُ إلا لينقل؟ ولكن بالمناسبة، هل توقفت عن العمل؟

– لقد آثرتُ أن أستقيل، وأن أُضعِف نفسي بسلام فأغادر الميدان بمحض إرادتي، وأعمل بنصيحة طبيبي بأن أرتاح في شمس بلاد جافة، بعيدا عن ملفاتي الرطبة.

صمتتْ ساهمة ثم أردفت:

– إن تأملتَ جيداً، فهذا المرض يشبهنا، إنه عقلاني حين يأتي؛ ليعاقبنا على سنوات الإسراف، وهو شيطاني وفتاك حين يهاجم أياً كان، في أي سن كان، دون سبب.

– وبالنسبة إليك؟

– بالنسبة إلي؟ الأمر منطقي، ثلاثون عاماً من التدخين بمعدل علبتين في اليوم...ليس المهم أن تعرف لماذا أُصبتَ بهذا المرض بل لماذا دخنت كل هذا.

– وهل تملكين الجواب؟

– لو أني ملكته، أعتقد أنني كنت قد أقلعتُ عن التدخين، ألا ترى ذلك؟ حسناً، يمكننا أن نتحدث عن أشياء أخف وطأة، أليس كذلك؟

– لستُ خيرَ من هو مؤهل لتلك المواضيع.

– لماذا؟

– إنها مسألة مزاج. فالجاذبية على القمر تقل عن الجاذبية على الأرض بما يقرب من ست مرات. وجاذبيتي تفوق مرتين جاذبية الأرض. اسمعي، ما رأيك في أولئك الحراس الذين يقومون بأعمال الدورية بجانب السور؟

لم تكن قد لاحظت وجودَهما، التفتتْ ببطء إلى ذينك اللذين فقدا الثقة في جسديهما. وقالت:

– يبدو عليهما الإنهاك.

– يحقّ لهما ذلك. إنهما يتعذبان دون جدوى.

– لماذا دون جدوى؟

– لأنهما في عز الظهيرة والشمس في كبد السماء لا يجدان ظلا يحتميان به. وبما أنهما غير مسلحين، فإن تضحيتهما لا معنى لها.

– ولماذا تراهما يتّخذان ذلك الموقع؟

– يقال إن عملية كانت تستهدف هذا الفندق أحبطت منذ ثلاثة أشهر. ولم يكن هو الموضع الوحيد المستهدف. وقد أوقف المتآمرون.

– لا داعي للخوف، إذاً؟

– كلا، إن حاولوا أن يعيدوا الكرة فسيقصدون مكاناً غير هذا. إنه لأمر لا يخلو من سخف أن يُترك هذان الرجلان يذوبان في الشمس أعزلين. وهذا

العمل في من سيبعث الاطمئنان حقاً؟ ففي الواقع لا أحد يشعر بالقلق.

– المهم أنني لا أشعر بالقلق، ولولا ذلك لما كنتُ في هذا المكان. أتصوَّر أنك مثلي.

فكرتُ قليلاً قبل أن أجيبها:

– أنا أعيش في هذا البلد، في العاصمة. قبل أسابيع فجّر أحدُهم نفسَه أمام مبنى إداري خال. حين انفجر حزامُه قطعه نصفين. لم يُصَبْ أحدٌ غيره. إن هؤلاء الناس يمكنهم أن يفجروا أنفسهم في جوف الليل وسط مقبرة. وعدا هذا، فإنهم، من حين لآخر، يتسببون في مجزرة حقيقية.

– ورغم هذا، فأنت تعيش هنا؟

– لنفس الأسباب التي تجعلك تأتين هنا لقضاء عطلتك. في الوقت الراهن، الخطر هنا لا يختلف عن الخطر في مكان آخر. ولو ازداد زيادة كبيرة، لغادرتُ البلاد.

أبدتْ موافقتَها، ثم أغمضتْ عينيها. فأردفتُ بصوت خافت، كما لو أنني كنت أترك لها فرصة للنوم:

– لم أبح لك بالحقيقة كاملة منذ حين عندما زعمت لك أنني إنما دنوت منك؛ لأنك كنت الشخص الوحيد الذي يرتدي ملابسه.

فتحتْ عينيها مجدداً، تركتْهُما نصفَ مغمضتين، ثم أغمضَتْهُما مرة أخرى قائلة:

– لا عليك، لستَ مطالباً بأن تبوح لي بأي حقيقة، فنحن نكاد لا يعرف أحدنا الآخر.

– ما استرعى انتباهي، بصدق، هو أنك كنت تطالعين مسرحية. وهذا غير مألوف على ضفاف مسبح في فندق.

– حقاً؟ رأيك صحيح.

– وما الذي كنت تقرئينه، إن سمحت لي؟

– مسرحية لكاتب فرنسي معاصر.

– وكيف هي؟

– ما زلت في بدايتها، إنها طريفة.

– ولم اخترتِ مسرحية، هل أنت من أهل المسرح؟

– كلا، الحق أن ما يعنيني في كتاب ما، إنما هو الحوار. وما سواه يغريني بالنوم.

– هذا غريب، ففي مثل هذه الإجازات، يميل الناس إلى اصطحاب روايات بوليسية، وربما كتب أدبية، أما المسرحيات فلم أر ذلك أبداً.

– وبم تفسر إقبال الناس هذا على الروايات البوليسية؟

– بافتتانهم بالأذى. وميلهم الكوني إلى الألغاز. وبما أنهم لم يجدوا حلاً للغز الأكبر، فإنهم يؤمنون بالإله، ويستهلكون بيأس، ويقرأون الروايات البوليسية...

– لست مؤمناً؟

– ليحفظني الإله من الأديان!

– ولا تحب الروايات البوليسية؟

– لا أكنّ لها حبّاً حقيقياً. فحين يُقتَل شخص، لا يهمني أن أعرفَ القتلة.

– أدرك ذلك، أما أنا فعلى النقيض منكَ.

– ومع ذلك فأنتِ لا تقرئين الروايات البوليسية.

– الحقيقة أن مهنتي هي العثور على المجرمين. ومن ثم فإنني في أوقات فراغي...

– هل أنت شرطية؟

– كلا، أنا قاضية. الأصح أنني كنت، إذ بعد أن اكتُشِف مرضي، يجوز لي أن أقول إن حياتي المهنية صارت خلفي.

– وهل وجدتِ حلولاً لكل الألغاز التي طُرِحَتْ عليك؟

فكرتْ هنيهة، وردّتْ:

– لا أظن، ولكن بودي أن أعلم. بداعي الفضول أكثر مما هو بداعي الصرامة المهنية. فبقاء جريمة دون عقاب لم يمنعني يوماً أن أنام، ولكني كنت أجد من الجارح للشعور أن أتقاضى راتبي في تلك الفترة، إنها مسألةُ أخلاقيةٍ مهنية أكثر مما هي مسألة خلقية.

أبديتُ موافقتي كما يفعل المرء في موضوع ليس له فيه رأي، وحين يكون غير راغب في معاندة الطرف الآخر. توقفتْ محادثُتنا بضع دقائق. ثم عدتُ إلى ما يسوّغها، فقلت:

– ولم وقع اختيارُك على هذه المسرحية بالذات؟

– طلبتُ من المكتبي الذي أتعامل معه، وهو يعرفني جيدا، لأنني زبونته الوحيدة التي لا تقرأ إلا المسرحيات، أن يجد لي كاتباً معاصراً، يفضَّل أن يكون فرنسياً، ليس نكرة ولكنه أيضاً ليس من الأسماء الرائجة.

– يا لها من مقاييس غريبة. وعم تتحدث؟

– عن زوجين يفترقان.

– واضح، الموضوع مألوف إلى حد ما.

– لا يهم، إن كانت المعالجة غير مألوفة. إذن أنت تعيش في هذا البلد؟

– أجل، كما قلتُ لكِ، في العاصمة.

– وإن لم يكن من باب التطفل، منذ زمان طويل؟

– خمس سنوات أو ستّ فيما أظن.

– هل دفعتْكَ إلى هذا المكان الحاجةُ إلى الشمس أم الحنينُ إلى عهد الاستعمار؟

– لا هذا ولا ذاك. لقد كنتُ بحاجة إلى الرحيل. فسلكتُ طريق الجنوب. وجدت أن أول بلد إلى الجنوب لم يكن جنوبياً بقدر كاف، فتوقفت في البلد الثاني. كلا. أعتقد أنني تعلقت بإيقاع أكثر مما تعلقت بمناخ. وإن كانا غير منفصلين أحدهما عن الآخر.

– وما شغلك، هنا، في هذا البلد؟

– لا شغل لي على وجه التدقيق. أنا... أنا أعيش من مداخيلي. ليست طائلة، ولكن الحياة قليلة الكلفة. ومن حين إلى آخر، أسمح لنفسي بقضاء يومين في فندق كهذا، أتمتع فيهما بحمّام فراغ.

– وفي المساء، ماذا تفعل؟

– أشياء لا تُروَى بعفوية لقاضية... كلا، أنا أمزح.

– يمكنك أن تروي لي ذلك، فلا يثير استغرابي شيء، ولست ممن يُصدَم بيسر.

– أراقب الحياة الليلية. أزور المطاعم التي على الطراز الحديث. وأتفحص الناس. ومع الموسيقى الصاخبة، أراهم يحاولون أن يتحادثوا في مواضيع لا معنى لها، وهذا يبهجني. وبعد ذلك أقصد علب الليل. وكلما كانت أكثر خسة أراحتني أكثر من نفسي، الأمر غريب، ولكنه كذلك. وختاماً، أُلِمّ بالكازينو. أقامر قليلاً، ولكنني أستمتع برؤية الغير يخسرون. وحين تكون سلطة عليا قد قررت مآل الثروات، فإن الإفلاس يغدو أقل رونقاً، خصوصاً أنني لا أدري كيف يصنعون، ولكن المال لا ينفد أبداً.

– إن لم يكن السؤال من باب التطفل، هل تعيش وحيداً في هذا البلد؟

– حسب علمي، نعم. أجد شيئاً من الصعوبة في الحياة مع الغير. والنساء جزء منهم.

– ممن؟

– من الغير، طبعاً.

– واضح.

– حين لا يحب المرء نفسه فمن غير المعقول أن يحب غيره. وحين يفرط في حب نفسه أيضاً. تأملي عدد الناس الذين يشعرون بنشوة جنسية كلما مروا أمام مرآة. إنهم لا يتركون لغيرهم مكاناً. ينبغي أن يوجد موقف وسط بين من

هم مثلي ومن هم مثلهم. ولكن ألاّ يحب المرء نفسه، فمعنى هذا أنه يعشق نفسه كثيراً.

– إنك من جنس الرجال الذين لا يؤمنون بشيء كثير. أليس كذلك؟

– فعلاً، أنا شكّاك. منذ فترة وجيزة أنا أطوّر مرونتي. مرونتي الذهنية ضد التصلب النفسي، ومرونتي الجسدية ضد التشنج العضلي، بصرف النظر عن الإنعاظ، رغم أن... إنها شبكة تحليل مهمة، أتعلمين؟ فالشبق مرونة، والإباحية تصلُّب، الشكّ مرونة، والإيديولوجيا تصلّب، الروحانية مرونة، والدين تصلّب. صلابة الجيفة هي الفشل الذريع. حتى بعد الموت هناك وسائل يبقى بها الإنسان مرناً. وهذا يختلف أساساً باختلاف الحياة التي عاشها من قبل وخصوصاً ما أكله في الساعات التي سبقت موته. فإنِ التَهَمَ شريحة هامبورقر، فتلك دعوة إلى التحلل، سينقضّ الذباب والدود على جيفته، وعلى العكس من ذلك فإن النظام الغذائي النباتي، بمكوناته الطبيعية الطاردة للحشرات، سيمكّنه من أن يمتدّ أكثر في الزمان. لقد عُثِر مؤخرا على ضريح أميرة صينية... إن الموت جدير بالكثير من الاهتمام لسبب بسيط، هو أنه يبقى مدة أطول بكثير من الحياة. ولذلك، فالأجدر بنا أن نأخذ العدة؛ لنسافر في الموت سفراً مريحاً.

– أَلِمِثْلِي يقال هذا الكلام؟

– أحم، أنا آسف.

– لا تأسف. أنا لا أكذب على نفسي. ألا تخاف الموت؟

– نظرياً، أعتقد أنه من الخطإ أن نخاف الموت لأننا كنا أمواتاً زمناً طويلاً قبل أن نولد، ومبدئياً لا نحمل عن تلك الحقبة ذكريات سيئة جداً. أما من الناحية العملية، فإن الموت يرعبني. إن توقع الموت يترك في الأذهان أضراراً لا يستهان بها، ولكن الأشخاص الذين يحيرونني إلى أقصى حدّ هم أولئك الذين يعيشون كما لو كانوا لن يموتوا أبداً. ليس في حياتهم أي نصيب للشعر.

وفجأة أصبحتْ متشككة، وقالت:

– إنك محبٌّ للكلمات ولستَ متشدداً جدّاً في معانيها.

– لماذا؟

– لأنك كنتَ تقول إنك لا تحب نفسك. وهذه ترّهات. فلو كان الأمر صحيحاً، لما اقتربتَ مني على هذا النحو.

– لماذا تقولين هذا الكلام؟

– لقد جئتَ هنا؛ لأنني كنت أقرأ إحدى مسرحياتك.

– ماذا تقولين؟

– لا تسئ فهمي. أقول إنني لو لم أضع تلك المسرحية بين يدي، لما جئتَ قريباً مني. ولكني لا ألومك. زد على هذا، أنه بالنظر إلى وحدتك، لا أستغرب تعلقك بأثرك.

*

شعرتُ بشيء من الإهانة أن افتضح أمري. قلت لها:

– أنت على حق. فهذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها بشخص يقرأ إحدى مسرحياتي. كنت أود أن أعرف رأيك فيها، دون أن أكشف النقاب عن نفسي، حتى لا تشعري بأنك مجبرة على مجاملتي. ها أنت تكسرين لعبتي.

ومن الشعور بالإهانة انتقلتُ إلى الارتياب، فقلت:

– ولكن قولي لي. الأمر غريب، هل هي خطة مدبرة؟

ابتسمتْ، مزهوة بنفسها، وردت:

– ربما.

نقبتُ في ذكرياتي فلم أعثر إلا على نغمة بعيدة لصوت مألوف:

– حقاً إن كان وجهك لا يذكّرني بشيء، فإن صوتك ليس غريباً عني. أتراني أخطأت؟

– لا أظن.

– إذاً؟

ارتسم على وجهها الإرهاق، وقالت:

– إذاً لا شيء، أود حقاً أن أقرأ مسرحيتك؛ لأقول لك رأيي فيها، إن تركتَ لي شيئاً من الوقت.

– أخشى ألا يكون حكمك صادقاً تماماً.

– ثُبْ إلى رشدك، فنحن لا نكذب إلا على من لا يتحمل أن يسمع الحقيقة أو على من يجعلنا ندفع ثمن صنيعنا غالياً جداً. لا ينطبق علينا الوضع الأول ولا الثاني، أليس كذلك؟

– حسناً، سأتركك تقرئين، وسأغتنم الفرصة؛ لأغفو إغفاءة قصيرة، أشعر أنني بحاجة إليها، فقد عدتُ إلى غرفتي متأخراً.

قبل أن أغمض عيني رأيت شيئاً كالوميض في عينيها.

– ليس في مسرحيتك إلا شخصيتان. رجل وامرأة؟

– هو ذاك.

– سيكون مسلياً أن أمثل دور المرأة وتمثل دور الرجل.

– لا يروقني كثيراً أن أقرأ نصوصي.

– يمكنك أن تبذل مجهوداً، مرة واحدة، أتوافق؟

– أخشى أن تبدو لي هذه المسرحية أكثر كارثية إن أنا مثلتها.

– هيا، سيساعدنا ذلك على تزجية الوقت، ما عليك إلا أن تقرأ.

– حسناً، كما تشائين...

جلسنا متقابلين، يمسك كل منا بنصف الكتاب. ولكن قبل أن نشرع في القراءة بدا لي الموقف مضحكاً. ولكن الآن وقد وافقتُ على هذه القراءة العلنية، لم يَعُدْ بإمكاني أن أتراجع. قلت بمواربة:

– أترك لك الكتاب، فأنا أحفظ المسرحية عن ظهر قلب، سأسند إليك الدور الرئيسي.

- لا تقم بالعملية بصوت رتيب، أرجو أن تبذل شيئاً من الجهد، موافق؟

- لقد بذلتُ بعدُ الكثيرَ من نفسي في هذه المسرحية، ولكن لا تخافي، سأجد الطبقة الصوتية المناسبة عند الحاجة. سأظل واقفاً أمامك. أفضّل ألا نقرأ بصوت مرتفع أكثر مما يجب، فقد نتسبب في إزعاج غيرنا، أو في أسوإ الاحتمالات أن نسترعي انتباههم.

- إنه، على كل حال، ليس من النصوص التي تُلقَى بصوت رنان.

- بالتأكيد.

أعددتُ نفسي لامتحان انفعالي. كان تذكّرُ موقف واقعي على وشك الاصطدام بالكلمات، وجفافها، وعجز المؤلف عن تصوير التعقيد الذي ينطوي عليه أحد المواقف. هناك جمل لا نملك إلا أن نقولها همساً، ولكن كيف نمثل الهمس؟ جلستُ حينئذ القرفصاء، يكاد جبيني يلامس جبينها، وانطلقنا.

*

## المسرحية

*رجل وامرأة في قاعة استقبال ببيت برجوازي تطل على حديقة تحظى بعناية خاصة.*

هي

هل أنت جادّ إذاً؟

هو

نعم.

هي

أنت مصمّم حقاً.

هو

لن أتراجع. أنا أدرك أنني أتسبب في إيلامك. ومهما يكن موقفنا، فإنني

أود أن تُقرّي لي بأنني مدرك للألم الذي أسببه لك.

هي

وهل بإمكانكَ أن تفسر لي لماذا؟ أتراك تسافر من أجل شخص، من أجل امرأة أخرى؟

هو

كلا. أبداً. لا علاقة لي بأحد. ولو صح ذلك، لعلمتِ به، فلديك حدس مفرط.

هي

صدقتَ. فهل تلومني على شيء؟

هو

كلا. لا ألومك على شيء حقاً..أو بالأحرى آخذ عليك أمورا تافهة، ولكن لا شيء يسوّغ لي أن أهجرك. لا، إنني أهجرك بالأحرى لسبب في نفسي. لم أعد أتحمّل نفسي في العلاقة الرابطة بيننا. ولو كان بإمكاني أن أهجر نفسي وأُبْقِيَ عليك لفعلتُ دون أدنى تردد، ولكن هذا محال لسوء الحظ.

هي

يا لك من أناني!

هو

بإمكاني أن أثبت لك العكس. فمن مصلحتي أن أبقى معك. لأنني أهجرك إلى الوحدة المطلقة. تلك التي لا نعود منها أبداً.

هي

أنا لا أفهمك. لقد كان كل شيء يسير على ما يرام. لعلي أبالغ إن قلت على ما يرام. فهل تستطيع الأمور أن تسير على ما يرام مع رجل مثلك لا يثيره شيء، يعيش بمزاج واحد، رتيب وكئيب؟ ولكن المهم، أن الأمور لا تسوء أبداً.

فالخصومات الزوجية تحتاج إلى جهد عظيم. وقَطْعُ رتابة تلك الحياة المتواضعة الخالية من العقبات قد يبدو مغامرة بالنسبة إلى شخص لا يعدو أن يكون عابراً في نظر نفسه. أن تهجرني، أنا التي طالما شددتُ أزرك، فهو الجحود والخسة...

هو

لستِ مطالبة أبداً بأن تفهميني بشكل أفضل مما أفهم نفسي. أريد أن أهجرك، ولكنني لا أستطيع أن أفسر ذلك لنفسي.

هي

يمكنك أن تقابل أحداً، وأن تطلب منه العون.

هو

حتى أتعرف على نفسي؟ كلا، لقد فات الأوان. سنموت جميعاً بسببٍ ما على نار هادئة. إنني أنطفئ. طفولتي تُخمِد شعلتي. هناك ملايين على شاكلتي. وبعد هذا، فلا ينبغي لنا أن نسير في وجه المحرك الذي يقود حضارة برمتها.

هي

أي محرك؟

هو

عدم معرفة المرء نفسه. إن مجتمعنا يستخدم ذلك ويفرط في استخدامه. وهذا ما يجعل منا مستهلكين نموذجيين لردم آبار لا قاع لها. إننا ننفق شبابنا كله على مقاعد المدرسة؛ لنتعلم، ونسعى إلى فهم ما يحدث حولنا. ولكننا لا نصنع شيئاً لنفهم أنفسنا. إن عدم معرفة الإنسان نفسَه أجدى بكثير لكي ينفي نفسه في الإنفاق، والتفاهة، والعدم الممل، والمحاكاة الصوتية الصاخبة. لقد صرنا نشتغل للحصول على آخر طراز من كل شيء، واستطعنا أن نهدم كل شيء من حولنا دون أن نتمكن أبداً من أن نبني أنفسنا. الإله، والإنفاق، والفراغ، تلك هي خلاصة الإنسان.

هي

ولكن ما صلة هذا بعلاقتنا؟

هو

إننا خاضعان لهذا النظام كما يخضع له غيرنا لا أكثر ولا أقل.

هي

حقاً لا صلة بين هذا وبين أسرتنا ورغبتكَ في هجراني.

هو

أنا لا أعرف نفسي جيداً، وأنت لا تعرفين نفسك جيداً، وبالتالي فإننا بالضرورة إنما جمعتْ بيننا أسباب واهية. وخصوصاً أنت. إنك لا تملكين حجة واحدة ناهضة؛ لتعيشي معي، اللهم إلا سطوة العادة والخوف من الوحدة. إني أحبك فوق الحد. وهذا قيد لا أستطيع أن أتخلص منه، وترف يحول دوني ودون التطور، واستسلام لسلطة تكاد تكون عليا، هي سلطة العواطف التي تقودك إلى نسيان نفسك. وهذا جيد بالنسبة إلى الكائنات التي تطفح تقديراً لذواتها، أما بالنسبة إلي فهي كارثة. كل يوم يمر، ينمو حبي لك. إنني بصدد ربط مصيري بمصيرك: لقد أصبح الأمر لا يطاق. تصوري أن يصيبك مكروه غداً: إن حياتي ستذهب سبهللاً.

هي

أعتقد أنك مخبول. لا أقول هذا الكلام لإيذائك. أنت بحاجة إلى تحليل. أنت ميؤوس منك تماماً.

هو

ربما. إنني لَأفْرَقُ من الموت. ولا أدري لذلك سبباً، إذ أنني لست شديد التعلق بالحياة. ولكنني لاحظت أنه كلما كانت حياة المرء أكثر بؤساً كان خوفه من فقدانها أشدّ. ذاك أساس آخر من أسس حضارتنا: أن نتعلق بعدم الرضى بقوة اليأس... لا رضى

ولكن لا ألم. بهذا المبدأ، أبدعوا نموذجاً اجتماعياً صالحاً للدول النامية. وقد التزمتُ بهذا المبدأ منذ عهد بعيد. ولكنني رأيت أنني إن فقدتك فلن أستردّ عافيتي. فبدونك، لن يكون لما بقي لي من حياة كبير أهمية. وبناء عليه، فلن يهدد حياتي شيء. أفهمت؟

هي

إنك لمجنون.

هو

لقد كنتِ عالمة بذلك، أليس صحيحاً؟

هي

أجل، كنت أعلم ذلك، ولكنني كنت أقبله. كنت منذ البداية أدرك أنك كائن... كيف أقول... متكلس.

هو

لقد وجدتِها.

هي

متكلس بطفولته. لأسباب تهمك، فقدتَ الثقة في الوجود. ولم تبذل أي جهد لاستعادتها. أنت تعاني. أنت جبان حقاً وتتحمل تبعات جبنك بلا مبالاة محيرة. إنك تذكرني بتلك الطوابير من الرجال والنساء الذين كانوا يفرون من الجبهة الألمانية سنة 1940. نعم، أنت تنزح من نفسك. إن الحياة تدفع بك بالرعونة نفسها التي تدفع بها الريح قارباً شراعياً لا يستطيع أن يطوي شراعه. وليس من شك في أن لذلك سبباً. ولكن حَضْرَتَهُ لا يريد أن يَتحدَّث عنه. فمأساته لا تخصه إلا هو، إنها لا تخص إلا الطفل الذي لم يكبر، والذي، لأنه لم يبك حين كان لديه الوقت لذلك، لا ينفك عن الانتحاب على نزواته، وقلة ثقته في العالم، وكرهه العصابي للبشر. حياتك كلها علاقات مع النساء نصبتَ فيها الصنانير، ووضعتَ الطُعم، واصطدت، ثم ألقيت ما اصطدته في الماء من جديد. وها أنت ذا الآن على الضفة الأكثر انزلاقاً في حياتك، تستعد

للتخلي عن صيدك الأخير؛ لتضع حداً لتلك الحياة، حياة صياد أيام الأحد الذي لا يملك حتى أصدقاء؛ ليتبجح أمامهم ببطولاته. والذي يرفض المساعدة الخارجية إذ أنه حين يكبح قليلاً جماح يأسه، يخشى فقدان إبداعيته. وإلى أين ستذهب؟ هكذا إذاً، أنت تريد أن تكون شقياً لتستطيع أن تواصل الكتابة.

هو

كلا، لن أواصل الكتابة. مذ فهمت أن الأدب عموماً، بصورة أو بأخرى، ليس أبداً إلا تفسيراً لكتاب واحد، هو «الكتاب»، وهو الوحيد الذي يُعتَدُّ به، أعني «العهد القديم»، فقدتُ حماسي. وسواء عندي أوجد اسمي في معجم الأعلام، ضمن القائمة الطويلة للمفسرين الذين يطلبون الخلود بإسهامهم أم لم يوجد. سألقي بالأدب وبالمسرح عرض الحائط. وجواباً على سؤالك، سأرحل إلى الجنوب، إلى بلد لا أعرف فيه أحداً.

هي

وتتصور أنك شجاع. شجاع في الفرار، شجاع في تدمير حياتك، في هجراني بلا سبب، وفي خزني في مستودع الحصيد المغبرّ بذكرياتك، في طرحي بوصفي كائناً جسدياً، في تحويلي ظلاً، هو ظلك. أن تتنصل من كل شيء إلى هذا الحد، ألا ترى أنه أسوأ فعلِ عنفٍ تملُّكي يمكن للمرء أن ينطق به ضد الغير؟ تعتقد أن الإنسان يمكن أن يتصرف في غيره بهذه الصورة، فيغويهم، ويسحرهم ثم يلقي بهم بعد أن يكون قد امتلكهم؟ إنك لوحش.

هو

ولكني، على الأقل، لست مصاباً بالاكتئاب. أنا لا أحب نفسي بالقدر الكافي. ولكن لو لم أكن أحبك، أنت، اليوم، لما استبدّ بي الخوف إلى هذا الحد. أبهذا يكافأ الإنسان لصراحته؟ ليست لي القوة الكافية على تحمل تبعات حبك. فماذا أفعل؟ لم أصور لك نفسي أبداً على غير حقيقتها. قد لا تكون معرفتي بنفسي جيدة، ولكني لم أُبدِ لك غير ما أكنّ، ولم أختلق لنفسي شخصية، ولم

أستغل الثقة التي وضعتِها في شخصي. لقد تصورتِ أنني لن أتصرف في النهاية على هذا النحو. لقد ضلّلتِ نفسك بنفسك. لا يجوز أن نحمّل الغير أخطاءنا في التقدير.

هي

ما أعيبه عليك هنا، في هذه اللحظة، هو ما سأعيبه على نفسي بقية عمري. على نفسي أحقد: لأنني أسلمتها، واستسلمت لشخص كان نكرة بالنسبة إلي وبالنسبة إلى ذاته. لست أشك في صدقك. وإنما أشك في وجودنا حبيبين.

هو

ليس لك ما تلومين نفسك عليه. فكلانا ثمرة الصدفة. تلك الصدفة وضعتنا على طريق واحدة. لقد وثقنا بها أكثر مما كانت تستحق إذ أنها الآن تفرق بيننا. لماذا نتحدث دائماً عن المسؤولية؟ لو تحدثنا عن الألم لجاز ذلك أما المسؤولية...

هي

بصِفة عامة، حين يقترن شخصان، يحاول كل منهما أن يهب الآخر أجمل ما فيه. وبمرور السنين ينتهي الأمر بالخشب إلى أن يُنخَر من تحت البرنيق. أما نحن فحتى هذا الوضع لا ينطبق علينا.

هو

أما أنتِ، فأمرك مختلف. كلما رأيتكِ أكثر ازددتُ حباً لك، وكلما ازددت لك حباً اقتنعت بأنه ينبغي لي أن أهجرك. أصدقك القول، في البداية لم أكن أحبك أبداً. ولكن بمرور الأيام، نتعود، والأدهى أن نبدأ في رؤية خصال في الآخر لا تنكر، إلى حد أنه يغدو ضرورياً. ولو هجرتني يوماً أو قل لو مُتِّ، وهو الأقرب؛ لأن الموت في سننا يتربص بنا، فإن قطعة من نفسي سترحل معك. هل تفهمين؟ وهل أنا قادر على المجازفة بفقدان قطعة مني، أنا الذي، بتمامي وكمالي، لست مقنعاً بعد؟

هي

أتدري؟

هو

لا.

هي

أتردّد.

هو

فيم؟

هي

في قتلك أو في الإجهاز على نفسي.

هو

سيان. إلا أن في الانتحار، وهو عمل أكثر جبناً بكثير، شيئاً أكثر إدهاشاً، وجهداً للإخراج...حقيقاً بالثناء. نادرة هي حوادث الانتحار الخالية من الإخراج. ذلك أن الناس يحتفظون لأنفسهم بحظ مبالغ فيه من التقدير يجعلهم عاجزين عن الرحيل دون احتفال. ولو لم يكن بعضهم يحب بعضاً، لما وَجَدوا سبباً للانتحار. ولو لم يكونوا راغبين بإصرار في أن يكون الحق إلى جانبهم ضد العالم، لما كانت لهم حجة لمغادرته. المتواضعون لا يقتلون أنفسهم، وإنما يندمجون طي الكتمان. طبعاً لكل قاعدة شواذ، على غرار ذلك الصديق الذي انتحر تاركاً ورقة يقول فيها: «كانت حياتي إلى حد الآن رائعة، ولكن إن أردت المزيد فظني أن ذلك سيكون فوق الحد». يا لها من حماسة! أنا مثلاً، لم تراودني قط فكرة الانتحار؛ لأنني لا أرى الضرر الكبير الذي سيُلحِقه موتي المفاجئ بالجنس البشري. إن المنتحرين واثقون من أن لا شيء بعد موتهم سيبقى كما كان. وبالنسبة إليهم، سيغدو الموت البصمة التي لم تسعفهم حياتهم بأن يتركوها. أستثني من ذلك طبعاً أولئك الذين يستسلمون لألم يتجاوز طاقتهم

على التحمل ويدفعهم إلى ذلك الصنيع؛ لأنهم فقدوا شخصاً مهماً أو أصابهم مرض.

هي

وهب أني فقدت شخصاً مهماً؟

هو

ذاك ما أردتِه. كلا، حين أتحدث عن شخص مهم، فأنا أعني الولد. فحتى وإن كنا، أنا وأنت، لا ندري ما الأولاد، فأنا أتصور أن الولد هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون مهماً بالنسبة إلينا.

هي

ولكنك لم تقبل أبداً أن ننجب أطفالاً! كنت تقول إنك لا ترى نفسك قادراً على تحمل تلك المسؤولية. وقدّمتُ هذه التضحية من أجلك. والآن، ها أنت تتركني هنا، وحدي.

هو

لقد كنا، حتى في حال اجتماعنا، وحيدين. لن تبدئي كتابة التاريخ من جديد، شأن كل أولئك الناس العاجزين عن أن يتصفوا بأدنى موضوعية؟ وإذا عدنا إلى معضلتك، قلت إن وضع الإنسان حدّاً لحياته طريقة أكثر تحضراً وأكثر توافقاً مع القانون من قتل شخص. وإن كانت النتيجة واحدة. وما يجمع بين العملين أن الكره هو الذي قاد إليهما. نحن لا نقتل بدافع الحب، ولا ننتحر بدافع الحب. إنهما أسطورتان تجاوزهما الزمن، وإن كانتا تحتفظان بمكانة مرموقة في الرصيد القديم. وخلافاً لذلك، فإن الانتحار طريقة عجيبة للتلبس بذاكرة شخص ما! أنَّى لك أن تتخلصي من إنسان وَضَعَ حدّاً لحياته؟ والأنكى من ذلك، أنه وضع حداً لحياته؛ ليدمر حياتك؟

هي

ومع ذلك فإن الانتحار ينطلق من عواطف الحب الصادقة.

هو

آه! بالتأكيد. ولكن الانتحار يشبه إلى حد ما السرطان بالنسبة إلى الصحة الجيدة. فليس السرطان إلا تكاثراً عشوائياً لخلايا ليس لها إلا مقصد إجرامي.

هي

فأنتَ حينئذ تثبت لي حبك بهجراني، وأنا إن لم أقتل نفسي من أجلك، فلن يكون لدي دليل على حبي.

هو

كلا، لأنني أهجرك حقاً. بينما أنت، رحيلك زائف، لا يعدو أن يكون ضرباً من المسرح الشعبي. ستسمّمين شعوري بالذنب بقية حياتي. وبطبيعة الحال، يختلف الأمر شيئاً إن أنت قتلتني؛ لأنك بهذا ترغمينني على هجرانك. ولكن فلتعلمي أنك إن قتلتني، فستكونين مجبرة على أن تقتلي نفسك بعد ذلك ولن يكون لهذا كله أي جدوى، فلن يبقى أحد ليشعر بالإثم. الأمر معقد، لو علمت. قبل أن تقدمي على أي شيء فكّري ملياً.

هي

لقد فكرتُ جيداً. أنت تصيبني بالجنون.

هو

دائماً هكذا. عندما نتناول القضايا بطريقة عقلانية وهادئة، نصيب النساء بالجنون. فما الذي قررتِه إذاً؟ هل ستسلكين طريق العقل، وتتركينني أرحل دون ضجيج ولا فضيحة، أم...

هي

اغرب عن وجهي.

هو

ها أنا ذاهب. إنه مؤشر طيب. معناه أنك عدلت عن قتلي.

هي

على نحوٍ ما نعم، وعلى نحو آخر لا.

هو

لا أفهم جيداً. حين تصورت أنك قادرة على قتلي، أعترف لك بأنني شعرت بانقباض خفيف، تعلمين، كما يحدث عندما نفقد شيئاً غير ذي قيمة ولكننا متعلقون به.

هي

لا تفرط في الاغتباط قبل الأوان.

هو

قولي لي، إن شعرتِ بأن هذا كله يمكن أن يأخذ مساراً، شيئاً ما، كيف أقول، أعني... مأساوياً، فما زال لدينا إمكانية للتراجع. لا أحد ينتظرني في مكان آخر، وما ذكرتُه من سلبيات العيش معاً هي في المحصلة الأخيرة نظرية إلى حد ما. لقد قلت لك، إن مشكلتي كانت أساساً الخوف من فقدانك بعد أن كنتُ أفرطتُ في التعلق بك. حسناً، هناك أيضاً بعض المشاكل اليومية البسيطة المتصلة بجرعات صغيرة من الهستيريا، ولكني لا أخلو أيضاً من هواجس و... حسناً، أعتقد أنني سأرحل. لقد آن الأوان لكي أتركك وحدك. ولكن قبل هذا...

*نراه يسير باتجاه صوان، يفتحه ويبحث فيه عن شيء بيده.*

هي

عم تبحث؟

هو

عن مسدس أمي.

هي

وهل كانت لك أم؟

هو

نعم، بالتبني. كانت امرأة عجيبة. لم تكن تحب الأطفال حباً يكفي؛ لكي تنجبهم بنفسها، ولكنها كانت تحبهم حبّاً يكفي لكي تتبناهم. فالتبني يَفْضُل الإنجاب في أنه لا يفرض على الأبناء دَيْنَ اعتراف. وبما أنها كانت تعتقد أنها مضطهدة، لا من طرف ابنها، اطمئني، فإنها جعلت من هذا الصوان مخبأ. كنت أنوي أن أترك لك الصوان، ولكن قد لا يكون ضرورياً أن أترك السلاح هنا. لقد كان حقاً مخفياً بطريقة جيدة. أحس بشيء. لست أدري إن كان هو المسدس... كلا، ليس هو بالتأكيد...أمر غريب. أنا واثق من أن المسدس كان هنا منذ سنة.

*

توقفتُ دفعةً واحدة. نظرتُ إليها بشيء من الذهول، وقلت:

– ألا نواصل؟

أشارت برأسها علامة النفي.

– هل المسرحية تجاوزت حد الرداءة؟

– كلا، لقد شاهدتُ وقرأتُ ما هو أسوأ منها بكثير، على كل...أريد أن أقول إن...ليس هذا هو السبب، لا أرغب في أن أعرف أكثر،هذا كل شيء.

– ولماذا؟

– ربما لأنني لا أريد أن أصل منها إلى حل اللغز، كما تقول. على كل حال. هل كنت تنتظرني؟

– بقدر ما كنت تنتظرينني، أليس كذلك؟

– لقد كنتَ تقول إن وجهي لا يذكرك بشيء، ولكن صوتي كان مألوفاً لديك.

– كلمة مألوف فيها مبالغة. لنقل إنه لم يكن غريباً عني.

– أتريد أن أضعك على السكة؟

– لا أعتقد. ولكن لدي فضولٌ. ما الأمر؟

– ألم تكن لك صلة أبداً في حياتك بقاضية؟

– بلى، يبدو لي. ولكن كأن الذكرى التي بقيت لي ليست جيدة جداً. ولدي تلك القدرة الاستثنائية على محو ذكرياتي السيئة بسرعة. هذا ليس مجرد كلام. فإن كنا قد تلاقينا، فلعلي محوت الصورة، ولكنني احتفظت بالشريط الصوتي. إن قدرة الإنسان على التحكم محدودة، حين يتعلق الأمر بذاكرته. ولولا ذلك لكان من البديهي أن يَقِلَّ عددُ المصابين بالأمراض العصبية. لا أحد يقبل بطيب خاطر أن يَدُسَّ في رأسه ذكريات سيئة تغدو بعد ذلك...هي الآمرة الناهية في حياته.

– ألا تذكر شيئاً آخر غير صوتي؟

– كلا. ولكن ينبغي أن أقول إنني لو التقيت بك بوصفك قاضية، لكنت قادراً على أن أتذكرك. وهذه التي أمامي امرأة. وليست قاضية.

– وما العلاقة بينهما؟

– إن المرأة القاضية تبذل جهداً كبيراً حتى تتغلب فيها القاضية على المرأة. فالمرأة المريضة شيء والقاضية شيء آخر. حين يصاب المرء في بدنه، يسترد شكله البشري. فلا يبلغ الأفراد غاية الفتنة إلا حين يصبحون نسبيّين...

– واضح، ولكن أنت، أما زالت الأمورُ غامضة في عينيك؟

– كلا، كلا، طبعاً. لقد أصبحتِ الأمورُ بديهية.

– آه، استرجعتَ القصة، أخيراً.

– لا تبالغي. فالقصة لم تخرج أبداً من ذهني خروجاً تاماً، وإنما أصبحت ثانوية.

– أما أنا، فأتذكر جيداً أني رأيتك تجتاز باب مكتبي. كنت تتصرف تصرف شخص كان قد تبخر جزئياً.

– تبخر...

– أعني أن جزءاً منك كان بعيداً، بعيداً جداً. كنت تعطي الانطباع بأنك لا تشعر بأن الأمر يعنيك، وبأنك لم تكن عنصراً مهماً لكشف الحقيقة في تلك القضية.

– إن تذكّرتُ جيداً، فكأني كنتُ المشتبهَ فيه الرئيسي.

– أما أنا التي ذاكرتي غير انتقائية، فأتذكر أنك كنت المشتبه فيه الوحيد.

– كنت أنا أو لا أحد، هذا ما تقصدينه؟

– ...كنت أنت أو هي.

– وما كان إحساسكِ في ذلك الوقت؟ طبعاً، إن لم يثر هذا مشاكل على صعيد أخلاقية المهنة.

– إحساسي؟ تعني ما كنتُ مقتنعة به في قرارة نفسي؟

– لكل طريقته في التعبير.

– إنها القضية الوحيدة التي تعاملتُ معها طوال مسيرتي المهنية وانطلقت فيها من فكرة مسبقة ذاتية تماماً، قائمةٍ على ضرب من الحدس الأنثوي.

– وما ذلك الحدس؟

– أنك لم تكن مذنباً.

– ومتى بدأ ذلك الحدس؟

– حين تحدثنا عن تشريح الجثة. أتذكر نوبة الغضب التي استولت عليك. لقد أردتَ أن تمنعه. اعتبرتِ النيابةُ العامة والشرطة أن رد فعلك كان يخفي شيئا ما، وأنك كنت تخشى التشريح حتى لا ينكشف أمرك.

– صحيح أنني لم أقبل أبداً فكرة إنطاقنا الموتى والحال أننا ننفق وقتنا في تكميم أفواه الأحياء. يبدو لي مقرفاً هذا الاغتصاب، هذه الطريقة في اقتحام كائن أعزل، لا روح فيه، كما لو أن مجرد الموت بطريقة غير طبيعية تماماً يعطي المجتمع ذا الرأي الصائب الحق في أن يستحوذ على جثمانك، وأن يلجه رغم أنفك. إن ذلك الصنيع موروث من الحقب المظلمة التي كان فيها الناس يعتبرون

أن الجسد لا شيء دون الروح. علينا أن نؤسس جمعية للدفاع عن المشرَّحين مستقبلاً، وإن كنا قبل حصول العملية لا نعرف من منا سيشرَّح. هل كان مركزكِ يقتضي منك أن تكوني مشغوفة بالعمل الذي تنجزه الشرطة العلمية؟

– أبداً. لقد استعنتُ بها، كما استعان بها غيري، لا أكثر.

– لستِ مفتونة بأولئك الخبراء الذين يحتكرون القصص البوليسية والذين يدفعون بك إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن لأي جريمة أن تبقى دون عقاب، في عصرنا هذا الذي صرنا نتحكم فيه في المتناهي في الصغر؟ ما عدا الجريمة التي جاءت بكِ إلى هذا المكان...أتراني أخطأت؟

– لم أعد مكلفة بهذا الملف، وليست لدي أدنى نية في العودة إلى الخدمة، على غرار أولئك الشرطيين الأمريكان المسنين الذين يخرجون من تقاعدهم؛ ليحلُّوا لغزَ الجريمة الأخيرة في واديهم. لقد كانت لدي رغبة في أن أراكَ من جديد، هذا كل ما في الأمر. تتصور أنني بما لدي من علاقات لم يكن عسيراً علي أن أحدد موقعك ثم أن أوقعك في الشرك مستعينة بأحد كتبك. ذلك أن عزة نفسك ما كانت لتدفعك في اتجاهي، وما كنتُ لأحاولَ أن أحادثك. أؤكد لك، أنني أكثر إجهاداً من أن تكون لدي شكوك فيك.

– جيد جدّاً، أنا أصدّقك، أنا هنا، و...هكذا.

– هكذا ماذا؟

– لنطو الصفحة. فالأمر من جهتي يرهق ذاكرتي، ومن جهتك، لا يجدي نفعاً.

– بلى، بقي نفع واحد. كنت تتوقع قدومي، أليس كذلك؟

– نعم؛ ولكن ليس ضرورة اليوم أو غداً. ولكن يوماً ما، هذا أكيد. فالملفّ لم يُغلَقْ أبداً، حسب علمي.

– إنه في حالة شغور منذ أكثر من عشر سنوات. وأنّى لنا أن نغلقه ونحن لم نعثر على سلاح الجريمة وما زالت لدينا عناصر كثيرة محيرة؟

– من قبيل ماذا مثلاً؟

– حين تطلق النساءُ النارَ على أنفسهن، فنادراً ما يصبن الرأس. هذه واحدة. قد يثير هذا استغرابكم، أما نحن، فبعد كل العناء الذي نتحمله طوال حياتنا؛ لنبدو في هيئة لائقة، لا رغبة لنا في أن نخسر كل شيء في لحظة واحدة، أتفهم هذا؟ والثانية، إذا انتحر شخص، فمن المنطقي أن نتصور أن نعثر بسهولة على السلاح المستخدم. ولكن في حالتنا هذه، لا سلاح. وقد لاحظنا في التشريح، ومعذرة عن هذه الجزئية، آثار بارود على أصابعها. ولكن لا شيء يثبت أن الذي قتلها لم يمسك بذراعها؛ لأننا عثرنا على كدمات على معصمها. ولكنها يمكن أيضاً أن تكون ناتجة عن سقوطها. ثم إنها أطلقت رصاصة على جبينها، وهو ما يستوجب حركة التوائية، وهي حركة أقل...طبيعية مما لو أنها وجهت سلاحها إلى صدغها أو وضعته في فمها. في ذلك الوقت لم تَبْدُ لنا تلك الطريقة في الموت أنثوية جداً، تلك هي استنتاجاتنا الوحيدة. ورغم أنه لم يظهر عليك، حين تم إيقافك، أنك كنت معنياً كثيراً بهذه الحكاية، فإن كل الدلائل كانت تقود إلى اعتبارك المشتبه به الوحيد. أذكّرك بأنك كنت آخر من رأى تلك المرأة، وأنك تخاصمت معها خصومة خطيرة، وأنك انصرفت تاركاً إياها وحيدة في حديقة بيتك، وأنك حين كنت تغلق باب البيت لتركب سيارتك، سمعت فرقعة. معقول؟ أنا لم أعتقد أبداً أنك مذنب.

– والآن، وبعد مرور الوقت، تتساءلين إن لم تكوني قد أخطأتِ. وها أنت تقطعين هذه المسافة كلها؛ لتستأنفي التحقيق في عز الشمس، وقد طَلَيْتِ بدنك بكريم للحماية من أشعة الشمس، وجلستِ تحت شمسية. اعترفي أن الأمر غريب.

– لنطو الصفحة إن شئتَ.

– كلا، إن لم نتحدث للمرة الأخيرة، فعم سنتحدث بعدها؟ الأفضل أن نفترق حالاً. إن كانت كل القرائن تتظافر على جعلي المشتبه به الرئيسي،

فلماذا لم تنقضّ عليّ الآلةُ القضائية أبداً؟

– بسبب غياب الأدلة الشكلية المتعلقة بك، وبسبب اقتناعي العميق، الذي لم يكن يستند إلى أي دليل مادي. وقد أكدتْ لي البقية وجهة نظري.

– أي بقية؟

ترددت، ثم أجابت:

– التنصت. حين أطلقنا سراحك؛ لانعدام الأدلة، نعم، تنصّتْنا عليك. مدة أكثر من سنة. ثم جئتَ هنا، وبما أنك غادرت مجالنا، تعين علينا أن نتوقف عن التنصت.

– وهل اهتز اقتناعكِ بسبب هذا؟

– أبداً. على العكس. لقد خرجتُ على أتم اليقين من براءتك.

– فما الذي جاء بكِ حينئذ؟

– لكثرة ما سمعتك في أوقات منتظمة، نشأ بيننا ما يشبه الألفة. وبقي لي من تلك الفترة ندم عميق حداني إلى القيام بهذه الرحلة الأخيرة. اسمح لي بأن أعترف لك بأنني شعرت، قبل مغادرتك فرنسا، بأن لديك ما يشبه أن يكون ضرورة أن تقطع صلتك بالحياة. طبعاً، لم تكن تحدّث أحداً بذلك. ولكن اعلمْ أنني لم أقتصر على الاهتمام بمحادثاتك، بل حاولتُ خاصة أن أفسر حالات صمتك. وكانت حالاتُ الصمت تلك تنمّ عن أنك كنتَ تخفي عن المحيطين بك إرادة للموت لا تقاوم. ومنذ ذلك الوقت لُمْتُ نفسي كثيراً؛ لأنني لم أتدخل، ولم أمدّ لك يد العون. لم أفعل ذلك؛ لأنه من زاوية الأخلاقية المهنية، كان سيجعلني عرضة للنقد. ولربما أدى إلى وضع حد لمسيرتي المهنية. وبعد ذلك ندمتُ أشد الندم، وإن كنتَ ما تزال على قيد الحياة، على تقديمي مصالحي المهنية في وقت كانت فيه حياة إنسان في مهب الريح. هل تتصور ماذا يعني أن تترك حياة تختفي على هذا النحو، بالنسبة إلى شخص لا يتنفس إلا لإيقاف الظلم؟

– فهمت حق الفهم. إن هذا يشرفك. ولكن، اشرحي لي، لم حَملتِ معك في سفرك هذه المسرحية بالذات؟

– ؛لأنها ألصق مسرحياتك بالقضية.

– للأسف، كان على المكتبي الذي تتعاملين معه أن يعطيك مسرحية أحدث قليلاً لم تنل النجاح الذي تستحقه - أو قولي النجاح النسبي إذ الأمر يتعلق بالمسرح. عنوانها «التنصّت». وفعلا فهي قصة مجرم يوهم من يتنصتون عليه أنه قاب قوسين أو أدنى من الانتحار.

همستْ، وقد جفّ ريقُها:

– إنه لأمر شديد الأهمية. ولكنها لا تعدو في تصوّري أن تكون مسرحية...

– طبعاً.

– هل كنتَ على علم بأنك خاضع للتنصت؟

– اتركي لي فسحة أجمع فيها ذكرياتي. إمم...نعم، طبعاً، منذ اليوم الأول. أولا لأن الأمر كان منطقياً، ثم جاءني الدليل التقني من أحد أصدقائي القدامى، وهو متقاعد من الاستخبارات العامة. هكذا تقريباً قررتُ أن أكتب هذه المسرحية، وأن أحتال عليكم، لا أدري إن كنت تذكرين، ولكننا حين كنا أطفالاً كنا نستمع إلى تمثيليات إذاعية. قلت لنفسي: إنها لفكرة جيدة أن أقترح شيئاً من التسلية لأولئك المساكين الذين كانوا يتنصتون هاتفياً على غيرهم. إن الحياة ينبغي أن تكون مملة إلى أقصى حد في نظر الأشخاص الذين يظلون مثبّتين إلى السماعات. أنا مصدوم جداً إذ، في الوقت الذي يُخضعُ فيه رئيسُ الجمهورية باريسَ بأكملها للتنصت الهاتفي، لم تراودْ أحداً فكرةُ أن يَكتُب له نصاً على المقاس.

قالت أخيراً متلعثمة:

– إذاً أنت تلاعبتَ بي؟

- لماذا؟ ما الذي يجعلك تعتقدين أن مطامح الشخصية هي ذاتها مطامح المؤلف المسرحي؟ فالشيء المؤكد هو أنني لم أرغب قط في وضع حدّ لحياتي، فليس هذا من طبعي. ولكن تحليلكِ كان محتملاً جدّاً. فالمجرم يفصل دائماً بين عواطفه وما قام به. الذي اقترفَ الجريمةَ شخصٌ آخر، شخص آخر هو ذاته. وحتى إن اعترف بفعلته، فهو في قرارة نفسه غيرُ مقتنع بأنه هو صاحبها. هل تفهمينني؟

- أنا أفهمك.

- لقد انطلقتُ إذاً من فرضية مفادها أن من يريد أن يضع حداً لحياته لا يمكن أن يكون هو نفسه القاتل. فالندم الذي يقوده إلى الاختفاء ليس نَدَمَ من قتل، وإنما هو ندم من لم يستطع أن يمنع موت الآخر بطريق الانتحار. ومن هنا تتولد لديه الرغبة اللاواعية في أن يَلحَقَ بالموت إلى حيث يريد أن يحمله. إنه تحليل يفتقر إلى الخطة الشاملة، ولكن اتفاقنا فيه أمر يبهجني.

- ما عدتُ أعرف كيف أحكم عليك.

- إنها المكافأة على جهود كثيرة.

- ماذا؟

- أن لا يعرف الناس كيف يحكمون عليّ. لا أفهم حقاً لماذا ينبغي للآخرين أن يعرفوا كيف يحكمون علي، والحال أنني أنا نفسي لا أعرف كيف أحكم على نفسي.

- إن مسرحيتك أبلغ جواب في هذا المجال.

- هذا رأيك.

- هناك على الأقل شيء مؤكد: هو أن رحلتي لم تكن سدى.

- لماذا تقولين هذا؟

- لأنك مناور كبير، حقاً!

- بكل صدق، لا أظن. ولكني أشعر بشيء من الفخر لرؤية هذا اللغز

الإجرامي غير منكشف، إذ، كما قلت لك، لا أحب أن تنكشف الألغاز. كما أني لا أحب الفكرة القائلة بأن الأمر، مع السياسة العلمية وجيوشها من المتخصصين، سيؤول بنا إلى إلغاء الحصانة... ولكني أستطيع رغم كل شيء أن أكشف لكِ شيئاً متأكداً: لقد كان ما حصل جريمة.

– كانت الفكرةُ قد بدأتْ تخامرني.

– غريب، أشعر أنني خيّبتُ أملك.

– ليس بعدُ، ولكننا لسنا بعيدين عن ذلك. إنْ كان ما وقع جريمة، فلا يكون القاتلُ إلا أنت، اللهم إلا أن تُخرج لي من قبعتك شخصية ثانية، هي ثمرة ناضجة تكاد تكون متعفنة من ثمار خيالك.

– لا أستسيغ المنحى الذي أخذتْ محادثتُنا تنحوه. أعرف أنني استغللتك على نحو ما بتلك المسرحية التليفونية، ولكن اعلمي أنني معترف لك بالجميل اعترافاً كبيراً بسبب الروح الإنسانية التي عالجتِ بها ملفّي. وهذا أمر نادر لدى من هم من نوعك. أجل، أجل، أؤكد لك أن ذلك غير شائع على أيامنا. ورغم أنك لم تكوني قادرة على تجاوز الإكراهات المرتبطة بوظيفتك، فلن أنسى نبل روحك معي. ولو لم يكن لك عندي إلا هذا، لقلتُ لكِ الحقيقة. حسناً، سأضعك على السكة: لقد مات مرتكبُ الجريمة.

– لأن هذا يلائمك.

– أبداً. أكرر لك: إن كان ما وقع جريمة، وأؤكد أن ما وقع كان جريمة، فإن مرتكبها لم يعد في الأحياء.

– منذ متى؟

– منذ يوم الجريمة.

– لماذا؟ هل تخلصتَ منه بنفسك؟

– دقيقة، لدي، فجأة، شكّ في مرتكب الجريمة... سيمرّ... لو كان لدي هذا الشك منذ اليوم الأول، لانتابتني حقاً تلك النزعات الانتحارية التي تظاهرتُ

بها. ولوددتُ أن أعاقب نفسي لقتلي إياها.

– ولكنكَ منذ حين كنت تقول عكس هذا.

– كلا على الإطلاق. إن من يقتل بيده، إن كان لديه من رباطة الجأش ما يكفي، لا يندم، ومن ثم فإنه لا يرغب في قتل نفسه. ولكن إن كنت تشعرين بأنك مسؤولة عن انتحار، فالأمر يختلف، لأنك في هذه الحالة لست قاتلة. وعلى العكس من ذلك، سيكون لديك شعور بالذنب يجبرك على أن تقتلي نفسك يوماً ما... وهناك فرضية ثالثة.

– هي أن نعتبر المنتحر قاتلاً.

– بالضبط.

– لأنك تعتبر أن المنتحرين إذ يقتلون أنفسهم يقتلون من يحيط بهم ويظلون في مأمن من العقاب.

– تقريباً. وإضافة إلى ذلك، فإن أغلب حالات الانتحار تؤدي إلى إخراج مروّع، مستوحًى من أكثر المآسي قِدماً. أليس ذلك دليلاً؟

– فهي القاتلة إذن؟

– لقد أطلقتْ رصاصة على رأسها، ثم أردتني قتيلاً. إن غياب الدافع إلى الانتحار عندي غياباً قطعياً لا يكفي للتعبير عن عشقي للحياة. ولكن من هنا إلى أن أتحمل جريمة، فتلك قضية أخرى. إنها انتحرت بسببي، بسبب هذا الشخص الغامض الذي وُفّقتِ أنت إلى تحديده على خير وجه. أنا لم أقتلها، وإن كنت قطعاً مسؤولاً إلى حد ما عن موتها. ما لا شك فيه هو أنها انتحرت؛ لتتخلص مني. لقد ماتت وهي قاتلة، حتى تتركني أعيش برغبة خافتة في الموت. كل هذا مأساوي إلى حد ما، أليس كذلك؟

– ليس بوسع المرء أن ينكر ذلك.

– ولكن لدي شيء أكثر مرحاً أود أن أضيفه.

– حقاً؟

– لقد انتقشتْ في ذاكرتي صورة محقّقيكم، وهم يفتشون في التربة ككلاب الكمأة، كانوا كلاباً بوليسية حقيقية تُثقِلُهم قاماتُهُم. ينبغي رؤيتهم جاثمين!؛ لأن هؤلاء الناس يؤمنون بأن كل ما يقعُ إنما يقع على مستوى الأرض، بل وحتى تحته قليلاً. إن كلابكم يدققون في أصغر حصاة، وأصغر شعرة من شعرات العانة، ويتفحصون المتناهي في الصغر. أما السماء فلا يرونها إلا بعين الازدراء. قلتِ لي إنكم عثرتم على آثار بارود على أصابعها؟

– بالضبط.

– ؛لأنها هي التي ضغطت على زناد المسدس. ولكنها هي أيضاً التي أخفت السلاح، وأبعدتْه عن التحقيق.

– كيف؟

– اسأليني أولاً لماذا؟ للإيهام بأن آخر رجل رآها، وهو أنا، أَطْلَقَ عليها النار ثم أخفى السلاح. ليس بوسع أحد أن يتصور أنها هي التي أخفت السلاح، بعد أن أطلقتْ رصاصة على جبينها، وهو أمر، أكّدْتِ أنه لم يكن أنثوياً جدّاً وكانت هي تعرف ذلك.

وإزاء مظهري المرتبك، سألتني:

– ألستَ على ما يرام؟

– ذلك أننا نقترب من حل اللغز. وإن أنا مضيتُ بعيداً فهناك احتمال كبير أن تفقد محاورتُنا من أهميتها فلا يبقى لنا إلا أن نفترق. هذا ما أخشاه فجأة. ترين أنني شخص ثقيل بعض الشيء، ولكنني أستطيع أحياناً أن أكون أكثر رقة مما يدل عليه مظهري. لا أظن أنكِ قطعتِ هذه الرحلة الطويلة؛ لتتخلصي من ذلك اللغز، ولا؛ لتتناولي فيتامينات الشمس.

– منذ اللحظة الأولى التي رأيتكَ فيها، لم أكن أريدكَ أن تكون مذنباً. والآن أنا عاجزة عن أن أقول لك أكثر من هذا. إن الكلمات لا تعبّر عن كل شيء، خصوصاً إذا أُفْرِغَتْ من معانيها، سنة في إثر أخرى. في الحقيقة، رغم أنني

كسائر الناس، لا يعوزني الفضول، فليست لدي رغبة قوية، الآن، في معرفة ما وقع فعلاً. فلا أهمية لذلك حقاً. ومهما يكن من أمر، فأنا لم أعد أنتمي إلى هذا العالم، ولست أنتمي بعد إلى العالم الآخر.

– من حقي، مع ذلك، أن أتأثّر بما فعلتِه. ولذلك فأنا مدين لك بتوضيح أخير.

– أنا مصغية إليك.

– إليك ما تبادلناه من حديث، أنا وهي، قبل المأساة...

– لا أدري إن كنتُ حريصةً على سماعه. ثم إني قرأتُه في مسرحيتكَ.

– كلا؛ لأنكِ توقفتِ قبل الأوان بكثير. ونعم، وهذا مهم، لأنك لا تستطيعين ألا تعرفي من أنا على الحقيقة. في الواقع، حدثتْ بيننا مناوشة. لامتني لوماً شديداً من أجل أشياء مرّتْ عليها آنذاك ثلاث سنوات.

– هل كنتَ خنتها؟

– أي قصور في الخيال! كلا، بل إني لم أتعرّف عليها. فقبل عشر سنوات على ذلك، كنا قد عشنا معا فترة لا تزيد على بضعة أسابيع. ثم هجرتُها وانقطعتُ عنها. وبعد مضيّ سبع سنوات التقيتُ بها من جديد في إحدى الحفلات. أذكر أنها لم تتغير. أغويتُها، دون أن أذكر ما كان بيننا في سالف الأيام. لقد نسيتُها بكل بساطة. وخلال السنوات الثلاث اللاحقة تصرّفتْ معي وكأن شيئاً لم يكن. ويوم المأساة انفجرتْ. الأمر لا يخلو من غرابة، ألا تظنين؟

– إن شدة تعلقها بك هي التي دفعتها إلى أن تتظاهر على هذا النحو. ثم ماذا؟

– بعد هذا، ذهبتُ بصمت وتركتُها في الحديقة مشعراً إياها بقوة بأن تلك الخصومة، أو قل ذلك الهجوم عليّ، كان خطة مدبرة. غادرتُ الحديقة بندم. لا لأنها أعلمتني بأنها ستقطع صلتها بي، بل لأني أدركت أنني لن أشاهد أبداً تلك الشجرة الفارعة التي تتربع وسط العشب. ذهبتُ؛ لأنام، فللخصومات

عليّ أثر مخدّر. غلبني النعاس في سيارتي.

– كل هذا لا يفسر أين ذهب سلاح الجريمة.

– لا بالطبع...السلاح ما زال في مكانه. قلت لك إنها أخفته؛ لتوهم بأنني قتلتها. لا أنكر مسؤوليتي، ولكن لا علاقة بيني وبين السلاح. ولو كان محققوكم أقلَّ مادية لرأوا أن السلاح كان في الشجرة، على ارتفاع متوسط. حين أطلقتِ النار، أفلت السلاح من يدها، فدفعه خيط مطاطي أُعِدّ لتلك المناسبة إلى الشجرة التي كنت أنفصل عنها نهائياً، وقد كانت حدثَتْني عن تلك الفكرة الغريبة التي وَجدتْ مع ذلك طريقها إلى النجاح...لقد تركتُ ذلك البيت المهجور، ولكنه ما زال بيتي. يمكنني أن أعطيك نسخة من المفاتيح إن كان الأمر يغريك، وسترين أن المسدس، ما زال هناك، ربما علاه الصدأ، متدلياً من خيط مطاطي يمكن مشاهدته في الشتاء. لا أدري إن كانت بصماتي ما تزال عليه. ذلك المسدس كان لأمي، ولكن تلك المرأة سرقتني إياه. وذلك قبل مناوشة الفراق بمدة طويلة، وهذا دليل على أنها توقعت جيداً المصير الذي ستؤول إليه علاقتنا. أتصوّر أنها لم تترك عليه إلا بصماتي.

– في حال عثرنا على السلاح، وهو الأرجح، يمكننا أن نعتقد أن هذه الحيلة الفجّة بخيط المطاط كانت من بنات أفكارك...وحتى انكشاف دهائها، فأنت الذي كنت أيضاً مسؤولاً عنه. لماذا لم تقل هذا للسلط؟

– وما الذي كنت سأغنمه لو رويت لهم تلك القصة؟ وإضافة إلى هذا فإنني لم أقرر أن أذكر لك ما وقع إلا منذ فهمتُ أنك لم تأتي هنا بسبب هذا الموضوع.

توقّفتُ عن الكلام، ثم أردفتُ:

– أظنّ أن الشخص الذي يُفترَض أن يحمينا من هجوم إرهابي ستسوء حالته. أستسمحكِ لحظة حتى أمدّه بقارورة مائي.

وما إن عدتُ حتى قلت لها هامساً:

– لدي سؤال هو في آن واحد أحمق بشكل لا يصدق، ومعاصر بصورة لافتة أود أن أطرحه عليك، ولكنكِ لستِ مرغمة على الإجابة عنه. هل أنت مؤمنة؟

– وهل لي الخيار في الموقع الذي أنا فيه؟ ليس من شأن هذا أن يقلقني.

– بالتأكيد، ولكن باستطاعتك أيضاً ألا تؤمني من حيث المبدأ، حتى قبل...

– إنك لتعلم علم اليقين أن ألدّ أعداء الإيمان هم في الحقيقة أكثر الناس إيماناً، وأعظمهم خيبة أمل في العرف الذي آل إليه الإله بفعل الإنسان. زد على ذلك، أننا حين ندنو من النهاية، ننظر بعين التقدير إلى الفكرة القائلة بأن تلك الخطابات كلها يمكن أن تكون ذات معنى. ومن منا، خصوصاً إن اعتراه الضعف، من يصرّ على أن يجابه ذاته؟ فلا ضير في أن يكون الإنسان مؤمناً بالخرافات شيئاً ما، إذ، كما قلت، ما زال علينا أن نتحمل طريقاً طويلة من الجهة الأخرى. ولكن، لا تسألني، الآن خاصة، عما كانت تنطوي عليه ردود فعلي من عقلانية.

– أنت لا تعلمين بعد. ولكن يمكنني تماماً أن أحبك أنا أيضاً.

– حقاً؟ لا يبدو عليك ذلك.

– صحيح، ولكن هذا التزام لفترة محدودة.

كنتُ على يقين، من أن رغبتي الجامحة في قتل اللواتي أحبهن لن تظهر هذه المرة.

– ولكن عمّ تتحدّث؟

– لا تنزعجي، فما هي إلا كلمات. فأنا، عندما كنت طفلاً، كنت أسمع الكبار يقولون: «إنه لقيط». إن إناقة اللغة لأمر خارق. والحال أنني كنت ولداً ضائعاً. ما الذي بوسعنا أن نقوم به إزاء هذا القدَر، غير أن نلعب بالكلمات؟ إن شدة خوفنا من أن يُتَخَلّى عنا تدفعنا إلى استباق الأمور. فيبلغ بنا الأمر إلى

حد التفكير في القتل حتى لا يُتخلّى عنا. وهذا ما وقع معها.

– ولكن ماذا تقول؟

– أنت لم تقرئي المسرحية إلى نهايتها. فحين أعلمَتْني بأنها ستتركني، شعرتُ... كيف أقول، بنزوع إجرامي. أتصوّر أنني تحكّمتُ فيه. أجل، دون شك. على كل حال إنْ قَتَلها شخص، فليس أنا، إنه أنا آخر لم أره منذ ذلك الوقت أبداً، هو أنا يتلقى الأوامر من الخارج. ليس بوسع أحد أن يلومني على ذلك. أما أنتِ، فأمرك مختلف تمام الاختلاف، أعلم أنك ستهجرينني. ولكن لن يكون لك في ذلك يد. أو بالأحرى بلى، فلك دور في المسألة على نحو ما. لقد قلتِ أنتِ نفسك، إن الإنسان لا يدخن علبتين في اليوم دون عقاب. والحال أن كل الذين هجروني إلى الآن هجروني عمداً. تلك المرأة ينبغي أن تهجرني يوماً ما. والحقيقة أنها، كما لاحظْتِ، لم تتردّد في هجراني. وفوق ذلك فمن يدري، إن كان القدر يريد أن ترحلي قبلي، فلا يوجد دليل على أنني سأبطئ في اللحاق بك. علينا أن نوفر لأنفسنا فترات للعزلة قبل أن يلتئم شملنا. مرضك يحتاج إلى الشمس ولكنه يحتاج أيضاً إلى الظل. وأنا قادر على صنع ذلك الظل بشكل أفضل من أي شخص آخر. ألا تعتقدين؟

– لست متأكدة من ذلك.

– لماذا؟

– إن هذا لن يجدي نفعاً، ثم إنك رغم المظاهر، مركّز على نفسك إلى حد أنني لا أرى بوضوح ما الذي يمكن أن يُرتَجى منك.

– الحنان، والمواساة.

– لستُ في حاجة إلى المواساة. لقد أفنيتُ نفسي قصداً، ووصلتُ إلى النهاية.

– لَمْ تَقُولِي لي لماذا؟

– لأنكَ لم تَطرحْ عليّ السؤال.

– ها أنذا أطرحه عليكِ.

– فات الأوان وأنت تعرف السبب جيداً. اطمئنّ فليس لك في الأمر يد. أحياناً ساعدْتَني على أن أكون على ما يرام، دون قصد منك. سأمضي، كما يمضي أي شخص، دون أن أكون قد حللتُ أي مشكلة. إن تاريخ جنسنا هو تاريخ إبادة طويلة بفعل الزمن. يمكنني ببساطة أن أؤكد لك أن لا هي التي قتلت نفسها ولا أنت الذي قتلتَها. قُلْ لخالقها، بما أنك تعرفه، ألا يخشى شيئاً، سأكون صامتة صمت القبور. وبالمناسبة، لم تَسألني أبداً لماذا أفرطتُّ في التدخين.

– صحيح.

– الكتابة وقلة الاهتمام بالغير. هذا لغز آخر من ألغازك.

– إذاً؟

– إذاً كنتُ قاضية شابّة، فعُهد إلي بقضية فتاة قُتِلَتْ في سيارة عند عودتها من حفل زواج. لم يكن يسلك تلك الطريقَ خلال الليل إلا المدعوّون للزفاف، وهو زفاف بورجوازي جداً في الريف. أتذَكّرُها كما لو كان ما حصل أمس. كانت امرأة خارقة الجمال ذات ساقين طويلتين تكشف عنهما تنورة مشقوقة.

– وأي صلة بين هذه القصة وبين العدالة؟

– اكتشفنا أنها اغتُصِبتْ بعد موتها في موقع الحادث. هكذا بدأتُ التدخين وأقسمتُ أن أوقف الشخص الذي فعل ذلك يومَ أَعْثُرُ عليه.

– وهل عثرتِ عليه؟

– نعم.

– وهل أقلعتِ عن التدخين؟

– كلا.

سيظن بعض الناس أن الأوان قد فات لبدء قصة حب. ولكنهم يخطئون. فلو أن كل الناس الذين سيموتون يوماً امتنعوا عن الحب لهذا السبب، لاختفى الحب بسرعة ولتوارى معه الكائن البشري. وإذا توارى الكائن البشري، فمن تُرَى سيبقى ليشهد على ذلك الحب؟

بعد يومين انتهتْ مدةُ إقامتها. عادت إلى فرنسا حيث كانت لها مشاغل كثيرة، كما كانت تقول. كانت تريد على الخصوص أن ترتب مسألة إرثها، رغم أن ورثتها لم يكونوا سوى أبناء عمومة من الأباعد. كلمة أملاكها لا تخلو من مبالغة، إذ أنها لم تعد تملك إلا شقة دون بهجة في مدينة جديدة، لم يسدَّدْ دَينُها تماماً. كنت أهاتفها مرة كل يومين للسؤال عن صحتها. كان بيننا اتفاق على أن نلتقي مجدداً. وكنت أنتظر موافقتها؛ لألتحق بها. كان الموعد وشيكاً كل مرة. ولكنه لم يتحقّق أبداً. وبعد انقضاء ثلاثة شهور على لقائنا الأخير، لم تعد تردّ على مكالماتي. لقد اختفت.

# مونبارناس[1]

كنا نشاهد برنامجاً وثائقياً عن العراق في التلفزيون حين قلتُ لها: «حقاً، لم يكن للأمريكان مسوّغ للذهاب هناك، فإن كانت غايتهم قتل «صدام حسين» فلا تقولي لي إنهم بما لديهم الآن من إمكانيات تكنولوجية لم يكونوا قادرين على التخلص منه انطلاقاً من إحدى الغواصات».

أبدت موافقتها. فنادراً ما يحصل بيننا اختلاف حول القضايا السياسية. وقفتْ؛ لتُحضِر حبّة منوّمة من الغرفة. جرَتْ عادَتُها على ابتلاعها قبل عشرين دقيقة من الموعد المحدد لنومها. أدرك المصابون بالأرق أن الإنسان يقضي موته نائماً وهم لا يقبلون أبداً الحديث عن النوم خلال حياتهم. والنتيجة أنهم لا يستفيدون جيداً من الوجود؛ لأنهم يعيشون مرهقين. المهم أنني، خلال هذا الوقت، أخذتُ في تغيير القنوات.

حين عادت، قالت محتجة:

– لم اخترتَ قناة إباحية؟

واجهتُها من أقصى الأريكة، بنظراتي، وقلت:

– ولم لا؟ أفضّل الشريط الإباحي الحقيقي الذي يتحمل مسؤولية فحشه على البرامج التي يأتيها الناس؛ ليعرضوا مآسيهم القذرة.

خفضت نظرها قليلاً وغمغمت:

– أنت تعلم أن هذا يضايقني.

غيّرْتُ القناة. ولكن لم يستهوني أي برنامج. كانت تقف خلفي، ودون ضجيج، فتحتْ بوابة الشرفة المطلة على شارع «مونبارناس» وأشعلت سيجارة. نفثت الدخان جانبياً، راجية أن يأخذه الهواء بعيداً.

---

(1) «مونبارناس» (Montparnasse) هو أحد أحياء «باريس»، يوجد في الدائرة الرابعة عشرة، على الضفة اليسرى لنهر «السين». (المترجم)

– ألا تستطيعين أن تدخّني مباشرة في الشرفة؟

– إنكَ تعيد هذا الكلام كل مساء، وأنت تعلم جيداً أنني أحب أن أدخن سيجارتي الأخيرة وأنا أشاهد التلفزيون.

تنهدتُ، وأنا أثبت نظري على الشاشة:

– وأنت تعلمين جيداً أن هذا الدخان يصيبني بالغثيان، خصوصاً في هذه الساعة.

واصلتْ حديثها ببرود:

– تصيبك بالغثيان والحال أنك كنت تدخن علبة في اليوم على مدى عشرين عاماً.

التفتُّ إليها من جديد وقلت لها دون شراسة:

– فعلاً، أنت لا تعلمين إلى أي حد كان عليّ أن أمقت السيجارة لأقلع عن التدخين، والآن وقد نجحتُ في مسعاي، تشعلين سيجارة كل مساء بجانبي.

– ولكنني لا أنفث لك دخاني في قاعة جلوسك! وإنما ألقي به صوب الشارع.

قلت لها بصوت خال من العدوانية:

– وأذكّرك بأنني عدلت عن التدخين من أجلك؛ لأنك كنت تريدين أن تنجبي، وكنت أرى نفسي متقدماً جداً في السن، وقلت في نفسي إنني إذا أقلعت عن التدخين، وإن كنت عجوزاً بعض الشيء، فسيكون حظي أوفر في أن أرافق ابننا حتى سن البلوغ. لقد فعلتُ هذا شعورا مني بالمسؤولية، وها أنت تستخفين بي.

– لا أستخفّ بك.

– اعترفي على الأقل بأنني أقلعت عن التدخين من أجلنا، وهو ما لم تستطيعي أن تفعليه، حسب علمي.

– بالنسبة إلي، الأمر يختلف، أنا لا أسرف في التدخين، فلا خطر منه على صحتي.

- قد لا يكون في التدخين خطر عليك، ولكنّ له بالتأكيد خطراً علي، هو أن أعود إليه من جديد.

أطفأتْ على التوّ سيجارتها في المنفضة. فهي ليست ممن يلقي بعقب السيجارة من النافذة. أنها تحترم الغير بطريقتها، لا مراء في ذلك. لم أتمالك أن قلت لها:

- كل هذا لأنكِ لم تنجبي أطفالاً؟

لم تعلّق وطلبت مني أن أعود إلى القناة التي كانت تبث برنامجاً حوارياً كنت قد تركتُه مفضلاً عليه برنامجاً بحرياً. لدي رعب شديد من البحر، ولكنني أجد البرامج التي تتحدث عن البحر مريحة. فأصوات المقدمين رقيقة رقة الزبد حين يرتطم بالرمل الرطب. لم يكن البرنامج الحواري قد انتهى. كان معلّقان بصدد تضييق الخناق على مؤلف جالس على أريكة جلدية صفراء وسط حلَبة من المدعوين والمشاهدين يضحكون ويصفقون حين يومَأُ إليهم. كان الناقدان اللذان لم يكتبا في حياتهما كتاباً جيداً يُهَزِّئان ذلك المسكين الذي لا يحسن الحديث على رؤوس الملأ؛ لأنه فعلاً يجيد الكتابة. ولكن ذينك المغرورين، بطلي الفكر المتهالك، ليسا على ذلك الرأي. كانا ينفثان عليه من رداءتهما التي لا تقف عند حد. كان يبدو مذعناً، وقد شرد ذهنه بعيداً.

- لا أستطيع أن أروّض نفسي على قبول هذا.

- على ماذا؟

- على هؤلاء النقاد.

- ومع ذلك فأنت منهم.

- نعم، ولكني ناقد في فن الطهي، ليس الأمر واحداً. وأنا لا أتحدث إلا عن المطاعم التي تمتعتُ بالأكل فيها. أما المطاعم الرديئة فأكتفي بتجاهلها. ولكن، تأملي جيداً هذين المهرّجَيْن. أنا واثق من أنهما كانا يريدان أن يتخصصا في الحقوق. وحين قيل لهما إن الإنسان لا يمكنه أن يكون في وقت واحد قاضياً،

ونائب حق عام، ومحامي دفاع ومحامي ادعاء شخصي، صرفا نظرهما عن القانون والتحقا بالوسط الأدبي الذي يمكن فيه للمرء أن يكون في آن واحد كاتباً وناقداً وناشراً وعضو هيئة تحكيم لإحدى الجوائز. وانطلاقاً من جمهورية الموز الأدبية التي أسسها هؤلاء الطغاة راحوا يعطون المجتمع بأسره دروساً في الديمقراطية.

واصلتُ غضبي بمفردي:

– ومع ذلك فهناك من يزعم أن الثقافة ترتقي بالإنسان! لا أعرف وسطاً أكثر محافظة ولا رجعية من وسط الفنانين، أولئك الذين يصفهم «قلين قولد»[1] بقردة جبل طارق.

استرددتُ أنفاسي وواجهتها أخيرا قائلا:

– فلتستمتع المرأة التي تعيش تحت سقفي بهذه المجازر، أما أنا فإنها تثير فيّ الشعور بالقرف.

مطّتْ شفتيها قليلاً وجاءت؛ لتجلس على الطرف الآخر من الأريكة. ثم قالت بصوت باهت:

– لا يمكن أن نقتصر على مشاهدة البرامج التي تدعو إلى التفكير.

حككتُ أرنبة أنفي، وهي علامة على أن حساسيتي عاودتني:

– أنا على رأيك، ولكن بين هذا وبين أن ننساق وراء بذاءة من هذا القبيل...!

لم تردّ وأقبلت بنظرها على الشاشة وهي تقرض أظافرها.

سكتّ هنيهة ثم أردفت:

– هل لاحظتِ أنهما لا ينفكان عن الضحك، وأن الجمهور لا ينفك عن الضحك؟

(1) «قلين قولد» (Glenn Gould) (1932–1982). عازف بيانو وملحن وكاتب ومخرج كندي (المترجم).

هزت كتفيها، لم تجد في هذا البرنامج ما يسليها.

وبعد لحظات أخرى قلت:

– لا يضحك هكذا طوال الوقت ودون سبب وفي كل حين إلا العاهرات.

لم يرتسم على وجهها أي موقف. كانت باردة الأعصاب.

– ما عليك إلا أن تذهبي إلى طريق تعمل فيه العاهرات وسترين الضحكة نفسها، ضحكة اليأس.

دارت عيناها في اتجاهي، وقالت:

– وما الذي سيدعوني إلى ارتياد طريق من هذا القبيل؟

– لست أدري، قد يكون الفضول.

اندسّت في الأريكة إلى جانبي، وتركت ذراعها تتدلى من الجهة الأخرى للمسند.

– لا أرى حقاً داعياً إلى الذهاب إلى مثل هذا الطريق، عدا أن أكتشف ما يسترعي اهتمامك لدى المومسات. خصوصاً منذ أن منع البغاء.

– إن ما تفوهتِ به الآن معيب بعض الشيء. فكأننا تحت حكم «بيتان»[1].

أصرّت على قرض أظافرها، وقالت:

– أنا أطبّق منطقاً في غاية البساطة. لقد مرت ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً لم تقربني فيها. ولستَ من النوع الذي يتخذ عشيقة، فهذا بالنسبة إليك أمر بالغ التعقيد ويتطلب نفقات باهضة، هذا ما تقوله أنت نفسك، ولست أرى مانعاً من تصديقك. ومن جهة أخرى فإن قدرتك الجنسية بحسب تجربتي فوق المتوسط بكثير. النتيجة إذاً...

---

(1) «بيتان» (Petain) (1856– 1951) عسكري ودبلوماسي وسياسي ورجل دولة فرنسي. عرف بتعاونه مع النازية خلال حكمه فرنسا من سنة 1940 إلى سنة 1945، وبإقامته حكماً استبدادياً قائماً على الرأي الواحد. وبعد تحرير فرنسا، حوكم ونفي إلى جزيرة «يو» حيث توفي. (المترجم)

ابتسمتُ وقلت:

– لقد كنتِ دائماً موهوبة في الحساب. العادة الشهرية، تحرير البويضة والآن تحسبين عدد الأيام الخالية من الجنس. ولكن هذا الحساب أخرق، فهل توافقينني الرأي؟

أحسستُ أنها تتجنب النزاع. فليس هذا من طبعها. أردفتْ بصوت تكاد تغطيه سخافات أمراء الـ«باف»[1]:

– ألأني لم أعد أستهويك أم لأنك لا تريد أن ننجب هذا الطفل؟

لم أحر جواباً، فتمطيت وتثاءبت، وتلك عندي علامة من علامات الشعور بالضيق.

– أعتقد أني لم أعد في سن تسمح لي بأن أنجب طفلاً. لقد انتظرنا أكثر مما ينبغي.

التفتتْ إليّ فجأة، وقالت بصوت غريب، كما لو كانت هي نفسها في برنامج تلفزيوني:

– لا ذنب لي إن كانت حيواناتك المنوية ضعيفة. بالنسبة إلي، كل شيء على ما يرام. لقد كانت لدينا خلال ثلاث سنوات حلول أخرى، ولكنك لم تَقبَل بأي منها.

– بالنسبة إلى الحيوانات المنوية، اعلمي أن الأمر ليس مردّه إلى سنّي...

– أنا لم أقل إن مردّه إلى سنّك.

– دعيني أكمل. فقد قرأتُ منذ أيام مقالاً بجريدة «لوموند» يقول إن الحيوانات المنوية قد انخفضت بنسبة خمسين في المائة عند الرجال منذ بدايات الخمسينيات، بسبب تعميم استخدام مبيدات الحشرات. فلستُ حالة فريدة من نوعها.

(1) الـ«باف» (PAF) اختصار لـ(Personal Ancestral File) وهو برنامج حاسوبي في علم الأنساب مجاني ومتعدد اللغات. (المترجم)

- لماذا لم تقبل تلقيح البويضة الاصطناعي إذاً؟

- إن فكرة الاستمناء تثير اشمئزازي...

اصطبغ وجهُها بلون قان، وقالت:

- إن لم تكن لك عشيقة، ولا تخالط المومسات، فسّر لي ما الذي نفعله منذ ثلاثة شهور وأربعة عشر يوماً.

هززت رأسي، وأومأت لها بيدي، علامة على استسلامي، وقلت:

- أعتقد أن محاورتنا أكثر منّي عقماً. وأنها، فوق ذلك، بلغت قمة الإسفاف.

- ما أنت بعقيم، وإنك بذلك لعليم. أنت لم تعد تريد أطفالاً، ولم تعد تريدني. قد لا يكون هذا الترتيب صحيحاً، ولكن تلك هي تقريبا النتيجة التي توصلتُ إليها.

ألقيتُ إليها نظرة؛ لأماطلها، وقلت:

- صحيح أنني لم أعد أريد أطفالاً. عندما كنت في التاسعة والأربعين كنت أجد هذا ممكنا. ولكن في الثانية والخمسين، فات الأوان، حقاً.

- لماذا؟

- لأنني أتصور أن أحد البنوك كان يمكنه قبل ثلاث سنوات أن يقرضني مالاً؛ لشراء شقة أكبر. أما الآن فقد أصبحتُ على السفح الآخر للجبل. ذلك السفح الذي يكسوه الجليد طوال أيام السنة. لا أرى من يمكنه أن يجود علينا بفلس. وتربية طفل في شقة بهذا الحجم، أمر غير وارد.

- كان بإمكاننا أن نحصل على شقة أوسع، لو أننا اكتفينا بتغيير الحي.

- تريدين الانتقال إلى الضواحي؟

- دون أن نقع في هذه المبالغات، كان بإمكاننا أن ننتقل إلى حي أرخص.

- لن أترك أبداً «مونبارناس».

- لماذا؟

– تعرفين الجواب جيداً. هذا هو مقامي، ليس أكثر مما أريد ولا أقل. وعلى كل حال فقد فكرت في الأمر ملياً، ووجدت أنني سأكون أنانياً جدّاً لو أنني أنجبت منك طفلاً.

– أنانياً؟

انتفضتْ عند سماعها هذه الكلمة كما لو أن زنبوراً لسعها خلال قيلولتها.

– أعتذر لك إن كنت قاطعاً، ولكن لكي يُنجِب الإنسان طفلاً وهو في الخمسين لا بد له أن يكون قمة في الأنانية، دون مبالغة. إذ هو يعرّض الطفل لفقدان أبيه قبل أن يشتدّ عوده.

– إن معدّل عمر الرجال اليوم، يتجاوز، مع ذلك، الخامسة والسبعين.

– دعك من هذا، إن هي إلا إحصائيات. فوالداي، لم يبلغ أي منهما تلك السن.

– ولكنني، في تلك الحال، سأكون على قيد الحياة.

– هذا ما تقولينه. أما أنا، فقد عرفت زوجين، ناهز الرجل الستين والمرأة الثلاثين. كانت لديهما ثروة طائلة. ولعلهما تصورا أن ذلك يبيح لهما أن ينجبا طفلاً. غير أن المرأة توفّيت ولما تمرّ سنتان أو ثلاث على ولادة ابنتهما. أما هو، فقد وجد نفسه كالأحمق مطالباً بأن يظل على قيد الحياة أطول وقت ممكن.

– ولكنك فكّرتَ في هذا كله قبل أن نتخذ قرارنا.

– في ذلك الوقت وازنتُ بين سائر الإيجابيات والسلبيات. وما رجّح الكفة هو أنني لم يكن لي آنئذ إلا تسعة وأربعون عاماً، وأن المرء في التاسعة والأربعين لا يرى الحياة أبدا كما يراها وهو في الثانية والخمسين. فهو لا يزال في ضرب من النشوة التي تتلاشى تماماً بحلول الخمسين.

كانت سارحة في أفكارها. فاغتنمتُ الفرصة لأقول:

– أعاود التفكير في هذه الحكاية: أنتِ ترَيْن أنه لا يحق لي أن أخشى أن

أموت قبل أن يبلغ الطفل سن الرشد، بدعوى أنك أصغر مني سناً بكثير وأنك ستكونين إلى جانبه في حال حصول مكروه. إن هذا الموقف منك لا يخلو من بشاعة.

أدارت رأسها، كمن سمع صوتاً غير معتاد. ولما رأيت ذهولها، عاجَلْتُها بالقول:

– أنت تركنين إلى الفكرة القائلة بأن هذا الطفل يمكنه، في أسوأ الحالات، أن ينشأ مع أمه فقط دون أن يسبب له ذلك اضطراباً.

– في أسوأ الحالات، نعم. ولكن بطبيعة الحال ليس هذا ما أرجوه له.

– على مهلك قليلاً. لعلك الآن تتوقعين بغاية الهدوء أن تستغني عن الأب في تربية ابنك أو ابنتك؟ على الجملة، أنت تروّضين نفسك في صمت على إنجاب طفل مختل عقلياً. لم يخطر هذا أبداً ببالي مباشرة، ولكنني كنت أستشعره. لقد كان همّك أن تعثري على أب بيولوجي. ها أن معالم الصورة تتضح. شخص في الخمسين، لا يغريه كثيراً أن يلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال، وليست له متطلبات جنسية كبيرة. شخص جيبه مليء، دون إفراط، حتى لا يكون عرضة لمطاردات كل من يعمرن «باريس» وضواحيها من عزباوات أو مطلّقات أو أرامل. شخص واع بوهنه وعياً يصدّه عن الطمع في إثارة الإعجاب، ولكن دون أن يبلغ من الكبر عتياً مع ذلك.

توقفتُ هنينهة، مذهولاً بعض الشيء، ثم قلت:

– وفوق ذلك، من ذا الذي يرضى بامرأة في الخامسة والثلاثين غير رجل في الخمسين؟ إن الرجال ممن هم في مثل سنك يتطلعون إلى بنات العشرين، إن لم يتورطوا مع برجوازية ترتدي «السيريلوس»[1] أنجبت لهم أطفالاً بدقة البندقية الآلية. وربما اتخذكِ أحدُهم عشيقة؛ ليشبع بك نزوات لا يُعقَل أن

(1) «سيريلوس» (Cyrillus) علامة تجارية فرنسية لنوع من أنواع الملابس الجاهزة الفاخرة. (المترجم).

يحقّقها مع أمّ أولاده. أما من هم دون الثلاثين، فحدّثْ ولا حرج. إلا إذا كانوا يبحثون عن امرأة في سن أمهاتهم، وفي هذه الحالة، فإنك تُعتَبَرين صغيرة أكثر مما ينبغي. يبقى الأشخاص الذين لهم بين الأربعين والخمسة والأربعين عاماً، حين يأنسون في أنفسهم الشجاعة ويملكون الإمكانيات؛ للتخلص من زوجاتهم الشرعيات. ولكن هؤلاء، ليسوا على استعداد لإعادة الكرّة، وعلى كل حال ليس قبل الخمسين.

حفاظاً على أظافرها أخذت مخلل أسنان مِنْ على المنضدة الصغيرة الملاصقة للتلفزيون وراحت تمضغه.

ظلت هادئة لا يرف لها جفن، فأصررتُ على رأيي قائلاً:

– لا يمكنك أن تتصوري كم هو مقرف أن يشعر الإنسان بأن امرأة اختارته؛ لأنها تبحث عن شخص لا يعنيها منه إلا أن تنجب منه طفلاً، قبل فوات الأوان. لا يمكنك أن تتخيلي الانطباع الذي يتركه فيه ذلك الشعور. لنقل إنه قريب من شعور فتاة يلاحقها في الطريق شخص وحيد، نظراته مسمرة على عجيزتها.

وقفتُ. لم أشعر في حياتي بمثل هذه الخفة. ذهبت؛ لأحضر علبة جعة من المطبخ. أما هي، فقالت بابتسامة متواطئة:

– أنت تعلم أن الجعة لا تلائمك حين تشرب منها علبة قبل النوم مباشرة.

كانت تقصد ارتجاع الحمض المعدي الذي جعلني منذ بعض الوقت أعتقد أنني مصاب بسرطان المريء. لم تكن تعرفني جيداً في ذلك العهد، وحين أعلمتها بذلك صدّقتني في الحال. لم أر أبداً في حياتي امرأة تحزن لمصابي. وحين علمنا أنه لم يكن إلا التهاباً معدياً مألوفاً جدّاً، دعوتها إلى «القبة»، وهي علبة ليل، في ركن شارع «راسباي»، واحتفلنا بالحدث. وبعد كأسين من الفودكا تونيك وقارورة نبيذ أبيض لم تكد شفتاها تلامسانها، عرضتُ عليها أن تعيش معي. لم أكن متأكداً من موافقتها، ولكني كنت أعلم أنني أحظى بإعجابها، وخصوصاً؛ لسخريتي السوداء. خلال لقائنا الأول، ورغم كرهي للحكايات

ولمن يرويها، لم أتمالك أن حدثتها بقصة المرأة التي لم تتوصل أبداً إلى بلوغ ذروة المتعة مع زوجها، إلى أن عنّ لها يوماً أن تطلق صرخة. فانتشى زوجها وهتف مفتوناً: «قُضِيَ الأمرُ يا عزيزتي، ها قد نجحنا!». فأجابته زوجته آسفة لسوء فهمه لها: «كلا، وإنما هي العنكبوت في السقف قد ابتلعت الذبابة». ضحكنا كثيراً. ولكن هل ضحكنا للسبب نفسه؟ ومنذ ذلك اليوم، لم تتح لنا فرص كثيرة لارتياد المطاعم.

أنا ناقد في فن الطهي في صحيفة أسبوعية واسعة الانتشار. أول الأمر، كنت صحافياً، دون اختصاص. ليس لي شغف بالحقيقة، وليس لي حاسة شم الكلب البوليسي لأحدد موقعها. لذلك ما لبثت أن تركت الإعلام محاولاً أن أقع على عمل ناقد. مشكلة النقد الأدبي، هي أنه لا بد من قراءة الكتب، ليس ذلك إجبارياً، ولكن من الأفضل القيام به. وبما أن أياً كان يتصور نفسه قادراً على نشر كتاب جدير بأن يُدرَج، يوماً ما، في تراث الإنسانية، فإن النتيجة هي أن نرهق عيوننا. وهذا بصرف النظر عما أعانيه من مشاكل في التركيز. ومع ذلك فإنني أحب المطالعة، ولكن بجرعات قليلة، والمكان المفضل لذلك، هو المطعم. في حين أن نقّاد الأدب، مجبرون على القراءة بعد غدائهم، وقد أخذ منهم النعاس، وكثيراً ما يقرؤون لكتّاب لا يملكون، ضرورة، رغبةً في إيقاظهم. فكّرتُ في الاهتمام بالمسرح والسينما، ولكن المنافسة كانت شرسة، والأماكن محجوزة. وقع اختياري أخيراً على نقد فن الطهي إذ كان فيه خطة بصدد الشغور. ففي الصحيفة خرّ عجوز من الأساطين على رأسه ميتاً، في مرق خروف بالكزبرة وفواكه الموسم، قبل ثلاث سنوات من تقاعده. فحللتُ محله على عجل، بدعم من رئيس القسم السياسي، الذي كان يتعجّل الأمور؛ ليتخلص مني. لنقد فن الطهي ميزات كثيرة. فليس في الحياة ما يرغمك على القراءة، ولا على سماع الموسيقى، ولا على ارتياد المسارح أو قاعات السينما. أما الأكل فهو ضروري. وبما أنه لم يكن هناك خيار آخر غير الأكل، فلنستفد من

البهجة الرائعة المتمثلة في أن تتقاضى أموالاً مقابل جلوسك للأكل– خصوصاً حين تتكفل الصحيفة بالدفع. كنت أبذل قصارى جهدي؛ لأقوم بمهمتي على خير وجه. أذهب إلى المطعم بمفردي، وأجلس إلى طاولة منعزلة لأقرأ في هدوء. وفي نهاية الوجبة ألقي نظرة حولي؛ لأستوعب الجو، وأخرج بطاقتي البنكية، ثم أمضي دون أن أعرّف أبداً بنفسي. مجلتي الأسبوعية تُطبَع بعدد كبير من النسخ وصرامتي تثير الخوف. وبصدق، فإن لي بعض التأثير في المهنة. فأنا أمثّل دور صانع القرار في المهنة، في حين يشعر بعضهم بأنه مجبر على أن يظهر بمظهر الطيّب المرح. والنتيجة من الناحية الطبية واحدة، فنحن جميعاً مصابون بالكولسترول وبارتفاع نسبة الدهون في الدم. أما أنا فأصوم الليل أو أكاد.

وبما أنها انتهت من قرض مخلل أسنانها، فقد أردفتُ قائلاً بشهامة:

– أعتقد أن الخطأ ليس مني ولا منك. فحين يلتقي شخصان، يكون لكل منهما ميل – ليس بوسعي أن أفسر لك مأتاه – لأن يقدم كل منهما للآخر الصورة التي يودّ أن يكون عليها. إن شأن المتصاحبَيْن اللذين يكشف كل منهما حقيقته للآخر كشأن التاريخ بمعناه الدقيق: ننطلق من خيال لنعود إلى الحقيقة مع وقت وكثير من الجهد. لستُ الرجلَ الذي أحببتِهِ، ولستِ المرأة التي أحببتُها. ومشكلتنا الآن، هي أن نكون كما نحن وأن نظل صاحبين. قلة من الناس يوفّقون في هذه العملية. وخصوصاً في «باريس» التي يؤول فيها نصف الزيجات إلى الطلاق، دون احتساب الأشخاص الذين افترقوا قبل أن يتزوجوا. إن السؤال الذي يتعين عليك أن تطرحيه هو: «هل أنت على استعداد لتحبّي الرجل الذي هو أنا على حقيقته، وأن تعيشي معه؟».

ألقت عليّ نظرة حادة، وقالت:

– لماذا كذبتَ عليّ فيما يخص حقيقتك؟

هززتُ رأسي، بشيء من الإحباط، وأجبتها:

– لم أكذب عليك، حاولي أن تركزي على ما أقوله لك، بدل مشاهدة هذا

البرنامج السخيف. حين يبين الإنسان لغيره الفكرة التي يحملها عن نفسه لا ما هو عليه على الحقيقة، فهذا لا يُعدّ كذباً، تلك هي الحياة.

وأضفت بصوت خافت:

– صحيح أن الفارق يختلف أهمية بحسب الأشخاص.

مطّتْ شفتيها مرة أخرى باستياء، ودون أن تحوّل نظرها عن الشاشة، قالت أخيراً، وقد توتّرت عضلات وجهها:

– أما أنا، كما ترى، فأظهر للناس كما أنا.

– هذا ما تظنين.

– ما الذي اكتشفتَهُ فيّ، إذاً، ولم يكن متوقعاً منذ البداية؟

– لو أحصيتُ المفاجآت، لظللنا إلى الصباح.

– على كل حال، أنت لا تشتغل قبل موعد الغداء. لنبدأ. ولكني يمكن أن أكون البادئة إن شئتَ. الحقيقة أنني لم أحلم أبداً بأن أعيش مع ناقد في فن الطهي، ولا مع ناقد من أي نوع آخر. أفضّل الناس الذين يتحركون، وإن أخطأوا، على الذين لا يخطئون، لأنهم لا ينجزون شيئاً. قلت في نفسي إن الأمر سيكون رغم كل شيء مسلياً، وإننا سنخرج، وسنجوب «فرنسا» مطعماً مطعماً. فما الذي اكتشفتُ؟ اكتشفت أنني وقعت على المتقشف الوحيد في المهنة، وهو يتغدّى دون أن يقول شيئاً، في يده كتاب، ولا يأخذ صاحبته أبداً إلى المطعم. وتعلته؟ أنه يمتهن مهنة خطيرة تقتضي منه أن يصوم الليل لأنه لا يريد أن ينتهي به الحال وقد كسا الشحمُ أوردتَه.

كان ذلك شيئاً من الجائز لي أن أقوله أنا ربما، لا هي.

خابَ ظني بعض الشيء، ولكني قررتُ ألا أظهر لها شيئاً. فأردفتْ:

–أتعرّفُ على رجل يدّعي أنه فحل، ووفيّ، ومستعدّ لإنجاب طفل، وأكتشف أن ذلك الرجل فقد كل رغبته وصار لا يقبل البتة أن يتحدث عن الأطفال. يحدث أحيانا أن الرجل لا يشتهي صاحبته أيام الحمل أو بعد الوضع.

أما في حالتنا، فإن رغبة الفحل قد توقفتْ عن العمل لسبب مجهول. فالمسألة إذاً، وها نحن نعود إليها مجددا، هي أن نعرف ما إذا كان العَطل عاماً أم إنه متوقف على الصاحبة. وأنا، كما ترى، أظن أنني أعرفك معرفة تكفي لأفهم لأفهم أنك تزور بعض المومسات وأن ليس لك عشيقة. أنا على يقين من ذلك. وهل تدري لماذا؟ لأنك بخيل بالطبع. أن تهدر مالا على مومس، فأنت قادر على ذلك، وإن كان يؤذيك في حافظة نقودك. أما أن تنفق المال على صاحبتك أو على عشيقتك، فهذا حقاً موجع جداً.

قلت لها وأنا أشاهد برنامجاً تلفزيونياً جديداً:

– أعتقد أنكِ سَبَقَ أن قلتِ هذا الكلام.

لقد قررنا ضمنياً ألا نغضب، وربما كان من النادر أن يُرَى شخصان بالغان يتحادثان بهذا القدر من الصراحة دون أن تتدهور المحادثة. وكان للتلفزيون دور كبير في تجريد الصمت من شيء من ثقله. وبما أن الوقفة الإشهارية لا تهمّ أحداً، فقد استأنفنا حوارنا. لقد تعوّدتُ على التفكير بأن نظامنا الاقتصادي غريب، إذ هو يوظف إعلانات إشهارية مكْلفة جدا يتجنب كل واحد منا أن يشاهدها. ولو كان الناس يولونها اهتماماً، لكان في استطاعة أهل الإشهار أن يُعْفُوا أنفسَهم مما دأبوا عليه من تكرار. أقول على رؤوس الملأ: «ولكن تأملوا تلك الإعلانات الإشهارية، رجاءً، وإلا فسيأتي يوم تصبحون فيه مجبرين على الذهاب لمشاهدتها والكلابُ البوليسية في أعقابكم. وستتحسن حالكم تحسناً ملحوظاً، فبأي صورة ستظهرون عندئذ؟». أن يكون للمرء كرامة وألا يفعل شيئاً؛ للحفاظ عليها، فتلك سمة من سمات الجنس البشري التي يضيق بها صدري أكثر من أي شيء آخر.

وبناء على ذلك رددتُ على هجومها بنبرة هادئة تكاد تكون أخوية:

– تعرفين، هناك شيء في النساء يذهلني، وهو أمر يختصصن به. كيف تستجيزين لنفسك أن ترسلي حكماً بمثل هذه الصرامة، إن لم نقل الاستهانة،

على من تقاسمينه حياتك وتواصلين التكيف معه؟ فإما أنك تفكرين حقاً فيما ألقيتِه عليّ، وفي هذه الحالة علينا أن ننفصل. وإما أنك بالغت حتى تلفتي انتباهي، ولكنك إن صح هذا تكونين قد اعتمدتِ استراتيجية خاطئة؛ لأنها تترك ندوباً. وبهذا النوع من الصيغ تُقتَل المعاشرة.

شعرتُ بأنها ارتبكت بعض الشيء وذهبت لتنام. التحقتُ بها بعد وقت قصير. في الليل، وضعتْ يدها علي. كانت حركة حنان تشبه طلب اعتذار. تظاهرتُ بالنوم على الرغم من أن النوم استعصى عليّ. الحقّ، أنني لم أعد أشتهيها. لم أسأل نفسي يوماً بصراحة لماذا. نحن نميل عادة إلى البحث عن أجوبة في كل ميادين المعرفة، ولكن كلما كانت الأسئلة أكثر حميمية هربنا منها. أثناء نظري إلى السقف دون أن أراه في غبش الليل البرناسي، عدت إلى أسس العلاقة التي ربطتْ بيننا. وبعد أن مضت عليّ وأنا في تلك الحالة ساعتان، انتقلتُ إلى الاعترافات. إن اعترافات الإنسان لنفسه هي التي تتطلب منه أكبر قدر من الشجاعة، ولم تكن الشجاعة تعوزني، ولكن بإمكاني أن أُقِرَّ من جهة أخرى بأن حظي منها ليس عظيماً. إن ما استهواني فيها هو جسدها. جسد لا يستجيب تماماً لمواصفات الجمال الراهن، فلم تكن فارعة الطول، وكان مظهرها الخارجي يميزها من كل أولئك النساء ذوات الانحناءات التي تفعل في النفس ما تفعله رقصة البامبا الأرجنتينية من إحباط. وبما أننا في مجال الاعتراف، فقد كانت لها ميزتان لافِتَتان للانتباه، إذ كانت تكشف عن مزاج هادئ، وعن ذهن وقّاد بما يكفي بالنسبة إلى امرأة متوسطة الذكاء أو دون ذلك. هذه المجموعة من الصفات هي التي ولّدت لدي رغبة عارمة في أن أعيش معها، وإن لم أَكُنْ أُكِنُّ لها حباً. وبعد ذلك...وبعد ذلك...في بداية الأمر كانت تَهَبُ نفسها دون حساب. ثم إنها، حين قرّرتُ أنّ تَقَدُّمي في السن يمنعني من إنجاب طفل، أخذت تحسب. وعلى كل حال، فهذا أمر أتفهمه. غير أنها فقدت شيئاً من هدوئها وأرادت أن تتصنع الذكاء مستخدمة براهين لا طاقة

لها بها. فالبراهين في ذاتها لا تساوي شيئاً دون الثقافة التي تلائمها. ومثل هذا تقريباً كمثل المدحرج الميكانيكي الذي لا يساوي شيئاً دون شحم.

انتهت بي تأملاتي إلى النوم، في ساعة متأخرة جدّاً فيما أظن؛ لأن حركة سير السيارات في شارع «مونبارناس» كانت قد استؤنفت. حين استيقظتُ، كانت قد قصدت عملها. اغتبطتُ أن يكون لي شغل بهذه الدرجة من الإمتاع، وهو أمر على غاية من الأهمية بالنسبة إلى الإنسان حين تمر حياته الخاصة بأزمة. تناولت غدائي على الساعة الواحدة بالضبط في مطعم لبناني في الدائرة الثامنة. بدأتُ منذ أسبوع تحقيقاً عن المطاعم اللبنانية بباريس لحساب «ملحق التسلية» في الصحيفة. لماذا وقع اختياري على المطاعم اللبنانية؟ لأن «لبنان» كان بعدُ يتصدّر الأنباء بسبب الحرب بين «حزب الله» و«إسرائيل». كعادتي، انتحيتُ ركناً وأخذت كتاباً؛ تفادياً لنظرات النصر التي ربما أرسلها إليّ جيران لديهم من يصحبهم. لقد جرتْ عادة الناس بتجاهل أكثر أشكال الميز والازدراء انتشاراً، وهي تلك التي تتعلق بالرجال الوحيدين الذين يخفون وجوههم خلف لائحة الطعام. ولست من النوع الذي يشترط الكثير، ما دامت الكتب مجانية، وهو ما يحدث غالباً. فصاحبتي تزودني بالكتب، إذ هي تشتغل في دار نشر. وبما أن المطالعة تدمرها، فإنني ألخّص لها الكتب، ومن ثم فإنها تستطيع أن تنفش ريشها أمام زملائها. كنت قد أخذت معي كتاباً واسع الانتشار، وضعه كاتب أدرك أن الجمهور الذي يُجتنَى منه أكثر الربح، هو جمهور النساء العصريات اللاتي يعلّمن كل صفحة يقرأنها بأنة أو تنهدة، وأن استهداف ذوقهن السيء أقل خطراً بكثير من استهداف رصيد بنك. وبعد أن قرأت ثلاث صفحات من تلك الرواية الضبابية التي قيل عنها إن مستواها أفضل من مستوى سابقاتها؛ لأن صاحبها تحدث فيها عن أسرته، طويتها. إن هذا الكاتب، كلما صدر له كتاب جديد، تصدّر التلفزيون، بلحية لم تحلق منذ أسبوع، لمداراة صلعه الناشئ، وبمظهر

زير نساء وراء اهتزاز في الثقة بالنفس غير خفي. وحين تراه يخيل إليك أنه كان من عبدة العجل الذهبي الذين ينتظرون أن يحلّ بهم العقاب.

*

ما إن انتهى غدائي حتى التقيتُ بعشيقتي. والحقّ أن هذه الكلمة لا تخلو من مبالغة؛ لأنني لست متزوجاً. أدركتْ مباشرة أني كئيب. هي متزوجة، ولم أشجعها أبداً على أن تنفصل عن زوجها. بل على العكس، صراحة، فبإمكانها أن تقر بأنني أنقذت زواجها مرات كثيرة، حين كانت تريد، بنزوع رومنسي، أن تلقي بزوجها عرض الحائط وتترك له طفليهما حتى توقِفَ نفْسَها عليّ. أقنعتها بأن الانزعاج الذي ستشعر به لرؤية ولديها يتألمان سيفوق بكثير المتعة التي يمكن أن تشعر بها حين تصير معي على نحو كلي. وصلنا الفندق الصغير الذي أؤجر فيه طوال السنة، غرفة، يومين في الأسبوع، على مرتفعات «مونمارتر». من تلك الغرفة التي أتصرف فيها بمقابل مقبول جداً، دون أن أتحمل، إلى ذلك، نظرات موظف الاستقبال الكريهة، كنا نتمتع بمشهد لـ«باريس» كلها. وقد وقع اختياري على تلك الغرفة؛ لأنني حين تكون السماء صافية ونسبة التلوث غير مرتفعة، أستطيع حتى أن أرى العمارة التي أقيم فيها بـ«مونبارناس».

منذ زمان، لم نعد نبدأ بالقُبَل. ننزع ملابسنا دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر حقاً، ثم نتبادل بضع كلمات عن أشياء لا قيمة لها. نتفاهم جيداً جسدياً. هي متأكدة أنها بالنسبة إليّ موضوع شهوة لا يضاهى، ولكنها على الخصوص رمز لإثارات أشد تعقيداً لم أجدْ لها بعدُ تفسيراً. ثم ترتدي ملابسها من جديد وتخفي ما استطاعت ما يتركه تمتعنا من آثار في محيط عينيها. ثم أصطحبتها إلى الدكان الذي تديره نصف الوقت. وقد جرت العادة أن أتّصل بها بعد عشر دقائق؛ لأقول لها إنني قضيتُ «وقتاً ممتعاً جدّاً». ينتابني الشك في أنها أكثر تعلقاً بتلك المكالمة منها بالعملية نفسها. في ذلك اليوم، قلت لها إنني قضيت

«وقتاً ممتازاً»، ولكن ينبغي أن نضع حداً لعلاقتنا. بدت مندهشة جدّاً أن أبلغها بقراري هاتفياً.

– لقد دأبتُ على أن أبلغكِ الأخبار الجيدة هاتفياً، ولذلك فإذا تعلق الأمر بخبر أقل جودة، فإنني أستخدم الوسيلة نفسها.

– ولكن لماذا؟

– لأنني قررتُ أن أنجز دليلاً للطهي. لقد أصبح لي اليوم من الشهرة ما يجيز لي أن أقوم به. وهذا سيتطلب مني وقتاً وكثيراً من الرحلات. لقد قررت أن أرفع مستوى طموحاتي.

أخذت تتأوه، فاختصرتُ الحديث قائلاً:

– هيا، لا تكوني أنانية، إذا واصلتِ على هذا النحو، فلن نتقابل مطلقاً.

هدأتْ ورجت لي هامسة حظاً سعيداً بعد أن قالت لي إنها مشتاقة لرؤيتي من جديد.

بالنسبة إلي، كان كل شيء قد انتهى إلى غير رجعة. فرغم أنني ساومت الفندق مساومة شديدة، فإن مواعيدنا كانت تكلفني غالياً. ولكنني اتخذتُ الاحتياطات لعودة ممكنة إن استبدّت بي الرغبة في لقائها. ومعلوم أن تلك الرغبات لا عقلانية إلى حد بعيد.

في البيت كانت صديقتي في انتظاري. أحسستها تائهة بين أمرين أحلاهما مرّ، ولكن جملة واحدة مني أعادت إليها اطمئنانها.

– سنذهب هذا المساء، إن شئت، إلى المسرح وبعده إلى المطعم.

بدأت تضطرب هنا وهناك. فقلت لها إنني لا أريد أن أسمع أبداً ذلك الضرب من التقريع الذي وجَّهَتْه لي البارحة، وإنني بهذا أعطيها الدليل على أنني لست بخيلاً، وأقسمت لها بشرفي أنني لم أتعامل أبداً في حياتي مع المومسات. بدت مرتاحة. كانت المسرحية تُعرَض في مسرح «فرحة– مونبارناس». لم يقع اختياري عليها بناء على آراء النقاد فيها – فأنا لم أطلع على تلك الآراء –

ولكن لأن المسرح كان على مرمى حجر من بيتي. كان في المسرحية أشياء قليلة جيدة، ولكن الحبكة قديمة. كاتبها مؤلف فرنسي لم أعد أذكر اسمه جيداً وهو يعيش في شمال إفريقيا. كان نصه استطراداً حول الوحدة والحياة التي تنسلّ على أطراف الأصابع ولكن بسرعة كبيرة مع ذلك. ولقد اتصلتُ بأحد نقّاد الصحيفة فعزز وجهة نظري، وهو أمر كنت في سري فخوراً به. ثم ذهبنا؛ لتناول غلال البحر في مطعم «القبة». انتظرت أن يحضروا لنا النبيذ لأخرج لها السلاح الثقيل. بدأت بالدليل. كادت محادثتنا تتخذ منعرجاً سيئاً؛ لأنها سألتني كيف لدليلي أن يحتلّ موقعاً وسط رزم الكتب التي تملأ المكتبات. أجبتها أن اسمي، بالفعل، هو الذي سيصنع الفارق. رفعت حواجبها، ثم من باب الحذر، سرعان ما خفضتهما. غير أنها فتحت عينيها واسعتين حين أردفتُ بأنني، في حال نجاح الدليل، أكون على استعداد لشراء شقة أكبر وللانتقال من الحي. تحدّثتُ عن «مونمارتر» وأثرتُ إمكانية العثور على شقة جميلة بمساحة ستين متراً مربعاً تطل على باريس كلها، ويمكننا منها أن نرى «مونبارناس». أما ما تلا ذلك فإنها لم تكن تتوقعه:

– فكرتُ في حكاية هذا الطفل.

قالت دون أن تشعر وهي تدعك منديلها الأبيض بين يديها:

– آه، حقاً؟

– أقترح عليك حلاً وسطاً. يمكننا أن نتبنى طفلاً.

ردّتْ بعفوية، كما لو أن المفاجأة أذهلتها:

– لماذا، نتبنّى؟

شفطتُ محارة سمينة بعد أن سقيتها بالليمون:

– لا أدري، إن المسرحية هي التي ألهمتني هذه الفكرة.

– لماذا المسرحية؟

– لا اعرف جيداً.

كنت صادقاً. أحياناً يكفي استحضار مشكلية؛ لإثارة اهتمام أذهان وقّادة كذهني. واصلت حديثي، مركزاً:

– إن ما يمنعني من التفكير في إنجاب الطفل، تعرفينه، هو أنني يمكن ألا أعيش حتى يبلغ سن الرشد. أما إذا كان الولد بالتبني، فالظروف تختلف. سنخرجه من بؤسه ومن وحدته، وهذا في ذاته لا يستهان به. وإن هو فقد أباه بالتبني قبل الأوان، فلن تكون المأساة واحدة. وإن استطعنا أن نحصل على صبي حديث الولادة، فيحسن بنا ألا نتردد. الشرط الأخير أن تتولّيْ أنتِ متابعة الإجراءات، فليس بوسعي أن أنجز دليلاً للطهي وأن أملأ استمارات التبني في آن واحد.

أصبحت مبتهجة كطفلٍ صباحَ عيد ميلاد المسيح. وحين استُنفِدتْ مواضيع أحداث الساعة، انقضّ كلٌ منا على صحنه. الفرق بين اليوم والأيام الخوالي، أننا اليوم يبتسم أحدنا للآخر إذا رفعنا رؤوسنا. عدنا إلى البيت ونحن نذرع شارع «مونبارناس» متخاصرين.

– هل تعلمين يا عزيزتي؟ أعتقد أنه يتعين علينا أن نتخذ مزيداً من البعد عن الأشياء. فحين يعيش الإنسان في أحد أجمل الأحياء في عاصمة أجمل بلد في العالم، فإن الشكوى تعني نقصاً في الأريحية الذهنية. ألا توافقينني على ذلك؟

أبدت موافقتها. كانت في منتهى الاسترخاء وجاهزة. تمددنا. التصقت بي. ظللتُ جامداً كالرخام. لايمكننا أن نحل كل المشاكل في سهرة واحدة. في الليل تنفّستُ الصعداء.

صباح اليوم الموالي، التقيتُ بجارتي. كانت عارضة أزياء في الستينيات. أما الآن فهي مدمنة على النبيذ. أي فكرة خرقاء أن يجعل الإنسان حياته كلها مرتهنة بجماله وحسب.

# ريح الشرق

لم يعد بوسع أحد أن يدخل الرواق. كان المدعوون يزيدون على الحد في أحد تلك الطرق الضيقة التي تنحدر إلى نهر «السين» والتي لم أَعُدْ أذكر اسمها. كانت النساء يَمِشْن، كأسَ شامبانيا في يد وسيجارة في اليد الأخرى، أمام رجال متأنقين في لباسهم حتى يتميزوا من غمار الناس الذين ليسوا من الفن في العير ولا في النفير. كان ذلك العالَم الخاص من الناس يتكلمون عن لا شيء، وعلى كل حال فلم يكونوا يتكلمون عن لوحاتي. قبل سنتين، في هذا المكان عينه، كنا نُعَدّ على الأصابع. ولكن منذ ذلك الوقت ازدادت قيمة لوحاتي عشر مرات حسب الصحف، ويرجّح الخبراء أنّ نجمها في صعود. كانوا يعدّونني طليعياً. والطليعة الحقيقية في عصر من العصور يعسر دائماً تحديد موقعها؛ لأنها بطبيعتها متقدمة؛ ولأنه قلّ من كان على حظ من بُعد النظر يخوّل له أن يقف عليها. ومن ثم فإنه ليس بالإمكان أن نعرف حقاً أين توجد الطليعة. وبالمقابل، فلا يجوز لنا أن نخطئ من يدّعي الانتساب إليها. من اليسير علينا أن نتعرف عليهم، إذ أنهم لا يملكون إلا أن ينحطوا بالفن إلى مستوى رداءتهم، وأن يقيموا نظاماً قمعياً وسائطياً مقفلاً بإحكام يحميهم من أولئك الذين قد يفنّدون تمويههم.

وصل صديقي «سالومون فايل»، وكأنه دُوريّ نجا على التوّ من هجوم طير كاسر. أشعرني مقدمه بالارتياح، وإن كانت صاحبة الرواق لطيفة جدّاً، وكانت تبذل جهوداً كثيرة لتظل إلى جانبي.

وبطبيعة الحال، فإن عصابة الدواجن المرحة التي كانت تزقزق عن طريق المحاكاة الصوتية، لم تأت إلى هذا المكان للشراء، وإنما جاءت لتسكر بالمجان. حين كانت لوحاتي لا تساوي شيئاً، لم تخطر فكرة شرائها على أي منهم. والآن إذ يتم الإعلان عن قيمتها المرتفعة، لم يعودوا قادرين على اقتنائها. ومن حين

لآخر، يشعر أحد المدعوين بأنه مجبر على تهنئتي بعبارات مبتذلة مستقطرة، مصحوبة بنظرة زائغة ومتعالية: «بالتأكيد، ها أنت تصبح رساماً فرنسياً كبيراً». فأجيب: «ولماذا فرنسي؟». حمقاوات نباتيات، مشدودات البشرة من الرأس إلى أخمص القدمين، يُلقِين عليّ عبارة «أنا أعشق رسومك» بسرعةِ قاذفة قنابل أمريكية تلقي النابالم على إحدى قرى الفييتكونغ. كانت صبيات صغيرات يتسللن بين المدعوين على أطراف أصابعهن؛ ليضفين شيئاً من الاستدارة على أعجازهن المسطحة بفعل حِمْيات التنحيف التي تنصح بها الصحف التي كن يشتغلن فيها-، ولسان حالهن يقول: «أريد أن أُرَى ولكن لا أريد أن أزعج». وحين يعثرن علي، كن يُلقين إلي بابتسامة صغيرة متوترة معناها: «لقد تعرفت عليك، وستتاح لنا فرصة اللقاء مرة أخرى». ولكن الداهية الدهياء، في النساء ممن هن في سني اللاتي كن ينظرن إلى لوحاتي بعناية دون أن يرينها؛ لأنهن كن يرفضن أن يضعن نظاراتهن أمام الناس. كن يتعلقن بذراع صديقة أكبر منهن سناً - من أولئك النسوة اللائي لا يترك ردفَا الواحدةِ منهن لورقة سجائر أن تَمُرَّ بينهما- وهن يلوّحن بحقيبتهن اليدوية من نوع «شانيل»[1] معبرات عن قلقهن لترك أزواجهن ينتظرنهن. على الرسام أن يحب الإنسانية، ولكن يبدو أن قوى عليا تسعى إلى أن تمتحنه فتضعه إزاء كائنات جَعَلَتِ اللاجدوى نمطاً للعيش. علق «سالومون» قائلاً:

- إنهم أشبه بدرّاجيّ يقرر في طواف فرنسا ألا يقود دراجته إلا في المنحدرات.

من «باريس» إلى «نيويورك»، ومن «لندن» إلى «دبي» يحملون زهوهم المطليّ بالعناية التي يبذلونها؛ لترويج فراغهم. إنهم مواطنو العالم الحقيقيون، الذين سكن ألمهم بصورة لا يجرؤ أكبر المصابين بالحساسية على أن يحلم بها.

(1) «شانيل» (Chanel) دار أزياء فرنسية مختصة أيضاً في العطور ومواد التجميل والمجوهرات والجلديات. (المترجم).

إنهم حاضرون في كل الأعياد، وفي كل حفلات تدشين معارض الرسم، وفي كل الجنائز. في كل العواصم، يستقرّون برشاقة في تلك الفضاءات المتشابهة التي يحسّون فيها بأنهم في بيوتهم، كما لو كانت الأسلاك الشائكة التي تحيط بعالمهم المغلق تخترق البحار وأنهم يسلكون دوماً ممراً واحداً لا يتغير. يجوز لنا أن نتخيل أنهم نموذج الايمان الوثني في العصور الغابرة. إنهم يكتفون بعدم الايمان بالموت؛ لاقتناعهم بأن وجودهم الضبابي لا نهاية له. وهم من هذه الجهة على حق؛ لأن البخار والسماء شيء واحد. كنت أحدّث «سالومون» بهذا، فردّ عليّ قائلاً:

- يبدو لي أن هذه الإنسانية أشبه بقارب شراعي صغير تهبّ عليه كل النسائم في محيط هادئ، ولكنه ما إن يرتفع الموج قليلاً حتى يعود إلى الميناء.

كنا بلا حراك أحدُنا إلى جانب الآخر. وحولنا كان المدعوّون لا ينفكّون يدوّمون. أضفتُ قائلاً:

- إنهم استعارة لأكل لحم البشر. ألاحظتَ كم يتلاحسون قبل أن يأكل بعضهم بعضاً؟

- كأنّ «جول رومان»[1] عناهم بقوله المأثور إن لم تخني الذاكرة: «ما جدوى أن يكون المرء سعيداً إن كان غيره سعيداً أيضاً؟».

- لو وهبتَهم الصحراء، لوجدتَهم أمامك بعد أسبوع يسألونك رملاً.

لم يكن ذلك شراسة منا، وإنما كان استجابة لحاجة من أكثر الحاجات طبيعية: هي أن نتنفّس. شُراةُ لوحاتي شيء، وممثّلو هذا الجنس الفريد من نوعه شيء آخر. ربما التقوا في عشاء يتناوله الحاضرون جلوساً، وهو أمر يزداد ندرة لدى مرتادي تلك الأوساط، وربما تصفحوا مقالاتهم في طائرة، حين تكون الغيوم من السمْك بحيث تمنعهم من أن يستغرقوا في أحلام اليقظة أمام الكوّة الجانبية.

(1) «جول رومان» (Jules Romain) (1885–1972) شاعر وروائي ومسرحي فرنسي، عضو الأكاديمية الفرنسية. من رواياته «موت أحدهم» و«الأصدقاء». وله سلسلة روائية بعنوان «الرجال الطيبون» تضم 28 جزءاً، ألفها بين 1932 و1946. (المترجم)

كلا، فشراة لوحاتي هم جمّاعون خواصّ يقدّرون عملي، ومتاحفُ متفرقة في العالم، وانتهازيّون ينظرون إلى الأشياء من منظور الاقتصاد الكلي. ها قد صرتُ اليوم «قوة كامنة لارتفاع الأسعار». لا، بل إني اتخذتُ منذ عهد قريب ضرباً من المساعد الفني يتفاوض في المبيعات نيابة عنّي، وينصحني مثلاً بألا أفرط في «الإنتاج» للحفاظ على الضغط على الطلب. فلا شيء يقض مضجع ذي الثروة أكثر من إدراكه عدم توفر أي لوحة لرسام دارج في الوقت الراهن. لا أستطيع أن أقول إن هذا النظام يعجبني، ولكنني طالما عانيت سابقاً حتى صرت اليوم أُسْلِم قيادي للسوق. ومهما يكن من أمر، فما هي إلا تنازلات غير ذات شأن، إذ أني لا أرسم إلا ما أريد، وحين تكون لدي الرغبة في ذلك.

وبمعدل لوحة مبيعة كل ثلاثة أيام أو أربعة، بثمن مائة ألف يورو لكل منها، فأنا أَدْخُل ذلك العالم المقفل بإحكام، عالم الفنانين المدللين من ورثتهم. ليس لدي أبناء، وقد لاحظتُ أن إخوتي وأخواتي صاروا يُظهرون حدباً عليّ حين ارتفع رصيدي ارتفاعاً مشهوداً، منذ ما يناهز ستة أشهر.

في أثناء ذلك توفي أبوانا في ظرف بضعة أسابيع. وبما أنهما كانا يقضيان حياتهما في التشاجر، فيبدو أن الباقي منهما على قيد الحياة، وهو والدي، لم يتحمل أن يعيش في هدوء، وأنه فضّل أن يلحق بوالدتنا إلى ضريح الأسرة؛ ليستأنفا مشاحناتهما. ولو ماتا في يوم واحد لكان ذلك أفضل، ولكن لا ينبغي أن يكون الإنسان فظّاً غليظ القلب؛ ليطلب من رجل تسعينيّ خدمةً من هذا القبيل. هكذا اختفى جيل في أسبوع واحد. ويعتقد الكثيرون، أنها كان ينبغي أن تموت منذ زمن طويل. ولكن، ما الحيلة، وقد جعل الأطباء السحرة حالياً ما كنا نسميه سابقاً أمل الحياة أمرا يكاد يكون يقينياً.

لم يكن بإمكان أبوين كأبوينا مصابَيْن بداء التصلب النفسي إلا أن ينجبا أطفالاً مغالين في التحفظ أو هامشيين لا يرجى لهم شفاء. وهذا ما حصل. فأخي الأكبر يعيش وحيداً في ركنه، لم يتخذ أبداً زوجة ولا عشيقة، ولا هو ممن

يعشق الرجال. حين أتأمله يبدو لي أنني أرى نفسي مبكراً مائة مرة بالعدسة المكبرة. لا أعرف عنه شيئاً ولا عن عالمه الباطني، الذي يبدو أنه غني جداً، ولكن لا يرشح منه شيء أبداً. تَحْدُثُ بيننا أحياناً نواة حوار تختفي كما تختفي الومضة التي تشعل غازها. هو يقيم في «فيل نوف سان جورج» في بيت صغير قريب من السكة الحديدية؛ لأنه يعشق هدير القطار. وخصوصاً هدير القطار السريع، إذ هو، كما يقول أخي «أشبه ما يكون بالصفير المتعالي لقنبلة تقترب من هدفها دون أن تنفجر أبداً». يقضي أيامه بين جدران أربعة وسط مجسَّماته المصغرة، من سيارات، وقطُر، وطائرات، وجنود من رصاص. هذا البائس المسكين يعاني من قهر العالم ما جعله ينشئ عالماً على مقاسه، أصغر منه خمسين مرة؛ ليضمن لنفسه شيئاً من الهيمنة على تلك الأجسام الجامدة التي لا تثير سخطه أبداً. تلك سمة من سمات طبعه: لا ينبغي أبداً أن يُسخِطه أحد. أزوره زيارات قصيرة مرة كل شهرين أو ثلاثة أشهر. حين يفتح لي الباب، أرى على وجهه علامات بهجة تأخذ في التلاشي كلما تصرّمَتِ الدقائق، فأمضي قبل أن يضيق بحضوري ذرعاً. إن اهتمامه بمجتمع الناس يشبه البطاقة الهاتفية المستخدمة في مكالمات بعيدة المدى، تنتهي شحنتها بسرعة خاطفة. وهو، كأمثاله من المصابين بالذهان، يملك حضور بديهة مذهلاً في المواضيع التي تهمّه. وهو لا يشبه الكلب المدرّب في شيء. ولكن إن استهواه أمر، انقض عليه ولم يترك أي أثر للحم على عظمه. جمعتُه مرة بأحد الأساطين في ميدان يشغله، هو المحافظة على البيئة. لم تستغرق المقابلة نصف ساعة، ولكن المتخصص أحس نفسه طفلاً صغيراً، بعيداً عن معلومات أخي سنوات شمسية. عرض على أخي أن يعمل معه، ولو بطريقة غير رسمية، ولكن أخي، البرّيّ، رفض عرضه. وقال إنه راض بعمله حاملَ نقالات في المستشفى؛ لأنه يتركه مرتاح البال. وفي المساء حين يحرك سياراته الصغيرة على الموكيت المتهرئة في قاعة الجلوس؛ ليدرس ذرات الغبار بمجهره، يقدّر احتمالات زوال الجنس البشري

ملاحظاً كيف يدمر محيطه. وخلافاً لعدد كبير من معاصرينا، فهو منسجم تمام الانسجام مع قناعاته: فهو قبل كل شيء يستحمّ بالرشاش في وقت قياسي. ثم إنه لا يتعاطى أي علاج بالهرمونات، وخلافاً للنساء اللاتي يتناولن حبوب منع الحمل، فإنه لا يلقي بأي أستروجين[1] يمكن أن يؤدي إلى تغيير جنس الأسماك في النهر، فهو يتبوّل في الخارج معتبراً أن الأزوت الذي يُنتِجه له تبعات أقل من عينة الماء الضرورية لصرف بوله. وهو بالإضافة إلى ذلك لا يملك سيارة. ثم إنه لا يربك النظام العام إلا إذا قصد وكيلَ بيعِ سيارات وأخذ يتبوّل على أغطية عجلات كل السيارت التي تطرح أكثر من مائة وخمسة وعشرين غراماً من ثاني أكسيد الكربون في الكيلومتر الواحد. وهناك إلى الآن أربع عشرة شكوى ضده في هذا الموضوع، ورغم إعادته الكرّة مراراً فإنه اعتُبِر غير مسؤول. وقد حُكِمَ عليه بتعاطي علاج في مستشفى للأمراض العقلية، فلم يتخلف حصة واحدة. يأتي، ويسجل حضوره، ويجلس أمام الطبيب النفساني، ولا يجيب على أي سؤال يطرحه عليه، ويمضي بهدوء. اللحظة الوحيدة التي يوجد فيها بيننا تواطؤ حقيقي هي حين نتحدث عن أبوينا، والمرة الوحيدة التي أراه فيها يضحك كالطفل، هي حين أوجّه إليه الجملة السحرية: «إنهما لا ينفكان يتشاجران، وهما متفقان على كل شيء». فكّر أبواي مراراً في أن يؤوياه في ملجأ، ولكن، كما يقولان: «لم نأنس في نفسينا الشجاعة على ذلك».

كانت أمي قد حملتني؛ لأنّ أعراض «اختلال» أخي لم تظهر إلا حينما بلغ الرابعة من عمره. ولولا ذلك لما أعاد والداي التجربة فيما أظن. وقد زادت خيبتُهما معي؛ لأن مظهري كان يشي بأنني عادي. ولذا فإنهما سرعان ما فضّلا أخي لأنه، على الأقلّ، كان معذورا لمرضه وكان المجتمع يتعامل معه بوصفه كذلك.

---

(1) الأستروجينات (Oestrogènes) هو هرمون من الهرمونات شبه الكيميائية التي تسبب نمو الصفات الجنسية الأنثوية في الإنسان وفي حيوانات أخرى. (المترجم).

لم ينجح شيء في إنشاء لُحمَة بين والديّ. لم يكونا يريدان حقاً أن يتزوّجا، ولكنهما تزوّجا. ولم يكونا أيضاً يريدان أن ينجبا أطفالاً، ولكنهما أنجبا أربعة. النصف الثاني من الخَبزة حقّق لهما ما كانا يصبوان إليه. إلى درجة أنهما، حمدا الله أن وهبهما الطفلين الأخيرين كما يحبان، تبنّيا طفلاً فيتنامياً، لاجئاً من أهل القوارب، سقط من القارب في المياه الضحلة. عامله أخي الصغير وأختي الصغيرة كما لو كانا أبويه الحقيقيّين، والحق، أن أبوين وأمّين كانوا أكثر مما يحتمل طفل متخلّى عنه، فاختفى يوم أحد في عيد الفصح، وكان قد بلغ الخامسة عشرة، ولم نره من يومها.

منذ وقت مبكر قررتْ أختي الصغيرة أن تكرّس حياتها للإله وللإنسانية، وأن تصبح، كما تقول، «كائن حب». ولكنّ حبّ الغير ليس قراراً يُتّخذ، لذلك سرعان ما وقعت في عيوب النفوس التي تدّعي الشهامة، فكرست نفسها للإحسان إلى الغير خصوصاً إن كان بعيداً. لقد عبّأت آلاف الكراتين بالأدوية المنتهيةِ صلاحيّتُها إلى بلدان في إفريقيا السوداء، ولكنها لم تحرّك أبداً ساكناً من أجل الصعلوك الذي ينام أمام باب عمارتها في «مونبارناس»، وقد لفّ جسده في غطاء ممزق من الريش. فهي ككل الناس تخشى الفقراء وواقعهم، أولئك الذين يواجهونها عنوة أمام مقرّ سكنها. ولكن أكثر ما ألومها عليه هو لغتها، وهي مركّز مدهش من الحماقات التي تتداولها مع أتباع مذهبها. فهي لا تنطق بجملة دون أن تذكر فيها «المحبة» أو «إكرام الغير». هناك وميض خفيف يرشح دائماً من عينيها، ويُخشى يوم تنطفئ فيه الشعلة، عندها ستصاب بانهيار عصبي يتركها مجندلة. إنه لمن المجازفة دائماً أن نتوسل بالإله؛ لنخفي خواءنا الباطني. ذات مرة كنت متعجرفاً معها بعض الشيء، فقلت لها: «لا يمكننا أن نحب الغير إن لم يكن لدينا حدّ أدنى من حب النفس. ليس معنى هذا أن تكوني مجبرة على عشق نفسك، ولكن بين هذا وبين أن تتصرفي كثعبان يريد أن يتخلص من جلده قبل أوان طرحه ثمة مسافة». وبديهي أن إفراطها في محبة

إنسانية افتراضية قد حال دونها ودون العثور على رجل. وباختصار، فكلما تدنّت معرفتها بالحب، زاد حديثها عنه، وزاد حظ حديثها من الإملال.

وبقدر ما كنتُ عديم الإحساس بالشفقة إزاء أخي الأكبر؛ لأنه لم يكن في حاجة إلى تلك الشفقة، كانت أختي غالباً ما توحي إلي بذلك الشعور. ليست قريبة جداً من أخينا الصغير على الرغم من أنه، هو أيضاً، شديد الإيمان، إلا أنه ينزع أكثر إلى اليسوعية المناضلة. لو طُلب مني أن أعرّفه بكلمة واحدة، لقلت إنه منحرف كبير، بمعنى أن له قدرة مدهشة على استدراج الغير، فهو لا يحترم الشر أكثر مما يحترم الخير، ولا يقيم، ببساطة، بينهما فرقاً. فهو يرى من واجبه ألا يراعي شيئاً، خصوصاً بالنسبة إلى الوعود، وله قدرة عجيبة، لا على التأقلم مع الظروف وحسب، بل وعلى الانصهار فيها. إنه يخون بالسهولة التي يتنفس بها، غير أن مَكْرَهُ متوقَّع بقدرٍ يجعله عاجزاً عن إحداث أي مفاجأة. هو يشتغل في إحدى الصحف. ومذ صار غيرَ بعيد عن أبواب الإدارة العامة التي طمح إليها من اليوم الأول، غدت الكراهية التي يكنّها له مرؤوسوه ذات حظ من الإجماع كاف؛ ليجعل مستقبله مشرقاً. إن الخونة الكبار نادراً ما يكونون فاسدين. فلو توفر لهم المال لَصَرَفَهُم عن تقواهم الدنيئة. لا نتحادث أبداً تقريباً. يعتبرني أخي كائناً غير عقلاني، خاضعاً لنمط من أنماط التعبير الفني لولاه لكنت حطاماً. وهو يندّد بقصور وعيي السياسي؛ لأنني لست مهموماً بمقامي في «المدينة». وخلال عشر سنوات لم نتقابل إلا مرتين في جنازتي أبوينا المتعاقبتين. لم نتحادث. فقط قبل أن أغادر جنازة أبي قال لي إنه كان قد شجّع أحد صحفييه على أن يكتب عني مقالاً. قلت له إنه في حِلّ من تشجيع أي كان: فجميع الناس اليوم يكتبون عني. بديهي أنه لم يكلف أي صحفي، فهو ليس من النوع الذي يحابي أقاربه، وهو يفضل الاشتغال في قضايا تعود عليه بريع أكثر بكثير في مستقبله، وإن أدى به ذلك إلى أن يلوّث سمعته.

إضافة إلى ذلك، حدث لي في الأسبوع الماضي خلاف خطير مع صحفيّة

تعمل في مجلة إنجليزية مواكبة للجديد؛ لأني رفضتُ أن أجري معها حواراً. لقد كان من حقها أن تكتب عني ما شاءت، ولكن إن أنا وافقتُ على إجراء الحوار معها فهذا معناه إما أنني لم أقل كل شيء في عملي، وإما أنني أحكم على المعجبين بي بأنهم من التفاهة بحيث يتعين علي أن أوضح لهم معنى أعمالي. والظاهر أنها لم تتعوّد على أن يرفض أحد طلبها. فشتمتني، وقالت في النهاية: «سيكون مصيرك كمصير «جاكسون بولوك»[1]، وإن لم تكن لك موهبته، فتتبوّل وسط المدعوين في حفلات الحدائق».

وبعد افتتاح معرضي في «الحي اللاتيني»، عدتُ إلى بيتي، وهناك، في كنف السكون الذي يعمّ معملي الذي أتّخذ منه أيضاً شقة للسكن، قررت أن أغادر «باريس». لقد اكتشفت، بكل بساطة، وأنا أجلس على أريكة من الجلد الرمادي الممزق في الزوايا، وقد ثبّتّ ناظريّ على السماء الليلية أن تلك المدينة لم أعد أطيقها. لم تعد «باريس» إلا وهماً متداعياً للسقوط، يكاد شبّانها يعتذرون إذا تنفسوا، وهم، في سنهم، يخشون الشيخوخة. قد أكون في نظركم مصاباً بالذهان الهذياني.

منذ وفاة والديّ، كان بيت مدينة «دوردوني»، الذي ورثه أبي عن أبيه، ملكية جماعية. كدنا نبيعه، غير أن العملية كانت تحتاج إلى وقت طويل. فقد كان ينبغي أن نبدأ بتقويم العقار، وأن يتفق الأبناء الأربعة بعد ذلك على الثمن. يضاف إلى ذلك أمر لم نكن نحسب له حساباً: هو أن نعثر على طفل القارب؛ لنسلّمه منابه الشرعي من التركة. كان يُفترَض أنه بلغ الثلاثين آنئذ. وبما أن أحداً لم يتمكن من أن يحدد موضعه، فقد تقرر أن نباشر عملية البيع، وعلى كاتب العدل أن يتّخذ الإجراءات؛ للاحتفاظ بنصيب الابن الضال الذي كنا جميعا نتوجس لقاءه، وليس السبب المال الذي سيعود إليه، بقدر ما هو خوفنا

(1) «جاكسون بولوك» (Jackson Pollock) (1912 - 1956) رسام أمريكي من أتباع التعبيرية التجريدية، كان له تأثير حاسم في مسار الفن المعاصر. (المترجم).

من أن نجد فيه الشخص الطبيعي الوحيد في العائلة. في ذلك المساء، رفعتُ سمّاعة الهاتف المصنوعة من الباكيليت[1] الأسود واتصلت على التوالي بأخويّ وبأختي؛ لأعلمهم بعزمي على شراء البيت.

وافق أخي الأكبر بلا مبالاة، ووافق أخي الأصغر، وهو يقدّر، كعادته، أن لديه الوقت الكافي للتراجع. أما أختي فقد أصرّت على فكرة أن يبقى البيت في الأسرة. كانت تنتحب في الهاتف، مما أفقدني أعصابي، وقالت وهي تتمخّط:

– ولكن لماذا أنت قاس معي إلى هذا الحد؟

أجبتها:

– أنا لا أقصدك، ولكن لا يغيظني شيء بقدر ما يغيظني هذا الحنين إلى العهود الماضية، وهو حنين مختلق برمته منذ وفاة أبوينا. إن الأمر لمثير للسخرية حقاً، فلم يكن أحد منا سعيداً أبداً في ذلك البيت البائس، وإن أنا اشتريتُه فما ذلك إلا لأعطي تلك البناية الفرصة لتتنفّس.

ختاماً عثر كاتب العدل على أخينا بالتبني في الدائرة الثالثة عشرة بباريس. لم يعد هناك ما يمنع البيع. لم يرغب في لقائنا، أخذ نصيبه من المال، واختفى هذه المرة نهائياً. يبدو أنه يمتهن شراء السيارات المستخدمة وبيعها، وهو لم يتزوّج. كنت، حتى آخر لحظة، أتوقع من أخي الأصغر أن يغدر بي، ولكنه اكتفى بأخذ نصيبه دون أن يثير أي مشكل. من الجدير بالذكر أن قيمة المِلْكية تضاعفت خلال السنوات الخمس الأخيرة، ولعل بعضهم ابتهج ألا يكون أبوانا قد ماتا في وقت سابق.

حين أعلنتُ أنني ذاهب؛ لأتوارى في «دردوني»، نظر إليّ أهلُ الوسط الذي أعيش فيه بعين الشفقة. فهؤلاء الحضر يرون أن الريف لا يُحتمَل أكثر من يومين متتاليين، وربما أقل من ذلك، شريطة أن يقبل «أصدقاء» «باريس»

(1) الباكيليت (Bakélite) ماركة تجارية تطلق على مادة بلاستيكية مكونة من الفورمالين المعالج بحامض الكربوليك. (المترجم).

التنقل إلى ذلك المكان. وإلا، فالمتوقع أن يبقى الإنسان وحيداً في بيت منعزل، هذا إذا رضيت المرايا بأن تعكس له صورته الحقيقية. إن جنسنا يشهد منذ مدة وجيزة حركة متناقضة مدارها على التحابّ والتنافر بلا كلل. لديّ على الأقل ميزة: فأنا لا أزعم أبداً أنني على حق وأتحمل تماماً تبعات صعلكات ذاتيتي. وبصراحة، فإنني لم أكن مطمئناً حين انتقلتُ إلى «دردوني». فقد نسجَتِ السخافةُ الباريسية شِباكَها تحت عينيّ طوال ثلاثين عاماً، وكانت المرارة التي حملتُها منها تغذّي لوحاتي. كان يمكن لاضطراباتي العصبية أن تدمّرني. ولكنها حفزتْ لا شعوري في الأماكن المظلمة التي لم تطأها بَعْدُ قدما إنسان. ليس هذا هبة، وإنما هو مقابل للعذاب، ولا فخر.

لست من أتباع مدرسة تمثيلية، فلا تنتظروا مني وصفاً تفصيلياً للبيت على خلفية استعارة ريفية. فهو مشيّد على قمة رابية قروسطية. يمتدّ أسفلَه سهلٌ واسع كان الكاثوليك والبروتستانت قد ذبّح فيه بعضهم بعضاً باسم إله واحد. لم يبق من تلك المعركة سوى ذكرى مذبحة من مذابح كثيرة وقعت لسبب ظلّ مريباً. يؤدي إلى البيت طريق يتلوّى وسط أشجار كستناء يانعة وأشجار سنديان هزيلة. سقيفة حجرية تنبئ بمدخل الملكية، غير أن المظهر العريق الذي يتخذه البيت لا يكفي للإقناع بأنه كان عريقاً في يوم من الأيام. البناية الرئيسية، المشيدة على مستوى الأرض، مستطيلة ومغطاة بسقف ثقيل من حجر اللوز[1]، وهي حجارة سوداء مرصوفة على هيكل من خشب السنديان المتين. هناك عدد كبير من المباني الملحقة، بعضها في حالة جيدة وبعضها الآخر متداع للسقوط. أحد مستودعات الحصيد يوافق حاجاتي. فهو ضيق ومرتفع ارتفاعاً كافياً؛ لأقيم فيه هياكلَ لوحاتي الكبيرة. منذ خمس سنوات لا أرسم إلا لوحات كبيرة. فالتمثيلات فيها أعسر إنجازاً، ولكنها حين تكون موفّقة، تكتسي مهابة لا

(1) اللوز (lauze) نوع من أنواع الحجارة الصخرية أو الكلسية المسطحة تستخدم بلاطاً أو قرميداً في جنوب وسط فرنسا خاصة. (المترجم).

تتوفر في اللوحات الصغيرة التي تُستخدَم لتزيين الشقق. تروقني أيضاً فكرة أنني لا أرسم للأفراد، إذ يندر أن نجد منهم من يملك فضاءات تتسع للوحات الكبيرة. أنا أرسم للفضاءات العامة، وللمتاحف، ولئن كنت أكسب رزقي من أفراد، فإنني أرجو أن يدرك ورثتهم حين يخلفونهم أن عملي لم يكن إلا ضرباً من ملء المكان.

لم أكن قد أقمت ببيت أبوي منذ خمسة عشر عاماً على الأقل قبل أن أشتريه. كان الجو فيه خانقاً إلى حد انعكس معه ذلك الضيق عليّ في صورة أوجاع غريبة، مواضع في الضلوع وفي الظهر مؤلمة بشكل لا يطاق، أو تعب شبيه في ظني بما يمكن أن نشعر به بعد أن نكون قد أُصِبْنا بإشعاعات. كانت الحياة في ذلك البيت منظّمة بدقّات الساعة. كنا نأكل وننام في أوقات ثابتة، وبين تلك المعالم البيولوجية، كان الزمن يتبخر بهدوء، بلا معنى. كان هناك أيضاً الصلوات في الكنيسة الصغيرة على حدود المروج، عند الغروب، وفي صباحات الآحاد، كان والداي يقصدان المدينة للقاء طائفتهما من المتهالكين صحيّاً. ليس لي ما أؤاخذهما عليه غير أنهما صرفا حياتهما في الإعداد لموت تأخر في الوصول. وانطلاقاً من الحساب الذي بمقتضاه تكون الحياة أقصر من الموت، ضحّيا بالحياة حتى يكونا في وضع أفضل في الموت. أراهن على أننا إن كنا مختلفين إلى هذا الحد عن معاصرينا، فما ذلك إلا لأننا اصطدمنا بشعور يعسر تحمّله، هو أننا لم نكن محلّ ترحيب. إذا استخدمنا مقارنة مبتذلة بعض الشيء، فإنّ وضعنا كان يشبه إلى حدّ ما أن تستضيف أصدقاء إلى بيتك، وأن تفسد عطلتهم بأن تأخذ عليهم أنهم انتهازيون. وبعد هذا، تستزيرهم مرة أخرى، في السنة الموالية، وكأنّ شيئاً لم يكن. الحاصل، أن التفكير في أنهما هناك، في المقبرة الصغيرة المظللة في مدخل القرية، أمر يشعرني بالانتعاش. أمّا الانبعاث بين الموتى، فأنا أرجوه لهما من كل قلبي، شريطة أن يعقّما. إن كثرة الناس الذين يكونون موتاهم على هذه البسيطة، يجعل عدم انتمائي إليهم مصدراً للشعور بكمال مستحَق.

لستُ أتحدث عن التفوق عليهم، فلا صلة لذلك بما نحن فيه.

تطلّب مني الانتقال وقتاً أقل مما تطلّبه مني إتلافُ كل ما كان يذكّرني بوالديّ. أول ما قمتُ به هو تحويل الكنيسة الصغيرة غرفة مهملات ألقيتُ فيها بكل ما جئت به من «باريس» دون أن أكون على يقين من احتياجي إليه. للأشياء التي لا تجدي نفعاً عظمتُها، فلا أنت تحتاج إليها ولا أنت تستغني عنها، ومن ثم فإنها جديرة بالتقدير. وحين اكتظّتْ تلك الكنيسة الصغيرة بأواني الدهان الجاف، والهياكل المحطمة، وقماشات الرسم المثقوبة، والخِلَقِ المتصلبة بالألوان المائية، كانت قد فقدت قداستها تماماً. على أن هذا الضرب من الثأر ليس من شيمتي. فقد ندمتُ أن وطئتُ المكانَ بقدميّ: وسوف أخلي الموضع يوم تأتيني إشارة.

الأمر الملح الثاني: هو العثور على كلب. كنت بحاجة إلى مخاطَب يفضّل ألا يكون له جواب على كل المواضيع. هناك أناس يعلّمون كلابهم أن تتكلم. أما أنا، فكنت أريد أن أتعلم من كلبي ألا أتكلم إلا لغة حيوانية واحدة، غريزية، بريئة؛ لأَخرُجَ بقدر ما من جنسي. ألغيتُ الكلاب المولوسية[1]. فهي كرجال السياسة التي نحرص على انتخابهم: لا شيء يمكن أن يضمن لك أنها لن تعض يوماً أحد أفراد أسرتك. الهجين الأصفر الذي أعطوني إياه ليس صاخباً جداً بالنظر إلى كونه جرواً، وقد رفضت في البداية أن أتعلق به، خشية أن يكونوا قد أعطوني حيواناً مصاباً بمرض «كاري»[2]. أقمت مرسمي في مستودع الحصيد العلوي، والجرو في أثري. إنني أخشى الشتاء على لوحاتي أكثر مما أخشاه على نفسي، حين ينزل الزمهرير الرطب من السقف.

حين التفتُّ، لمحتُ شخصاً يتجوّل تحت السقيفة. إنه جاري الإنجليزي يدعوني؛ لاحتساء مشروب فاتح للشهية. كان اللوز وثمر البلاذر التي قدمها

(1) المولوسي (molosse) كلب حراسة من فصيلة البولدوق الفرنسي أو الإنجليزي. (المترجم).

(2) مرض كاري (Carré) مرض يصيب البشر والكلاب، يتسبب فيه فيروس. وهو شديد الشبه بفيروس مرض الحصبة. ينتقل بالعدوى. (المترجم).

لي كأنما خرجت من صندوق جده الذي حمله من بلاد الهند، أما الويسكي فمشرّف. المؤكد أن زوجته تصغره بثلاثين عاماً، هي ماليزية، فارعة القوام وباردة الطبع. أما هو فقد بدا متعجلاً ليُسِرّ لي بمتاعبه. وأثناء حديثه معي، كنت ألاحظ ذينك الزوجين غير المتوافقين. من البديهي أن بروستاتا الرجل وكل ما يحيط بها اضطلعت بدور أكبر من دور الفكر في انجذاب هذه المرأة إليه. وهي، فيما يبدو لا تكنّ له حبّاً، ولكنها تعترف له بالجميل أن أخرجها من الماء. إنهما يعيشان هنا منذ ثلاث سنوات، ويرمّمان المباني الملحقة بملكيتهما لتحويلها بيوت ضيافة. ذاك آخر نشاط عصري. لاحظت أن الإنجليز ينظرون إلينا غالباً، نحن الفرنسيين، نظرة «أنثروبولوجية»، لا تخلو حتى من احتقار. وبإمكاننا أن نتصور أن هذا التوجس يعود إلى العهد الذي كنا نتعاون فيه مع النازيين بانشراح، ولكن الإنجليز أكثر عملية من هذا. الأرجح أن السبب هو رغبتنا الدائمة في أن نخترع العالم، وهي طريقة تزعجهم، والحال أن السوق موجودة؛ لتقوم بتلك العملية بدلاً عنا.

الوحدة، مثل الأريكة العميقة، حين نجلس فيها، لا ندري إن كنا سنجد الشجاعة يوماً على أن ننفصل عنها. أذهبُ كل يوم تقريباً؛ لأتغدّى في مطعم «أمبلار» للعابرين من مستخدمي الطريق بمبلغ عشرة يورو مقابل غداء كامل باعتبار النبيذ. وهو على قارعة طريق المحافظة على بعد خمس دقائق من بيتي. ليس فيه طاولات فردية، فآخر داخل يجلس مع الآخرين. لم يعد هناك عدد كبير من الشاحنات التي تتوقف هنا؛ لتناول الطعام. فقد دفعتهم الطريق الوطنية أكثر باتجاه الشمال. وزوار المطعم هم بالأحرى حرفيّون يشتغلون في أعمال ترميم بيوت في المناطق المجاورة. وخلافاً للباريسيين، فهؤلاء لا يدّخرون، وإنما يشربون، ويدخنون، ويتناولون الأطعمة الغنية بالدهون. ويحدث، وإن كان نادراً، ألا يتكلموا، ومع ذلك، فهذا الصمت خفيف. أرتاد ذلك المكان؛ لأنهل من تلك اللحظات من السكينة المختلسة، حين ينفث كل أولئك

الحاضرين دخانهم، وقد بدا أثر لتر النبيذ في العيون، حمرةَ ابتهاج، قبل أن يستأنفوا عملهم. وحين أُعمِل فكري، أدرك ما الذي يستهويني في هذا المكان العادي: فأنا لم أشهد فيه أبداً أدنى بذاءة، في حين أن وسط الفن، في بحثه المحموم عن النخبوية، ينضح خسة وابتذالاً. أضف إلى ذلك، أن لي مع هؤلاء الرجال نفس المشاغل تقريباً، أن نعرف ما إذا كانت الطبقة التحتانيّة لن تظهر مرة أخرى، أو ما إذا كانت الطلاءات ستجف على الرغم من الرطوبة. وربما تحادثنا، ولكن دون أن يبلغ بنا ذلك درجة الحميمية، وهذا أفضل.

كنت ذات يوم بعد الظهر أرسم في دعة، منفرداً مع نفسي، حين رن جرس هاتف البيت. مرة، مرتين، ثلاث مرات. لم أردّ. أنا لا أردّ أبداً. لا أحب أن يتصل بي أحد بإرسال رنة من آلة، وأن أهرول لمعرفة من عساه يكون. عادة، أنتظر يوماً أو يومين لمراجعة الرسائل الواردة، وذلك لترك الأمور المستعجلة حتى يخمد أوارها. وهذا كاف للتسليم بأن الكثير من الحالات المستعجلة ليست مستعجلة. حين تكونون مثلي، لا تتعلقون بأحد تقريباً، فما الذي يمكن أن يكون ملحاً حقاً؟ إن الجوال لم يُحسّن التواصل بين الناس، غير أنه ضاعف عشر مراتٍ رغبتَنا الجامحة في أن نعرف باستمرار ما يحدث حولنا. إنّ حمّى الرغبة في معرفة ما يحدث حين يحدث، لأمر مدهش. ومعلوم طبعاً، أنه كلما زادت رغبتنا في المعرفة السريعة، كان علمنا في نهاية المطاف أقلّ. وبمصطلحات قديمة، أقول إن حضارتنا تسرف في استخدام الدالّ لتخفي الانقراض البطيء للمدلول. ثم عاد الهاتف يرن، دون توقف. انتهى بي الأمر إلى رفع السماعة، حتى لا أسمع رنينه. من الضفة الأخرى من بحر «المانش»، كان مساعدي يهمس كمن خرج للتوّ من نوبة انقطاع نفَس طويلة. كان أحد أكبر تاجرَيْن أو ثلاثة من تجّار الفن الصينيين يبدي اهتماماً بعملي. قرر أثناء مروره بـ«باريس» أن يزورني، بتوصية من أمين متحف «سنغافورة».

- إن كان هذا الشخص مستعداً للشراء، فإن قيمة لوحاتك ستتضاعف، أتسمعني؟

- وما الذي سيتغيّر؟

- ستكسب ضعف ما تكسبه من المال.

- وما الذي سيتغير؟ لدي شقة بـ«باريس» وبيت هنا، لن يذهب بي الأمر على كل حال إلى أن أثقب ما بين ضلوعي برصاصة حتى أتمكن من التهام ست وجبات يومياً في دارتي بـ«إيبيزا»، حيث سأجد معتوهين مثلك.

- لا تكن فظاً.

- لا شغل لك إلا أن تحدثني عن المال، وتعتبرُني فظاً؟

ولكن، كالعادة، كان فضولي أقوى من مبادئي، فوافقتُ على أن يَحُلّ الصيني ببيتي.

ركب طائرة الصباح ووصل بيتي فجراً، مرتدياً، بدلة سوداء مخططة بخطوط زرقاء رقيقة كبدلة مصرفيّ الأعمال. كانت عيناه مغوليّتين إلى حدّ ما. كان سائقه في انتظاره أمام سقيفة البيت. أردتُ أن أُدخِل الصينيّ؛ لأقدّم له قهوة، غير أنه رفض بحزم. لم يكن ينظر إليّ إلا؛ ليلقي عليّ نظرة تجارية صغيرة، أما في ما عدا ذلك فقد كان يستطلع المكان كما لو كان مالكه المقبل. كان جروي يتشمم قدميه. كنت مهذباً دون أن أكون حفياً به. قلت له: «أتراك تود أن ترى لوحاتي؟ ليس لي هاهنا إلا ثلاث مكتملات، ولكنني أتصور أيضاً أن هذا بالنسبة إلى خبير مثلك كاف؛ ليكوّن فكرة». شعرت أنه كان يريد أن يضرب كلبي بركلة من قدمه. صحبتُه إلى عتبة مستودع الحصيد الذي كنت اتخذته مرسماً وتركته، بعد أن وضّحتُ له. «إن لم ترقك لوحاتي، ستكون مرغماً على أن تصطنع أمامي مظهراً مهذباً، ولا شيء يلزمك بأن تبدد طاقتك بهذه الصورة. خذ راحتك، فلستُ سريع الغضب، فكن صريحاً حينئذ».

عاد إلى المطبخ بعد ربع ساعة، ماشياً على أطراف أصابعه؛ ليجنّب حذاءه

الرشيق أن يتلطّخ بوحل الوابل الليلي. تظاهرتُ بأنني لا أنتظر أي حكم. طلب مني قهوة، بدا أنه أقل استعجالاً للذهاب. قدّمتُ له القهوة، عارضاً عليه مقعداً أمام المدفأة المطفأة.

– سأمضي مباشرة إلى هدفي، عملك يهمني كثيراً. كم لوحة ترسم في السنة؟

أشعلت سيجارة، ونفثت دخانها، نظرت إليه، تمهلت قليلاً، وفتحت النافذة. أجبت:

– منذ أخذت خاصة في رسم لوحات ذات أربعة أمتار على ستة، أرسم في حدود عشرين لوحة سنوياً.

– جيّد جدّاً.

كان يتكلم الإنجليزية، بلهجة الساحل الغربي للولايات المتحدة.

– وكم عدد اللوحات الذي تعتقد أنه بوسعك أن تصل إليه؟

نظرت إليه بعينين واسعتين كعيني شخص يتظاهر بأنه لم يفهم.

– ولماذا تريدني أن أرسم أكثر؟

– لأنني بحاجة إلى الحجم. إن ركّزتُ جهدي عليك، عليّ أن أكون قادراً على تلبية ما بين خمس وستين وسبعين في المائة من الطلبات التي يمكنني أن أنشئها. سأحتفظ بنسبة تتراوح بين ثلاثين وخمس وثلاثين في المائة من المطالب التي لم تتم تلبيتها للإبقاء على مستوى الأسعار، لا تغتمّ. في الوقت الراهن، ما ثمن لوحاتك؟

أجبته، وهو يعرف الجواب بدقة:

– حوالي مائة ألف أورو.

– أعتقد أنه بإمكاني أن أرفع الثمن إلى ثلاثة أضعاف، إن لم يكن أربعة أضعاف. في العالم اليوم، سيولة طائلة، علينا أن نستفيد منها. المفترض أن الثروات الناشئة في الصين ستنقضّ على لوحاتك.

– أتعتقد أنهم سيقدّرون رسومي؟

– ليست هذه بالذات هي المسألة. المسألة هي أن يؤمنوا بطاقتها الكامنة. شخصياً، ودون أن أرى مجمل أعمالك، أضعك في سقف مليون أورو لكل لوحة. سأكون صريحاً معك، ليست لك الموهبة الكافية لتجاوز هذا المبلغ. ينقصك، كيف أقول، نوع من الجنون الذي...الحاصل، أنا أود أن تلتزم كتابياً بأن ترسم ثمانين لوحة سنوياً، لي أنا حصرياً، لمدة سنتين. وبعدها، سيكون لكل حادث حديث.

– بدنياً، لا يمكنني ذلك.

– وظّفْ عاملاً يخفف عنك كل ما ليس فنياً.

– سيكون لدي انطباع بأنني أشتغل دون انقطاع، كالشخص الذي يصنع سراويلي الداخلية الصينية الصنع...أتفهم؟

– أفهم خاصة أن لديك مفهوماً للفن متقادماً بعض الشيء. إن أكثر الناس نجاحاً في مجال الأدب اليوم لا يكتبون، بل يكتفون ببثّ بعض الأفكار، وحين تنتهي أفكارهم، يصبحون علامات، بكل بساطة. ألا تحب أن تكسب المال؟

– إنني أكسب منه ما يكفيني، وحتى وإن لم يعد الوضع اليوم على هذه الصورة، فقد ورثتُ عن الأسرة مبالغ مقبولة إلى درجة تجعلني لا أُحنِي هامتي تماماً أمام قانون السوق.

نظر إليّ، برأس مائلة، وقال:

– وفي أي مجال كوّنتْ أسرتُك ثروتَها؟

– ثروة؟ هذه مبالغة، فقد كسب جدّي الأوّل مالاً كثيراً مع شركة كانت تنتج نصباً تذكارية بعد حرب سنة 1914. واصل جدّي العملَ مع منتجي النصُب التذكارية لحرب السنوات 1939–1945. وكانت أقل ريعاً بكثير، وهذا طبيعي، لأن عدد القتلى من الفرنسيّين كان أقل بسبب الاستسلام، ولم يبادروا إلى صنع نصب لليهود الذين قضوا في المعتقلات.

أما أبي، فقد اكتفى بعدم صرف ذلك المال.

- أنت الآن تمرّ في مسارك المهني بمرحلة تتجمد فيها أثمان لوحاتك بعد ارتفاعها. وإن لم تعمل بنصائحي، فستعاني الكساد ثم النسيان.

كنت أتأمّل الحلزونات التي جمعتُها أمس، غبّ المطر، حوالي العشرين من الحلزونات الرمادية ذات الحجم المعتبر. كانت تفرز سائلها، وهو ما ستفعله أعمالي عمّا قريب. أردَفَ قائلاً:

- في نظامنا العالمي اليوم، لا معنى للجمود. نتقدم أو نتراجع. فبعض العوامل الخارجية المنشأ، من قبيل الانخفاض العالمي في السيولة، أو الكساد الوقتي، أو الانجذاب إلى ماركات أخرى، تكفي لإسقاط قيمة لوحاتك. اللهم إلا إذا لم تكن في وضع المصمّم على النموّ. لا أعرف فرنسا معرفة جيدة، ولكنني درستُ في جامعة «يال». قد يبدو لك كلامي نظرياً، ولكن حسب ما قرأته، للفرنسيين عقلية الورثة الصغار الذين يكتفون بالحفاظ على رأس مالهم ومصالحهم مراقبين عن كثبٍ الطامعين فيهم، وخصوصاً الأجيال الجديدة التي لا تملك. فكأن كل شيء مخفي وراء شاشة من دخان بلاغي حول التقاسم، والتكافل وهلمّ جرّاً من النوايا الحسنة التي تظل بلا نتيجة. إن أمثالكم يربكون حركية السوق ولا يعاني من تبعات ذلك إلا أكثر الناس حرماناً.

أغلقتُ النافذة، وأشعلتُ سيجارة جديدة وسألتُه:

- أنت أمريكي، أليس كذلك؟

- كلا، أنا كندي، نشأتُ في «فانكوفر» في أسرة صينية مهاجرة، حيث كان والداي يعيشان على دخل مطعم، مطعم صغير.

سعَل قليلاً، وأردف:

- بما أني أستلطفك، فأنا أفضّل أن أحذّرك مما سيحصل. إن التحدي الكبير في هذا القرن ليس الصراع بين ممثلي الديانات السماوية المختلفة. ففي الوقت الذي يتناحر فيه المسيحيون واليهود والمسلمون، يوشك شيء أكثر أهمية بكثير

أن يقع هو قدوم الواقعيَّيْن الكبيرَيْن: الصين والهند. فليس يعنيهما في شيء تفسير النصوص المقدسة. وبديهي أن الأمريكان لهم حس أكثر عملية، ولكن حتى هم فإنهم حصروا أنفسهم في اعتبارات أخلاقية ودينية كريهة. ففي الصين، لا يستنكفون من القضاء على بضع عشرات من الملايين من جنسنا. أنا لا أقول هذا؛ لأبدو في مظهر كاره البشر، ولكن حين يكون المرء على استعداد لفراق أهله، يكون أقل تورعاً إزاء الآخرين، إذ المسألة مسألة ضرورة، ضرورة قصوى. ستنوب حضارة أخرى وستزدهر حول مثال يقدِّس فيه الفرد، شرط أن يَقْبَل دون تردّد الأوامرَ التي تفرضها عليه المجموعة، وأن يُطبِّق حرفياً نمط إنتاج واستهلاك محدداً، هل تفهمني؟

– من بعيد جداً. فأنا لا أرى إلا أضواء الضباب.

أردف، ثملاً بقدرته على شكلنة أفكاره:

– في الصين، نجحنا في كل ما أخفق فيه الروس: تشجيع المقاولين المحليين والأجانب، وضمان نظام اجتماعي صارم لهم من خلال إطارات الحزب الشيوعي الذين يتحكمون في اليد العاملة. وهذا ما سنقوم به يوماً ما عند المسلمين، إن وجدنا مصلحة في ذلك، بالنظر إلى نضوب مواردهم النفطية. وهذا دون أن نذكر إفريقيا، حيث ينبغي أن نتدخل في كل المستويات. فأنتم لم تحسنوا فيها التصرف. فلا نقيم شيئاً دائماً إن لم نعتمد إلا على الفساد والحروب القبلية.

غالباً ما تسير الأمور في الحياة على هذا النحو، ففي حين لا تطلب أنت من أحد شيئاً، إذا بشخص، ما إن ينزل عندك، حتى يجتاحك باستراتيجية جغرافية سياسية من شأنها أن تشوّش عملك وتوجهه وجهة جديدة. لم أعرف بماذا أجيبه. رددتُ عليه بسذاجة:

– أين نحن من «لاو تسو»[1]. إنها عودة الوحشية بلبوس النظام.

(1) «لاو تسو» (Lao Tseu) هو أحد حكماء الصين القدامى، يقال إنه كان معاصراً لـ«كونفوشيوس»، بين منتصف القرن السادس ومنتصف القرن الخامس ق م. ينسب إليه «كتاب الطريق والفضيلة» وهو الكتاب المؤسس للديانة التاوية. (المترجم).

كنت أستعجل انصرافه. فكان لا بدّ من تقدّم؛ ليتحقّق ذلك. لا يتغاضب الإنسان مع رؤسائه المقبلين، مع غزاة يملكون من الاستقامة ما يجعلهم يقدّمون أنفسهم بوصفهم غزاة. عرضتُ عليه حلاً وسطاً أن يَقْبَل بخمسين لوحة سنوياً. أجاب بأن دون الستين لا يثير اهتمامه. وافقتُ على الستين. في الفن، لا مجال للشرف، وفي التجارة، مجال الشرف أقلّ بكثير. ثم إن «بيكاسو» كان يرسم لوحة كل يوم. لاحظوا، لقد صار اليوم ممكنا للمرء حتى أن يصنع سيارة باسمه. لقد تجرّع جيلنا كل الإهانات ولم يُرجِع أياً منها. لقد ولدتُ في زمن متأخر فلم يُتَحْ لي أن أعرف حركة الستينيات قبل انهيارها. التحقتُ بالقطار أثناء سيره، وأمسكتُ به من العربة الأخيرة. وانخراطي في الحركة السلمية لم يغيّر أشياء كثيرة، عدا أنني نجوتُ من الندم الذي كان سيسبّبه لي العنف السياسي، وهو غير مجد في ذاته. ومهما يكن من أمر فإن هذا الجيل قد تلاعبت به مصالح تتجاوزه. الحنين، لم أطلب نصيبي منه، وإنما تركته للسذّج، وسلكتُ من جديد طريقَ الوحدة، بعيداً عن فوران الطموحات الجماعية. وكما حدث لكثير من أمثالي، فإن خيبة الأمل المتأتية من العجز عن تغيير العالم، قد شرحتْ صدري بالمقابل.

انصرف الصيني بنفس البرود الذي كان جاء به دون أن أتوصل إلى إتلاف مزاج الغازي الذي كان يسِمُه.

حين انقضى بعض الوقت في فترة ما بعد الظهر، أخذ الجرو في النباح. لم يكن ذلك من عادته. لم يكن ينبح على الناس، فاستنتجت من ذلك أن حيواناً متوحشاً خرج من الغابة؛ ليؤدي لنا زيارة قصيرة، مستفيداً من السور المتهدم الذي لم أكن أنوي أن أعيد بناءه. كنت أتوقع أن أرى يحموراً ضابعاً أو خنزيرة برية متشاغلة، ولكن ذلك الهيجان كله سببه كلبة صغيرة سوداء ذات شعر لماع كانت تتثنّى محرّكة ذنبها كما لو أنها كانت تعتذر عن وجودها. كان كلبي، الذي لم يلتق بأنثى أبداً، بعد أن نبح عليها، أقعى وأذناه منتصبتان،

متأملاً تلك المخلوقة الطبيعية المعقدة، التي ستفرض عليه لاحقاً تصرفات هوسية حين تكون في فترة تزاوج. داعبتُها. كانت تستحقّ المداعبة؛ لفرط جاذبيتها. نظرتُ إلى صفيحتها المعلقة في الياقة حول عنقها، كان لها اسم ومالك. تركتها تلعب. كنت أتأهب للدخول؛ لإعداد شاي إفريقي حين ألصق شخص أنفه بالسقيفة. كان أصلع، عريض المنكبين، غير فارع الطول وأصغر مني سناً. كان يذكّرني بتلك الخيول المسنّة التي كأنّها لم تتغوّط أبداً، والتي تُترَك في المروج لتسمن.

أبدى ابتسامة مغتصبة، وقال:

– أنا جارك، أسكن أسفل قليلاً، على حدود أراضيك. كنت أحمل ذكرى عن هذا البيت غير المتقادم المختفي وراء الأشجار.

أجبته بإشارة مرحّبة من رأسي، سعيداً بأن ألتقي بفرنسي لم تكن له فيما يبدو خطة لتخريب الكرة الأرضية.

– جئت أسترجع كلبتي.

– آه! هي كلبتك! الآن وقد عرفتُ أين تقيم، في المرة المقبلة، سأقول لها أن ترجع مباشرة.

لم يكن لذلك الشخص أي روح مرحة. لم يردّ بشيء. نادى كلبته التي وَجدتْ عنتاً في الانفصال عن كلبي. ثم شعرتُ أنه كان يريد أن يطرح علي سؤالاً، إلا أنه، لم يكن، بسبب حيائه؛ ليجرؤ على ذلك. الحياء ليست الكلمة المناسبة، فقد كان ذلك الشخص فظاً، تثقل عليه الكلمات. قال:

– ينبغي أن أسألك شيئاً، ولكن الأمر غير مستعجل.

– يمكننا أن نتحدث في الموضوع الآن، إن شئت أن تتفضل بالدخول.

رَدُّ الفعل بحركة بيده لم تكن تشجعني على أن ألحّ عليه.

– لا، لا، ليس الأمر مستعجلاً حقاً، أردت فقط أن أعرف ما إذا كنت تترك الصيد محظوراً في أراضيك أم لا، ثم إني أردت أن أعرف ما إذا كنتَ عند

الاقتضاء توافق على أن تؤجّر لي هكتاراً من المروج. لا أخفي عليك أنني لم أكن على وفاق تامّ مع أبويك.

– ولا أنا.

لم يكن هذا يعني رغم ذلك بأنني سأكون على وفاق معه. أردفت قائلاً:

– أنا هنا لا أريم. وعلى كل حال، ليس لدي ما يدعوني إلى أن أتغيب من الآن إلى نهاية الصيف. فإن شئت أن تتحدث عن هذا كله قبل سفري، فلا أرى مانعاً. علماً أن غيابي لن يدوم أكثر من أسبوع على أقصى تقدير.

– ومن سيعتني بالكلب؟

– لا أدري، لم أفكر في المسألة بعد.

– إن لم تجد أحداً، فبإمكاني أن آخذه عنك.

– شكراً، سأفكّر في الأمر.

كنت أقول في نفسي إنني سأفكر فيه أقل ما يمكن، إذ عندما يسدي لك هذا النوع من الأشخاص خدمة، فذاك؛ لأنه ينوي أن يطلب منك مقابلاً.

حيّاني، ونادى كلبته، وعاد على عقبيه، ينوء تحت وطأة جسده، واختفى، ورأسه ما زال مندساً بين كتفيه. أخذ الهاتفُ يرنّ. حسبي ما رأيته من الصينيين اليوم. لم أردّ إلا لاحقاً في السهرة، بعد أن تناولتُ عشائي هانئ البال وأتيت على قنينة نبيذ أحمر. كانت أختي، بصوتها الحاد الذي يبعث في السامع رغبة في الاعتذار حتى تجرؤ على مواصلة الكلام. كانت تريد القدوم لقضاء نهاية الأسبوع برفقتي. تلكأتُ في أن أجد سبباً؛ لأقول لها لا، فتصرفتْ كما لو كان الأمر محلّ اتّفاق. بدت متهللة، ولكن لا ينبغي الاطمئنان إلى ذلك. فعند الملهَمين، يتّخذ كل شيء، بفعل التضخيم، أبعاداً مبالغاً فيها، تستوي في ذلك أفراحهم وأتراحهم. وبعد أن أقفلتُ الخط، شعرت بشيء من الفتور. أعترف، بأنني منذ بضعة شهور، وَقَرَ في ذهني أن عملي يمكن أن يترك أثراً في غير الحسابات البنكية لهؤلاء أو أولئك. أما الخلود، فلم يكن مع ذلك لي فيه

نصيب. فقد كان يجبرني على التفكير في ما كنت أقوم به على هذه الأرض التي كانت تتوارى تحت قدمي. كلا، فقد انتهيت فقط بإقناع نفسي بأني، وإن لم أكن عبقرياً، قد كنت مع ذلك محظوظاً على كوكب ليس أهله كلهم من المحظوظين. ثم استسلمت للنوم، تهدهدني طرافة تلك الفكرة الجديدة.

*

حين أفكر في أبويّ، أتصوّر شخصين عجوزين عليهما أن يركبا حافلة في العاشرة صباحاً، فنهضا قبل خمس ساعات، وجلسا أمام المحطة، حقيبتاهما على ركبهما، وناما قبل أن تمرّ الحافلة بخمس دقائق. لقد كررا ذلك المشهد طوال حياتهما. وفي نهاية الأمر ركبا تلك الحافلة؛ ليختفيا إلى الأبد. لم أكن أحبهما، ولكني لم أكن حاقداً عليهما. قليلاً من الحقد في الحقيقة، حين أرى الحالة التي عليها ابنتهما. أخشى أن تندفع ذات صباح إلى الآخرة، بحركة طائشة، مسرحيةٍ بعض الشيء ولكنها حتمية. لا تريد أختي أن تعاقب أحداً بمثل تلك الحركة. فهي تنتمي، إلى حدّ ما إلى طائفة من الناس صغيرة لا يملكون غريزة حقيقية لحب البقاء. فحين يُلقُون نظرة على أوراق لعبهم، تتبخر أوهامهم مسبقاً؛ لانعدام حظوظهم. كان إيمانها بالإله أقل من إيمانها بالعذاب الذي جَعلتْ منه عبادة، ولقد كنتُ مقتنعاً بأن الإله لا يكفي لإثنائها عمّا عزمتْ عليه.

حين رأيتها ساعة وصول القطار، كانت قد نحلت بشكل كبير. كانت انحناءاتها قد انحسرت على طول جسدها النحيف الذي كان يشبه غسيلاً مبللاً بَعدَ وابل غزير من المطر. استشعرتُ أن زيارتها كانت طلبَ نجدة، وما إن تحدّثتُ معها بضع دقائق حتى تأكدتُ من ذلك. لقد كانت كبَالون من غاز الهيليوم يتوسّل سراً أن يُشَدَّ إلى وتد. لم أكن خير من يقنعها بالحياة. ولم أكن كذلك لا بالنسبة إليها ولا بالنسبة إلى أي فرد آخر. فمن العسير على المرء أن

يُقنع في مثل تلك المواضيع. في طريق البيت، وبعد صمت طويل، لم أجد أفضل من أن أستفزّها، فقلت:

– عليكِ أن تلقِي عَرْضَ الحائط بكل هذا التعصّب، فهو يسمّمك رويداً رويداً.

فتحت عينيها واسعتين، فأردفتُ:

– ليس في مقدور الإله أن يفعل شيئاً لأحد، وإن كان قد خَلَقنا حقاً، فعليه أن يندم على ذلك. عليكِ أن تتصرّفي أكثرَ قليلاً تَصرُّفَ الكائن البشري وأقلّ قليلاً تصرّف المخلوق السماوي. أفْضَلُ لك أن تراجعي طبيباً نفسانياً من أن تخدمي بتواضع كل تلك العصابة من القسيسين الذين يفخرون شيئاً ما بالصمود أمام إغراءات عادية.

كانت تحلم بأن أطوّقها بذراعيّ وأن أضمّها إلى صدري كما يفعل أب حين يعثر على ابنته الضالّة. ولقد كنتُ على الدوام عاجزاً عن تحقيق تلك الدفقات العاطفية. زد على ذلك أنها كانت تفوح برائحة الشمع القديم والبخور الرخيص.

إن الزمن ليس معطى موضوعياً. فيومان مع أختي، لهما من الثقل ما للأبدية في نهايتها. كان أمامي المشهد المقلق لإعادة البناء المستحيلة لكائن حطمته علاقته بأبيه. لم تفهم أبداً شكل تفكيره الخاص الذي كان يدفعه إلى أن يقول لها: «يا بنيتي، ليس للجمال قيمة. إنها فرصة بالنسبة إليك، أن لم تكن الطبيعة كريمة معك، عليك أن تشكري الرب؛ لأنه جعل تلك القضايا الجمالية على حظ كبير من النسبية». ومن المشاهد التي لا تُنسَى مشهدُ صباح عيد الميلاد. كانت بضع هدايا ملفوفة تحيط بالشجرة الصغيرة التي لم تكن ضرورة من نوع الصنوبر. وما إن تُفتَح الهدايا، حتى كان أبي يمرّ بيننا، كما يمرّ المدرّس وهو يجمع الأوراق؛ ليستردّها. كنّا نعلم أنها ستوزَّع لاحقاً على أطفال أكثر احتياجاً منا. والأدهى هو ما يحدث بعد ذلك، حين كان والدنا يفخر بأنه لم

يدفع ثمن تلك الألعاب غالياً جداً.

عدا تلك اللحظات الرائعة، كان الملل يملك علينا أنفاسنا في البيت. ذات يوم، قال لي أحد أصدقائي من الكتّاب الأمريكان: «لكي يكتب الإنسان، عليه أن يكون قد جرّب الملل، الحقيقي، السميك كضباب الخريف، إلى درجة أنه، مهما تكن الوجهة التي ننظر إليها، لا نميّز أيّ شكل».

ما إن حلّتْ بالبيت، حتى أخذت تبدي حماساً بكل شيء، أقلّ جسم، أقلّ موقف، كما لو أنّ أحدَهم ضَغَطَ على زرّ البهجة.

في النهار رسمتُ. وخلال ذلك الوقت رأت لزاماً عليها أن تنظف كل شيء في البيت، وأن تغسل ملابسي وتكويها، وأن تلمّع الأواني النحاسية القليلة التي تزين الجدار فوق جهاز الطبخ. إن النفوس المضطربة لا تحتمل رؤية الفوضى المنزلية. فالفوضى التي تركتُها تتراكم كانت تشعرها بأنها زائدة على الحاجة في هذا البيت، لذلك فضّلت أن تفطر بتلك الفوضى قبل أن تتعشّى بها. وفي المساء قالت لي إنّها تشعر بتحسّن. كنت أتساءل حقاً كيف يمكن للمرء أن يشعر بتحسّن حين تكون أحواله على هذه الدرجة من السوء. والأغرب من هذا كان موقفها من الكلب، وهو يتراوح بين الغيرة والحسد. كانت تغار منه بسبب العلاقة البسيطة التي كانت تربط بيني وبينه، ولعلها كانت تحسده؛ لأنه كان معفى من الوعي البشري.

*

– إنّه رسام كبير، لقد شاهدته على الأنترنت. وعلى كل حال، فبالنظر فقط إلى عدد الصفحات المكتوبة عنه، يتّضح أنه ليس مُلَطِّخَ ألوانٍ ريفياً عفواً، حين التقينا، لم أكن أعرف من أنت.

أجبته؛ لأضفي على الجو شيئا من المرح:

– أنا نفسي لم أكن أعلم من أنا.

كان مضيفنا ذلك الإنجليزي الذي التقيت به قبل أسبوع. كان قد جمع كل الجيران ممن كان يعتبر أنهم جديرون بالصحبة في دائرة محيطها كيلومتر حول بيته، للاحتفال بانتهاء الأشغال في بيوت الضيافة. وبالإضافة إليّ وإلى أختي، كان المدعوّون ثلاثة أزواج وزوجاتهم: أمريكيان، وفرنسي وبرازيلية، وعلى ما أظن فرنسي وروسية. لم أنبهر أبداً بامرأة في أول لقاء يجمعني بها. ومع ذلك فقد بدتْ لي الروسية من كوكب آخر. فما إن أخذ كل منا مكانه حول الطاولة، ورغم بعض العيوب الواضحة في هندسة وجهها، وخاصة فمها، حتى ألفيتُ نفسي عاجزاً عن الانفصال عنها. كان زوجها ذلك البدين الذي كان قد أضاع كلبته الصغيرة السوداء. كان يبدو على عجلة من أن يغادر الحفل. ولكن الجلسة لم تكن إلا في بداياتها. كنا ما زلنا في مرحلة التعارف بالمعنى العام للكلمة. وإذا بالأمريكية، التي كان وجهها يشي بأن مأساة حياتها أنها لم ترزق أطفالاً، توبّخ الروسية بلهجة حماسية. لا يوجد ذلك العنف إلا لدى السكان البيض في القارة الشمالية من العالم الجديد.

– حقاً، ينبغي أن يكون إنجاب طفل وتربيته هنا في الريف أمراً رائعاً!

فاجأتِ الروسيّةُ الجميعَ بأن عاودت حماسها في الاتّجاه المعاكس:

– أعتقد أنه عمل شاق لا جدوى منه، خصوصاً أنني لا أملك حقيقة غريزة أمومية.

أبدت النساء علامات اندهاش لم يدم، وانتقل الحديث إلى موضوع آخر. أما زوجها، الذي ما زال رأسه مندسّاً بين كتفيه، فقد ألقى عليها خفية نظرة وعيد. كان زوج البرازيلية هو الذي يرمقني بطريقة غريبة، أو بالأحرى بازدراء. لعله كان يعتقد أن زوجتي هي أختي. كانت زوجته شهوانية جداً. كان جلياً أن إطالته المقام بين فخذيها جعله يكتشف وجهها بشيء من التأخر، ويبدو أنه يؤاخذها على ذلك. فقد كانت زوجته مجدوراً وجهها كورقة العنب بعد العاصفة. كانت تلك المرأة فطنة ومتواضعة ولكن الظاهر

أن زوجها لم يلاحظ ذلك أبداً. كان ينظر إلى الروسية بشبق كما لو أنه كان يريد أن يغطس في نهر «الفولغا». حدثتْ حالاتُ الانجذاب بسرعة، ولم تكن مشاعر الألفة لتنتظر غير المشروبات الكحولية. كان الأمريكي يحبّ فرنسا، وكانت فرنسا تساعده على تحمل أمريكا بقيّة السنة. كان يتطرّق للموضوع بشيء من الاحتراز، خشية أن يتفوه بشتيمة وطنية لهذا البلد أو ذاك من ذينك البلدين المطلّين على المحيط الأطلسي. أثناء نقاشي معه، سعدتُ بلقاء إنسان يعسر أن تخدعه الكلمات أو النوايا. وفي الجو الحماسي الذي تم فيه اللقاء، أفرطتُ قليلاً في الشرب وأخذتُ أغمز الروسية التي كانت تنظر في الفراغ. كان زوجها يتحدّث عن الصيد مع زوج البريزيلية. وكان هذا الأخير يفتخر بأنه قتل كل حيوانات الأدغال بإفريقيا والأمازون، ويتذمر من القنيصة المحلية. كان مضيفنا يتنقل كالفراشة من محادثة إلى أخرى. وكانت النساء يتحدّثن عن الصعوبات المنزلية المنجرّة عن الحياة بعيداً عن المدينة. لم تكن أختي تتفوّه ببنت شفة. كانت تبتسم بطريقة آلية.

*

ومن الغد، كنت أشعر بصداع، طلبتْ مني أختي أن أحملها بسيارتي إلى كنيسة «القدّيسة ريتا»، راعية القضايا الميؤوس منها. كانت الكنيسة مشيدة في قرية، تحيط بها بعض البيوت العتيقة التي تمّت صيانتها بإتقان. ألقت أختي بنفسها على مركع، في حين كنت أتأمل بإعجاب الأرضية المبلطة بالآجر، والجدران المبنية بالحجارة، والهيكل المقام بمهارة. كانت كل اللوحات قد اختفت، وساد المكانَ سلامٌ يثلج الصدر. ليس الإيمان ضرورياً للتمتع بالأماكن المقدسة، حسبك ألا تقاوم إغراءها. أرادت أختي أن تضع زهوراً على ضريح أبويّ. وهو في مقبرة الأبرشية المجاورة. كان الضريح الحديث العهد، المبني بشيء من سوء الذوق، متنافراً مع القبور المجاورة. وبينما كانت راكعة على

طرف المقبرة الأسرية، لاحظتُ شاهدة قديمة كتب عليها: «عندما كنت أقول لكم إنني لم أكن على ما يرام!».

رمقتُ أختي جانبياً، كانت تبدو كأنها قد ماتت بعد. رفعتْ رأسها وقد كستْ محيّاهَا الدموع، فكان وجهُها متناقضا تناقضاً كلياً مع بهجة السماوات. عاودتْ ذاكرتي ملامحُ الروسية، بحيويّة شبيهة بتلك التي يجدها مشرّدون وهم يلجؤون إلى غبش اصطناعي.

في طريق العودة إلى السيارة، كانت أختي تحاول أن تلفت نظري إلى سحنتها الجافّة. وهمست:

– ألا ترى أن الروسية وزوجها متناسبان بشكل غريب؟

ألقيتُ عليها نظرة مجاملة، وشرحت لها أن ذينك الشخصين يُخفيان أحدُهما عن الآخر أكثرَ مما يرغبان في ستره عن الغير. لم يكن لهذا الضرب من العبارات أي أثر فيها، فأنشأت تغنّي بصوت حادّ عن الماء المقدس. كانت الروسية تستبدّ بأفكاري. وبتأثير النضج، حوّلتُ اهتياجي الجنسي، المَرَضي إلى حد ما، فعلاً إبداعياً. ولو لم ألتق في طريقي بـ«أنسالم كيفر»[1]، لنلتُ في المقابل شيئا من السكينة. ولكن القَدَر شاء أن يضع أعماله تحت عينيّ وجعل أفق اختراعاتي معتماً كسماء الحرب. لماذا لم تقلقني العبقرية أبداً إلا عنده هو؟ لن يكون بإمكاني أن أفسّر ذلك. لماذا تراني أحدّثكم عن «كيفر» وأنكأ جروحاً مندملة؟ ليست كل الأفكار التي تخطر ببالي إلا تكراراً لأفكاره، مقنعاً على نحو ما بِلاَوَعْيِي. لماذا تعيّن على هذا الرسام العملاق أن ينتصب في طريقي ويجعله مسلكاً ريفياً يتلوّى في طبيعة قاحلة؟ سأعود إلى هذه المسألة، ليس في الأمر مجال للشك. إن الآلام الكبرى صامتة، وهذا الألم لا يشذّ عن القاعدة.

الواقع يعوزه التهذيب. فهو يستضيف نفسه دون سابق إعلام. كانت سيارة

(1) «أنسالم كيفر» (Anselm Kiefer) رسام تشكيلي ألماني معاصر، من مواليد سنة 1945. يعيش ويعمل في فرنسا منذ سنة 1993. يعدّ من أهم الفنانين الألمان في النصف الثاني من القرن العشرين. (المترجم).

مركونة بطريقة مائلة أمام السقيفة تسدّ علينا مدخل البيت. إن الامتدادات الطبيعية الواسعة لا تنطوي على آثار إيجابية وحسب، وإنما هي تعزّز أحياناً بشدّة الشعورَ بالملكيّة. كان رجل يضع كوعيه على النافذة، محدّقا في الأفق، باحثاً عن كائن حيّ. اقتربتُ منه بالتوجُّس العادي الذي يمكن أن يعتري الإنسان إزاء غيره. أما هو، فقد بدا عليه الاطمئنان حين رآنا. ألقى نظرة على ساعة يده، وسألني إن كنت أعرف مطعماً يسمَّى «طاحونة القدّيس فانسون». وقبل أن أجيبه باغتني بأنّه ناقد في فنّ الطهي، وأن الوقت تأخّر، وأننا في الريف، وأنه يخشى ألا يقدَّم له الطعام، وهو ما قد يجبره على البقاء يوماً آخر في الجهة أو على إلغاء ذلك المطعم، وأنه سيتضايق في الحالتين كلتيهما. باختصار، كان يغمرني بسيل من المعلومات غير المجدية، التي تجعله في رأيي منفراً بقدر وجهه الغليظ. دَلَلْتُه على الطريق، ولم أره بعدها بتاتاً.

في السماء، كانت سحب خفيفة تنتظر أن تفرّ عند أول هبة ريح، منشئة جوّا وبيلاً كان يذكّرني بما كان يَغْمُر طفولتي من نهايات عشيّات أيام الآحاد المحمّلة توجّساً من الغد. طلبتُ من أختي أن تمضي. فقد كانت طريقتها في ترسيم الرتابة بيننا، وحرصُها على محو كل نتوء، تزعجني. لم أعد قادراً على الإبداع في ذلك الجو المفعَم بالسكينة الطقوسية. دون أن أعطيها أي تفسير، راجعتُ مواعيدَ القطار. انفعالُها في المحطة، في اليوم الموالي، لم يحرّك لي ساكناً. عدتُ إلى وحدتي كما يعود الحصان إلى اسطبله. وكما يكون بين جدران مقصورته الأربع، ظللتُ أدور على غير هدى، عاجزاً عن الوقوع على فكرة صالحة توجّه عملي. ورغم أن قلة الإلهام لم تبعث فيّ شعور الملل، فقد جلستُ على عتبة باب مرسمي وأشعلتُ سيجارة. في تلك اللحظات، يبدو لي اندثار البشرية في أجل قريب أو بعيد نعمةً غير متوقّعة. سيكون ذلك تقطيعاً للفن جذرياً. وحين تقع العودة المذهلة إلى طور امّحاء الأسماء، سيستوي «كيفر» و«مونش»[1]،

(1) «مونش» (Edvart Munch) (1863—1944) رسام ألماني يعد رائد الانطباعية في الرسم الحديث. (المترجم).

ويستوي «بيكاسو» و«فرويند»[1]، وأستوي أنا و«فرويند». لن تبقى متاحف. لن تبقى متجوِّلات كسلانات يثرن شبقهم بوضعياتهن الفاتنة. في الباحة، حط زوجان من اليمام على سلك الهاتف. ومن هناك، أخذا يتفحصاني ساخرَيْن من وحدتي.

جاري التحتاني مزارع تحاذي أراضيه أرضي وتلتقيان في غابة صغيرة. يضع على رأسه قبّعة، وحين يخلعها، تُرَى دائرة محلوقة بقطر القبعة، مما يدل على أن المستنقع الذي ينمّيه تعرُّقه قد تغلب على النباتات التي كان من شأن غطاء الرأس أن يحميها.

أعرف ما جاء ليقنعني به. في هذه المناطق الزراعية، لا وجود للصدفة. إنه يريد أن يستأجر جزءاً من مُروجي ليزيد من عدد الأبقار التي يربيها. عيناه الضيّقتان تومضان، مما يدلّ على أنه لم يكن يحاول أن يخفي مكره الذي تجاوزت شهرتُه حدودَ الإقليم. لا ينبغي أن أنتظر أي إعجاب من رجل لا يدرك من عملي شيئاً، غير أني أكسب من المال أكثر مما يكسبه، محترفاً مهنة ليست مهنة. فضّل أن يفاتحني ناظراً إلى يديّ اللتين لم تشوّههما بالتأكيد أعمال الحقول، ولكنهما على الأقل تشتركان مع يديه في القذارة. بذل قصاراه؛ ليكرر على مسامعي أن الأمر مجرّد إيجار وقتي، قابلٍ للتجديد ضمنياً، شيء في خيط تجاعيده يقول لي إنني لو وقّعتُ له على ورقة لقضيت بقية عمري تحت رحمته. رفضت قطعياً. فاتّخذ على التوالي هيئة المقهور، فالمتفائل، فالمهدِّد، ثم المتضرِّع. كل هذا سدى، فقد رفضتُ عرضه. وحين طلب مني أن أشرح موقفي، أجبته جواب محتال: «لا أرى فائدة أجنيها من هذه العملية». أعاد الكرّة، فكشفت له أخيراً نيتي في أن أربّي خيولاً، من نوع «الكريولو» الأرجنتيني. خطر ببالي ذلك الاختراع النابه وأنا أخاطبه. تظاهر لحظة بأنه سمعه. كنت أرجو أن أداهنه فأُعلِمَه بأنني سأشتري منه التبن للشتاء. وكان ذلك يكون جهلاً مني بأنه لا يملك منه لنفسه

---

(1) «فرويند» (Pierre-Yves Freund) فنان ورسام فرنسي من مواليد سنة 1951.

ما يكفيه. عاد أدراجه بالمشية عينها، مشية الرجل المقوّس الظهر الذي لا يتطلع إلى السماء إلا مرة واحدة في اليوم؛ ليعرف أحوال الطقس.

إن الإلهام لحرون. وتَعَلُّق من كان في مثل سني بهذا النوع من الأوهام، يعني أن الحياة لم تتخلّ عنّا تماماً. لكأنّ بقائي جالساً على عتبة باب بيتي يجلب إليّ الزوّار. فلم يمض نصفُ ساعة على انصراف المزارع حتى مثل أمامي زوج الروسية. رأسه الحليق يجعله يبدو أكثر ضخامة مما هو عليه في الحقيقة. وبعد تبادل كلمات المجاملة العادية، وقد قصّرها حلول الليل، كلّمني عن أرضي المحمية للصيد. والرأي عنده، أن من مصلحتي أن أنضمّ إلى مجموعة الصيادين التي ينتمي إليها، وهو ما سيتيح لي أن أصطاد دجاج الأرض والحال أن أرضي لا توفّر لي ذلك. أحبّ أكل دجاج الأرض، ولكنني لا أطيق قتلها، وهذا تناقض خفيف أطمع في أن يُغفَر لي. خادعته بعض الوقت بأحاديثي، ثم عرضت عليه قهوة فقبل على الرغم من تأخر الوقت. قلت بمداجاة، إنني لا أمانع في صيد الخنزير البري إن قُدِّم لي الدليل على أن نموّه الديموغرافي تجاوز الحدّ، وكرّرتُ تهديدي لسرّاق الكمأة. أجاب: «ولكن يقال إنك لا تأكلها ولكنك تهديها!». في ذهنه، لا تتحقّق السرقة إلا إذا سَلَبَتْك مكسباً. قلت: «إن السرقة تمنعني فعلاً من أن أهديها، وهذا ما يضايقني». أبدى موافقته، ووعد بأن يقوم بتبليغ الرسالة في الريف المجاور، دون أن يبسط لي حبل الوهم، إذ أن للصوص عاداتهم التي دأبوا عليها منذ القديم، وفي ذلك العهد كان والداي أضعف من أن يستطيعا الوقوف في وجههم.

ثم، دون مقدمات، سألني إن لم أر زوجته مارّة. إن مجرد طرح السؤال، بالنسبة إلى رجل غريب مثلي، لبليغ الدلالة إلى حد كبير على طبيعة العلاقات الرابطة بينهما. ولكن وجهه يشي بأنّه لم يكن يرى الأمور كما أراها. فزوجته، كالكلب البوليسي الذي تدفعه حاسّة شمه أبعد مما يريد صاحبه، تعود إلى البيت متأخرة. غير أن الصياد المتمرس لا يجلس إلى مائدة الطعام هانئ البال

إلا إذا عادت كلابه كلها إلى وِجارِها. حين تأهب للانصراف، حدجني بنظرة حانقة. وكأنه يريد أن يقول لي إن علاقتنا يمكن أن تسوء إن لم أحترس. وفي الأثناء، كان الظلام قد أسدل ستاره على الريف، فنقلت فَرَاشي الرسْم إلى أواني الموادّ المحلِّلة. خفتت أصوات النهار، ولما تستيقظْ أصوات الليل. السكون يهدهد الأرواح الهشة التي لا تنقذها أي نجمة من نجوم الليل.

عاد كلبي الصغير من نزهته المسائية، منجذباً بعطن جلود الحيوانات المتوحشة الذي يبدو أن سترة المزارع قد أذاعته. تجنَّب أن ينظر إليّ وكأنني كنت سأحاسبه. ولكي يُثبِتَ لي أنه عاد إلى منصبه، رفع خطمه عالياً، وقد اتسع منخراه. ثم هبّ على قوائمه قلقاً. هرّ قليلاً وتقبّض وحرّك ذيله. برز شبحُ المرأة بوضوح في الغبش. حيّتني محرّكة شعرها الغزير، الذي سطّحته بعضَ الشيء رطوبةُ المساء. ورغم قلة الضوء، فقد تأكّدتُ أن فمها يريد أن يبعث رسالة مختلفة عن الرسالة التي تريد عيناها إبلاغها، وأنّ كل طرف يزمع أن يواصل طريقه غير آبه بالآخر. اعتذرتْ عن إزعاجي، وطلبتْ مني كأس ماء تروي بها ظمأها. لقد قامت بجولة أكبر مما كانت تتوقع، وإن سمحتُ لها، فها هي سعيدة جدّاً بأن تستسلم لهذه الاستراحة القصيرة قبل أن تعود إلى بيتها حيث زوجها بالتأكيد في انتظارها. وأردفت بمكر لا يكاد يخفى، إنه في انتظارها في نهاية الطريق، واضعة يديها على خصرها، مما يبرز صدرها، وكأنها كانت تريد أن تتباهى بما لديها. كنت قد تركت النور مضاء في مرسمي، فاقتربتْ منه. لم تكن أي لوحة فيه معروضة. فأنا أقلبها إذا اكتملتْ. انتشتْ؛ لاتّساع المكان وأضافت أنها هي نفسها رسامة، وهو أمر، بدل أن يدنيني منها، ينئيني عنها تلقائياً. وقالت إنها لا تتكسّب من الرسم، مقيمة بذلك ضمنياً تراتبية بيننا. إنها تودّ أن ترى عملي يوماً ما، أكّدتُ لها أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه. وحين كانت تتكلم، كان جسدها يلهو معي. كانت تمثل دور المنفعلة أكثر مما ينبغي في أول لقاء. عند انصرافها، لم ألتفت إليها، حتى لا تكتشف أنني كنت

أتفحّصها. ولكنها لم تمتنع عن تفحّصي. وقبل أن تعود أدراجَها، عرضتْ عليّ أن تأتيني قريباً بعدد من لوحاتها التي ستقبل أن تبيعني إياها إن رغبتُ في ذلك. أبديت موافقتي، مستغرباً، دون أن أنبس. وتلاشت في الظلمات الرطبة. إنّ تصرّفها معي بوصفي زبوناً لا يقلقني بقدر ما يقلقني الفراغ الموالي. وخلافاً لما يُعتقد عادة فإن الوحيد يتألم من الوحدة، ولكن أقل مما يتألم من صحبة الغير.

غداً، يتعين عليّ أن أستأنف شغلي إن أردتُ أن يكون عمرُه أطولَ قليلاً من عمري. فذاك هو الوسواس، أن يطيل الإنسان وقته مع أمثاله، وأن يلتصق بذاكرة الجنس الذي ينتمي إليه. لذلك أبحث بإصرار عن تعبير واضح الطرافة، عن نور لم يسبقني إليه أحد؛ لأقول بكلمات جديدة ما قاله غيري كلهم بكلماتهم، دون أن ينتبه شخص في أي لحظة إلى أنني سرقت شيئاً من غيري. أتساءل هذا الصباح إن لم أكن ماضياً إلى أبعد من هذا، إلى أبعد بكثير من هذا، فآخذ في رسم لوحات لن يقيَّض لها أبدا أن تغادر هذا المكان، وتظل أسيرة هذا الفضاء الذي سأعيد تشكيله حتى أجعل منه ضريحاً لها. إن العقود الجارية لا تسمح لي بهذا، ولكنني أعلم أنني سأصل يوما من الأيام إلى ذلك الرسم الكلي. خمسة وعشرون هكتاراً مخصصة لعملي سألفّه في إهابها. سيتعاور الناس ملكية ذلك المتحف دون أن يتمكن أحدهم من أن يزحزحه عن موضعه.

لا تسيئوا الظن، فأنا بعبقرية الكبار عليم. ولكنهم لم يضايقوني يوماً ولا هم ثبّطوا همّتي. هناك فكرة رائعة تمهد لكل عمل، وما أبعدني عنها. يمكننا أيضاً أن نعيش ببساطة، دون فن، ولكن في تلك الحالة، غالباً ما يؤول بنا الأمر إلى التآمر عليه. أما أنا، فأعيش على الهامش، وأنضح دجلاً، إنني عالق بين حياتين. التجار والنقاد يأكلون مني حتى التخمة، وأنا أدرك أن أفكاري وأسلوبها بلا طائل. إنه لفي غاية الإزعاج ألا يكون الإنسان عبقرياً بحق ولا معادياً لعبادة الصور الدينية.

في الصباح، نهضت مقتنعاً بأنني لن أستيقظ أبداً تماماً، وأن الطبيعة

ستتركني طوال النهار في ذلك الثقل المخصوص. غير أن المعجزة اليومية تقع. لون السماء على درجة من الزرقة توحي بأنها عوملت بقسوة كامل الليل. ومع ذلك، فباستثناء الندى لم يسقط شيء.

لا تبحثوا عن العلاقة، ولكن كان يجب أن يحترق خبزي في المدفأة حتى أفكر في الأمر. روسية بمثل ذلك الجمال، عدا استثناءات قليلة، ومالك أراض صغير أكثر انحناء بسبب شكوكه وحيائه منه بسبب عمله، هل لهما على الأقل إمكانية واحدة معقولة ليلتقيا؟ وإن كان ذلك كذلك، فهل لهما حظ في أن يتحابا؟

كثيرا ما أفكر في تلك الروحانية التي فارقت الإنسان يوم قرر أن إلهاً خلق العالم في ستة أيام. وهو ما يفسر أن الأعمال النهائية يعوزها شيء من الإتقان، ولكن تلك قضية أخرى. المسألة أننا سمحنا لأنفسنا بأن نسيطر على كافة الأنواع، الحيوانية والنباتية. والآن وقد تبيّنّا بليّةَ تلك الغطرسة، لم يعد بإمكاننا أن نرجع إلى تواضع بدائي لن يجعل منا إلا ذرات في كلّ، لا كما كنا نظن من أننا الذرة المركزية التي تجهد في اختزال كل ما عداها في لا شيء.

جاء المطر فجأة من الشرق. مظللاً المشهد بزخات مائلة جعلت الباحة التي تفصل البيت عن مرسمي غير سالكة. إنها جزئية منزلية، ولكنني أرسم في البرد ورجلاي مبللتان.

ظهرت فنانتي الروسية من جديد في اليوم الرابع. تركتِ الأيامَ الثلاثة الماضية تنصرم؛ لتبدّد لديّ الوهمَ بأنها تستعجل القدوم لرؤيتي. استقبلتُها ببرود شديد، استشعاراً مني أنها في نهاية المطاف ستعقّد حياتي. إننا لننوس في خياراتنا بطريقة ماكرة، أحياناً.

كنت أنظر إليها شزراً وأنا أُعِدُّ القهوة. كانت امرأة حتى أخمص قدميها. كانت تراوح بين الحالات، كبعض سيول الماء السريعة التي تتقن تأمين الاستراحات، فتكون مسطحة كالبحيرة قبل أن تستعيد تدفقها ثم ينتهي

بها الأمر شلالات مذهلة وتهدأ من جديد موهمة بأن كل ما حصل لا يعدو أن يكون حلماً. لقد كانت تملك، ككثير من السلافيات، موهبة فطرية في الرصانة، كانت تراوح بين رتابتها وبين مكر طفولي. كانت لا تنفك تغير المسافة التي تفصل بيننا، فتبدو تارة متواطئة وتارة نائية. كانت تريد أن ترى مرسمي، ولكني لم أتنازل. لم تتحدث هذه المرة عن لوحاتها، وظللنا برهة طويلة صامتين، نحتسي قهوتنا الحارقة برشفات مترددة. كان ذلك الصمت مريحاً. وكانت نظراتي معلقة بذلك الفم الذي كان يفضح عينيها.

– أتحبّ أن أحدّثك عن نفسي؟

أجبتها:

– ستحدّثينني من بعد.

من بعد ماذا؟ كانت تلك هي المسألة، ولم تكن دهشتي لما تفوّهتُ به بأقلّ من دهشتها لما سمعَتْه. وأردفتُ، وكأن شيئاً لم يكن:

– وطفلاك، من يعتني بهما؟

قطّبت وجهها وقالت:

– إنهما في المدرسة.

– في القرية؟

– كلا، على بعد عشرين كيلومترا من هنا، في القرية التي يقيمان فيها مع أبيهما، أسبوعين كل شهر.

– لأن الـ...

– «قريقوري».

– لأنّ «قريقوري» ليس أباهما؟

– كلا، ولا هو زوجي، أنا مطلّقة ولكني لم أتزوج من جديد.

– ألا تشتاقين إليهما؟

– الطفلان؟

– نعم، الطفلان.

– كلا، عندما يكونان معي، أشعر بالاختناق.

لاحظتْ أنني متحفظ أكثر مني منكراً.

– لم أُخلقْ ليكون لي أطفال.

– أفهم ذلك، ولكن ما الذي يجبرك على الإنجاب؟

– لا أدري.

– لو كان طفل واحد، لوُجِدَتْ طرق كثيرة لرواية القصة، أما طفلان فمن الصعب أن نجد مسوغاً، اللهم إلا أن نقول: «لم أكن أريد أن أنجب الأول، ولكنني خشيت عليه أن يضجر، فأنجبت طفلاً ثانياً».

وضعت رأسها بين يديها، وتنهدت:

– أعرف هذا كله، ولكن الأمر اقتضى مني أن أنجب اثنين؛ لأتبين أنني لا أملك حقيقة الغريزة الأمومية.

اغرورقت عيناها، خلافاً لما كنت أتوقع. وأردفتْ، وقد سكنت دمعة في طرف عينها:

– كنت أريد أن يكون لي عقب.

– لا ينبغي أن نضمن لأنفسنا عقباً مهما كانت الظروف. إن كانت الإنسانية حقيقة بالرثاء إلى هذا الحد، فما ذلك إلا لأن مليارات البشر ينجبون أطفالاً، وهم عاجزون عن الاعتناء بهم.

ظلّتْ صامتة برهة، ثم قالت:

– أليس لك أطفال؟

– كلا، وهذا خياري. لقد تبنّيتُ الخيار الذي كان ينبغي لأبوي أن يتبنياه حتى يتجنبا أن يضعا على الطريق ثلاثة كائنات أنفقوا حياتهم يتساءلون عم تراهم يفعلون في زورق مثقوب.

– أما كان يمكن أن تنجب أطفالاً ولو عن حب؟

– لماذا؟ وهل أنجبتِ أطفالك عن حب؟

– أنا؟ كلا.

– حقاً لا أفهم ما الذي دفعك إلى الإنجاب؟

– كنت أريد أن يبقيا بعدي...ولكني لا أتحمل أن يَلْتَهِما وجودي. لعلك تجدني كريهة، أليس كذلك؟

– أنا أحتاج إلى أكثر بكثير من هذا لأكره إنساناً. وعلى كل حال، فليس هذا من شأني.

– لم أكن أريدك أن تعتقد أنني امرأة دنيئة.

– أنا لا أعتقد ذلك.

ذهبتُ لإعداد القهوة من جديد وحين عدت من المطبخ، وجدت امرأة تذرف الدمع ناظرة إلى الخارج حتى لا تلتقي بنظراتي المندهشة.

اعتذرتُ لها؛ عن إثارة الموضوع، ظلّتْ صارفة وجهها، وأشارت بيدها علامة على أن المسألة انتهت.

فقلت لها لألهيها:

– ستُرِينَني لوحاتك يوماً ما.

لم تردّ أول الأمر. ثم بعد أن تنحنحت قالت:

– لن يجدي هذا نفعاً. أنا أرسم؛ لأبيع بعض اللوحات للسواح صيفاً؛ حتى أجمع شيئاً من المال، ولا أبقى رهينة ذلك البخيل «قريقوري»، ولكن الحقيقة أن ليس لي موهبة. لستَ مجبرا على أن تجاملني.

همستُ:

– أجدك رائعة.

– وأنا أعتقد أنك كنت تكون أباً جيداً. فمجرد رفضك للأطفال دليل على ذلك.

– لستُ مقتنعاً بالأمر.

كان وجهها مشوشاً، ووجنتاها المبيضتان مرتفعتين تحت عينيها المحمرتين. وما إن أخذتُ معطفي وعدتُ إليها حتى تغيرتْ ملامحها وكأنما كانت شخصاً آخر. نظرتْ إلى كلبي بلا مبالاة. أما هو، الذي كان يحرك ذنبه لأي سبب، فقد حدجها بنظرة حائرة، واندفع خارجاً. وبما أنها جاءتني دون سبب، فلم تكن بحاجة إلى أن تسوّغ انصرافها، ولا أن تتوقع موعد زيارتها المقبلة. الواقع أنني فكرت فيها طيلة النهار. عدلت عن الرسم وذهبت أتمشى. توغلت في الغابة، دون سبب معين، متوقفاً من حين إلى آخر؛ لأجلس على جذع أطاحت به العاصفة الكبرى التي هبّت في آخر القرن الماضي. تملّكني، خلال ساعات، الشعور الشديد الغرابة بأني في موضعي ذاك، أنعم بسكينة، حلّتْ فيها الخفّةُ محلّ الضيق، كما لو أن أي شيء قد يقع غداً أو في الأيام الموالية، في أي مجال من المجالات، لا يمكن أن يكون من مسؤوليتي. لقد غدوت من جديد عنصراً متواضعاً في كونٍ صرتُ أخضع له دون مقاومة. حتى إني كنت أتساءل كيف قضيتُ كل تلك السنوات في مقاومة الغير، ومقاومة طفولتي، ومقاومة نفسي، ومقاومة حالات ازدواج شخصيتي المباغتة. ليس بوسعي أن أربط ذلك الهدوء غير المتوقع بزيارة المرأة الشابة، في صباح ذلك اليوم بالذات. كانت تلك السكينة مفاجئة، وزاد من شدة تمتعي بها علمي بأنها لن تدوم. كانت دكتاتورية الذرّيّة تتأهّب للنهوض وتحريك كل ذلك الضيق الذي كان وقودَها. ينبغي إذاً أن أعصر ذاتي من شقوقها؛ لأستخرج منها العصير الذي يهبُ لوحاتي ألوانَها. وفي لمحة بصر، خيل إلي أنني قادر على فعل شيء آخر، كأن أعتني بتلك الغابات، أو حتى بالبشر. اعتراني شعور خاطف بأنني قادر على أن أفيدهم، وأن أصغي إليهم بحق. ذكّرتني تلك الحالة ببدايات السبعينيات، حين أردتُ، صحبة عدد من رفاق الصدفة، أن أنشئ جماعة فاضلة، أو قل مخبراً هدفه إنقاذ البشرية. كان على ذلك المجتمع المصغر أن

يلغي الطبقات، وأن يضع الأنا في المرتبة التي يستحقّها، وأن يجعل معرفة النفس مقدّمة على معرفة العالم، وأن يراجع مجال الأخلاق حتى لا تبقى مصدراً للعذاب. لم تر تلك الجماعة الفاضلة النور أبداً، وعاد كل منا إلى شؤونه البائسة.

في بعض الأركان التي جفّفها انحدارُ الغابة، هناك حيث تتشكل وهدة تكسوها طحالب داكنة، تكوّنت حول حوضين طبيعيين، فيهما تتجمع الطرائد الكبيرة ليلاً، عثرتُ على فطريات من نوع القوقع الأصفر كانت متفتحة كالفونوغرافات العتيقة. عدت إلى بيتي، ثملاً من الهواء الرطب البارد.

*

قالت لي بإلحاح:

– لستَ ثرثاراً جدّاً.

– الفنّانون الثرثارون ليس لهم غالباً ما يعبّرون عنه في أعمالهم. قد لا يعني هذا ضرورة أن أعمالي كثيفة، ولكني، من باب التطيّر، أفضّل أن يكون كلامي أقلّ ما يمكن. فقد كان جدّي الأول، وهو آخر شخص محترم في عائلتي، يقول: «إن لم يكن للإنسان ما يقوله، فلا يستوجب منه ذلك أن يُعلِم به الناس». إن هوس الكلام غالباً لا يقلّ إقلاقاً عن صمت المصاب بالتوحد. هناك لاشك حل وسط، ولكنه لا يناسبني. وهذا لا يمنعني من طرح الأسئلة. هل تنوين أن تمرّي كل صباح؟

– لا أدري، ليست لي نيّة واضحة.

– وهل زوجك، أعني...رفيقك على علم؟

– نحن لا نأتي منكراً.

– هذا أمر نعرفه، أنا وأنت، أما هو فلا يفترض أن يعرفه.

– هذا أمر لا يعنيه.

– أمّا أنا، فيعنيني أن يأتيني، يوماً، ليطلب مني توضيحاً.

– لن يطلب ذلك منك أنت. فهو أنذل من ذلك. وعلى كل حال فأنا لا أستطيع أن أهجره.

– لماذا؟

– لأنني لا أملك مالاً، ولأنني لا أعرف إلا الرسم، ولأنني لا أحسن الرسم بحيث أستطيع أن أكسب منه عيشي. ليس لي الحظ الذي عندك، أعني، ليس لي عبقريتك.

– وما يدريك عن عبقريتي؟ فأنا لم أُرِكِ بَعْدُ لوحاتي أبداً...

– حين أرقن اسمك على الأنترنت، أشاهد عدداً من لوحاتك، وقد رأيت أنها على درجة من الضخامة، بين ثلاثة وأربعة أمتار على خمسة، أليس كذلك؟

– لا يوجد حجم محدّد.

– إنك تفضّل أن تجعل لوحاتك ضخمة حتى يفتتن الناس بحسك المشهدي، هل هذا ما تقصده؟

– ربما، ولكنني لا أرغب في التحدث معك عن عملي كما لو كنتِ صحافية تعمل في مجلة فنية.

غيّرتْ موضوع المحادثة، وقالت:

– غريب أن يكون رجل مثلك بلا امرأة إلى جانبه.

تفحصتُها مطوّلا. نازعتني نفسي لحظة بأن أكون بغيضاً، ثم ابتسمت قائلاً:

– أنا أتسامى في الفن.

صمتُّ هنيهة، ثم أردفتُ:

– أنا من جيل اكتشف الجنس المسعور، قد لا تكون كلمة المسعور مناسبة، لنقل الجنس وحسب. ولم أحسن السيطرة على تلك الظاهرة على خير وجه.

لذلك اتخذت قراراً جذرياً: ألا أخضع له. وقد بلغت من عدم خضوعي للجنس حداً قضيت معه على شهوتي.

– أأنت هازل؟ هذا أمر مستحيل بالنسبة إلى الرجل.

– لست هازلاً. أستطيع حتى أن أقسم لك على ذلك بكلبي. ليس هذا الموقف أخلاقياً. يبدو لي الجنس أكثر قسرية، وأكثر كلفة، وأكثر تخييبا للأمل، وأكثر رتابة، وأكثر طغياناً مما تستحقه متعة لا تنطفئ جذوتها تلقائيا. أتفهمين ما أعنيه؟

– أفهم.

– الجنس ليس الواقع، وإنما هو بناء يستنفر كل ما هو حالم وخيالي فينا. إنه المنافس الأول للفن. لقد اخترت الفن على الجنس. والسبب بسيط: هناك حظوظ أكثر أن يتذكر الناس لوحاتي من أن يتذكروا رهزي. وباستثناء «كازانوفا» و«دون جوان» فما الذي يبقى؟ الطوفان.

لعل كلماتي كانت إلهاماً سماوياً، إذ أن الطبيعة ما لبثت أن أرسلت على الريف المجاور مطراً مدراراً. تظاهرت «ناتاشا»، وهذا هو اسمها، بأنها تألمت؛ لتقلب الجو الذي كان يمنعها من الانصراف. كان الوقت يمر بسرعة تكاد لا تجاوز سرعة مروره في أحد أفلام «برغمان»[1]. ولما انتهى ما في جعبتي من حديث، تناولتُ من مكتبتي مجموعة من الكتب حول أعمال «أنسالم كيفر». كان ذلك مني دعوة لتَقاسُمِ انفعال، ولكنها لم تنظر بحق إلى الغلاف، ظانّة أن الأمر يتعلق بعملي أنا.

– كلا، كلا، إنه عمل الشخص الذي يقضّ مضجعي أكثر مما يقضّه سائر الرسامين.

وبهيئة روسية محض أجابت، وقد صدمها أن يتذمر ميسور الحال:

(1) «برجمان» (Ernst Ingmar Bergman) (1918–2007) مخرج مسرحي وسينمائي وكاتب سيناريو سويدي معاصر. تتناول أفلامه قضايا ميتافيزيقية («الختم السابع») ونفسانية («شخصية») وعائلية («مشاهد من الحياة الزوجية»). (المترجم).

– إنك تكسب عيشك جيداً برسمك، ومع ذلك فإن لديك من الوقاحة ما يجعلك تنوح إزاء عبقرية شخص آخر؟

– لو لم أكن أبدي واقعية؛ لقضيت على نفسي بأنني لن أنجز شيئاً ذا بال أبداً.

– وما يدريك؟

كانت غارقة في «فلاديمير خلبنيكوف والبحر»[1]، وهي سلسلة مدهشة من اللوحات كان المعلم قد وضع فيها سفناً حقيقية، غواصات جلها بارز، من المعدن، بالحجم الطبيعي. طُرِقَ الباب. ظهر من خلال أحد المربّعات الصغيرة رأسُ زوجها، ملتصقاً بالبلور المبلل، باحثاً عمن يكون ذانك الشبحان اللذان غامت ملامحهما في البخار. وحين تبيّن امرأته انصرف. اتجهتُ إلى الباب غير عجلان. كان يغادر المكان حثيث الخطى والتفتَ حين قدّر أنه ابتعد نوعاً ما، مشيراً بحركة إلى أنه سيعود، كان يبدو متيبساً من الانقباض. وعندما أخبرتُ «ناتاشا» بأن الزائر كان زوجها صار وجهها، الشاحب بطبيعته، باهتاً.

– الآن، أنا آسفة، لا أستطيع الانصراف، سيكون ذلك بمثابة الإقرار بذنب لم أقترفه. وعلى كل حال فهذا الشخص لا يملك من النباهة ما يجعله يرى الأمور على هذا النحو، يحسن بنا حينئذ أن نقترفه، ذلك الذنب.

كانت تبدي ابتسامة غريبة، و شفتاها ساكنتان، ووجها يؤكد بداهة ذلك المقترح.

البقية؟ ما تراني أقول مما لا تعرفونه. في تلك اللحظة بالذات، كان قد تملّكني الإحساس الغريب بأنني أستطيع حقاً أن أتوقف عن الرسم. كنا نشكّل لوحة عجيبة، عاريين معاً، متمدّدين على كنبة تعود إلى فترة ما بعد الحرب، تهرأت زواياها. كانت مرآة مذهبة إطارها متقشر، منصوبة في الوسط، تعكس

(1) «فلاديمير خلبنيكوف والبحر» سلسلة من صور البحر أنشأها «كيفر» بين سنتي 2004 و 2005 تكريما للشاعر الروسي «خلبنيكوف» (1885–1922). (المترجم).

لي الصورة المزعجة لجسمي المهمل ملتصقاً بجسم «ناتاشا» البارع الجمال. كنا نشبه كائنين لا يملك أحدهما أن يكذب على الآخر، على الأقل لبعض اللحظات المتبقية.

أخذتْ تتكلّم. دون أن أطلب منها ذلك، فتحتْ لي أبوابَ طفولتها في «سِيمِيبَالاَتِينْسْكْ»[1]، حيث ما زال يقيم أبواها. لم تدر ما تقول عنهما غير أنهما طيبان. كانت تؤكد ذلك تأكيداً دعاني إلى أن أتساءل عما إذا لم تكن تحاول بكلامها أن تقنع نفسها. كانت أمها أستاذة موسيقى في أقسام الصغار. وكان أبوها قد اشتغل في القنبلة النووية السوفياتية. كانت تصفه بكونه فيزيائياً قليل الكلام لم يُبْدِ لها أبداً أي قدر من الحنان، ولكنه مع ذلك وجد في نفسه اللياقة للاعتذار عما صدر عنه، ذات يوم عادي ليس فيه ما يهيئه سلفاً لذلك الاعتذار. كانت تلك الأسرة النموذجية قد تأملت باستسلام آثار التجارب النووية في سكان المنطقة، واغتبطت؛ لنجاتها من تلك الأورام المتغيرة الأشكال التي كانت تصيب الكهول بقدر ما تصيب الأطفال.

لئن كانت رسّامةً غير ذات شأن كما تدّعي، فإنها كانت راوية حزينة رائعة. وبينما كانت تتحدث، كنت أشعر بتزايد قبضتها عليّ، فكل كلمة، وكل حركة كانت تزيد من انشدادي إليها وتغلق بصمت كل المنافذ التي كان يمكن أن تسمح لي بأن أفلت من قبضتها. كنت أُسْلِمُ لها نفسي كفريسة تتمتع بوهم الحرية المسموح لها به. كان شعور بسيط يردّني إلى علاقاتي العاطفية أيام الشباب، في ذلك العهد الذي كان يشدّني إعجاب أعمى ومروّع إلى شخص لم يكن يشعر بوجود تلك العاطفة. كرّستُ حياتي بعد ذلك للتخلص من ذلك الميل، حتى وجدت نفسي وحيداً.

(1) «سيميبالاتينسك» (Semipalatinsk) مدينة من مدن «كازاخستان» كانت في عهد الاتحاد السوفياتي سابقا مركزاً لإجراء التجارب النووية. وقد جرت فيها أول تجربة نووية عسكرية سنة 1949 وظلت نشيطة إلى سنة 1989، وكانت شحنتها تقدر بـ2500 مرة أكثر من الشحنة النووية في «هيروشيما». وقد أحصت فيها الوكالة الدولية للطاقة النووية 460 تفجيراً نووياً. (المترجم).

لم أكن واثقاً من رغبتي في معرفة تفاصيل المسار التي قادتها هنا، إلى هذا الريف الذي يلتقي فيه خاصة المتهربون من الناس. ولكنها كانت مصرة على أن تروي لي قصتها: وهي قصة امرأة شابة كانت تريد أن ترحل من بلادها، مدفوعة.بمرض في الدم كانوا يزعمون أنهم لا يعرفون أسبابه. سجلت اسمها في أحد مواقع الشبكة، «فاتنات روسيات للاكتشاف»، وهو يمجّد كل الخصال الأخلاقية لبنات أوروبا الشرقية خاصة. لا، بل إنها أرفقت صورتها. طُلِبَ منها أن تتخذ وضعاً لم تكن متعوّدة عليه، تنّورة قصيرة وكتفين مكشوفتين. أكثر من عشرة فرنسيين وبلجيكيين كانوا قد سافروا إلى «سيميبالاتينسك»، كانوا رجالاً بدينين يبدو عليهم الذهول يتحدثون عن إنشاء أسرة. وعلى الرغم من طيبة مظهرهم، فإنهم لم يكونوا قادرين على إخفاء خزي العهود الخوالي، حين كان عابرو سبيل يختطفون الريفيات الجميلات اللاتي كن يستسلمن دون مقاومة. كان أولئك الرجال يجمعون إلى مهانة من لم يجد أبداً من يحبّه، مهانةَ من تعيّن عليه أن يدفع لإشباع شهوته. وبمرور الأيام، أصبح الجسد عدواً حصرياً. ومن بين أولئك الأفظاظ، الذين كانوا واضحين على كل حال، بدا لها أن أحدهم، وهو في حوالي الخمسين من عمره، أقل إثارة للشفقة من غيره. كان ابنَ مربّ كبير في «دوردوني»، كان له من رؤوس الماشية ما يكفي لاعتباره من ذوي الأملاك. والراجح أنّ ركْب النساء فاته بسبب حيائه لا بسبب عيب فيه مستور. هكذا بدا لها، حين رأته أول مرة في المطار، محشوراً في معطف من جلد الخروف يميل لونه إلى الرمادي. القضية التي ابتدأت كأنها مفاوضة دولية انتهت كما تنتهي قصة من قصص «موباسان». تزوجها الرجل، وبعد أن عالجها في أفضل مستشفيات «بوردو»، أنجب منها طفلين. ونظراً إلى اقتناعها بأنها استوفت تعهداتها، فقد غدت لا مبالية به، ثم هجرته؛ لتعيش مع ذلك الجلف الآخر الذي كان جاري. أعتقد أنها كانت صادقة حين أخذت في البكاء؛ لأنها لم تعثر على ذلك الحب الذي طالما كانت تتوق إليه. كانت تتضرّع

إليّ بعينيها الواسعتين النديّتين. مددتُ يديّ إلى يديها؛ لأشدّ أزرها، ضاغطاً على راحتيها مطولاً. ثم اعترفتْ لي بأن «قريقوري» كان يضربها يومياً، أو على الأقل في الأيام التي لا ترعى فيها طفليها. اعتراني شيء من الارتياب. فالمرأة المضروبة لا يكون لها مثل ذلك الجسد، كانت بعض مفاصلها تكون متعطلة، ومشيتها منكسرة، وكانت تُرَى عليها آثار، آثار كثيرة. كان الواقع يكذّبها، وجسدها السليم يخونها.

انصرفتْ.

لم أرها بعد ذلك أبداً. غادرت المنطقة، ويعلم الله إلى أي طريق وجهت روحها. ينبغي أن أقرّ بأنني انتظرتُها. كنت مشتاقاً إليها إلى حد أنني آخيت على نحو ما رفيقها، ورفعتُ عنه، هو بالذات، منع الصيد على أراضيّ. وهو يأتيني مرتين في العام بفخذ أيل صغير، أو خنزير بري أقبله منه على مضض. أخذت أيضاً أخالطه؛ لأكوّن لنفسي فكرة عنه. كنت أريد أن أعرف ما إذا كانت صادقة في زعمها أنه كان يضربها. وبعد شهور عديدة توصلتُ إلى النتائج التي كانت واضحة. ولئن لم أمسك بعدها فرشاة أبداً، فلا أظن أن السبب الوحيد في ذلك يكمن في تلك الحكاية برمّتها. فـ«كيفر» آذاني حقاً.

ذات صباح ربيعي، حين كنت أحتسي قهوتي متسائلاً كيف سأقضي يومي، لاح لي في إطار باب المطبخ خيالُ دركيٍّ من معارفي. كانت تلك أول مرة أراه فيها وهو في الخدمة. كانت بزته النظيفة تبدو كما لو أنها خرجت للتو من المصبغة. في العادة، كانت هيئته مختلفة مع الأنخاب الودّيّة التي كنا نتناولها من النبيذ الأحمر. بنفس اللحظة فكّرتُ فيها، والحال أنه لم يكن يعلم أنني كنتُ قد عرفتُها. ثم خطر ببالي أنها وُجِدَتْ ميتة، قتيلة، وأنهم ربما عثروا على آثار جينية من لهونا ذات مساء. أدخلتُ الدركي.

بما أنني أغلقت هاتفي، فإن أختي اتّصلتْ بالدرك: أُوقِفَ أخي بسبب جريمة قتل. لم أكن قادراً على أن أصدق. أن يقع هذا لعائلتي لم يكن يبدو لي بلا معنى.

أما ما كان بالمقابل بلا معنى فهو أن الطب النفسي لأخي استطاع أن يؤدّي إلى مأساة من هذا القبيل. ظللت جالساً أكثر من نصف ساعة وجها لوجه مع الرسول المسكين، الغارق في بزته الشديدة الضيق، وأنا أردد على مسمعه:

– غير معقول، يا عزيزي، لا يمكن أن أكون قد خُدِعْتُ إلى هذا الحد في أخي، أؤكد لك، أن هذا الشخص عاجز عن القتل، إنه مزّاح، مجنون بعض الشيء، ولكنه مزّاح.

أخيراً، زم شفتيه، وقال:

– بودّي أن أصدّقك، يا عزيزي.

ظللت برهة طويلة على أريكتي، صامتاً. راعى رفيقي صمتي، ظاناً أن الحزن برّح بي. وفي الحقيقة، لم أكن أفكر إلا في شيء واحد. وبعبارة أدق، لم أكن أفكر إلا في شخص واحد، هو «إيف كلاين»[1].

لقد توفّي شاباً إلى حدّ أنه كان من قبيل المعجزة أن يكون قد وَجَدَ الوقت لإبداع عمل فني. لقد عاش «كلاين» في نفس الطريق التي عشت فيها بباريس، قبل أن أقيم فيها بمدة طويلة. وكلما ذهبت لشراء الخبز، مررت أمام اللافتة الصغيرة التي تشير إلى عبوره بالمكان قبل أن يخترمه الموت بتسرّع مريب. ولعله، سيجد نفسه، ذات يوم، وجها لوجه أمام صحافي لا يعرف على الحقيقة قيمة الرسم الأحادي اللون. ربما رد عليه بأن الأحادي اللون هو مآل الفنان، وأن كل الألوان التي يمكننا أن نشاهدها في لوحات الرسامين الكبار لم تكن إلا محاولات للوصول إلى الأحادي اللون.

---

(1) «إيف كلاين» (Ives Klein) (1928 – 1962) رسام فرنسي، يعدّ، رغم قصر مسيرته الفنية، أحد أبرز ممثلي حركة الطليعة الفنية في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

# حُباحب اليشْم[1]

كنت جالساً في شرفة مقهى يقع قبالة الطريق الرئيسية التي تقطع المدينة نصفين. لم يكن الوقت متأخراً، غير أن حانة «سبورتنق» كانت آخر محل مفتوح. كان الزبائن، وجلّهم من الشبّان، يضحكون بصخب في الشرفة، في حين كان عدد من المتردّدين على المكان يُغرِقون وحدتَهم على المنضدة. ومن حين إلى آخر، كانوا يتركون كؤوسهم، وقد حنّوا إليها بَعْدُ، ويَخرُجون؛ ليدخّنوا سيجارة. وحين كانوا يعودون، كانت تُرى على ملامحهم مسحةُ البهجة التي تعتري الكلاب حين ترجع إلى أصحابها. لم يكن الأشخاص الثلاثة المستندون إلى البار يعرف بعضهم بعضاً، ولكنهم كانوا يشربون متجاورين، مراعين نظاماً يكاد يكون عسكرياً. حين كان أحدهم يتكلم، لم يكن الآخران يَشعُران بأنهما مجبران على الردّ عليه. غير أن المحادثة تحتدم أحياناً، فتكون فرصة لملء الكؤوس في نخب جديد. كانت امرأة شابة ذات وجه طفولي تجلس، لطاولة قريبة من طاولتي، وحيدة. كانت تنظر أمامها مبدية ثقة في النفس زائفة، تجنباً لنظرات الرجال الجالسين للطاولات وحيدين، وقد كنتُ منهم.

قبل ستة أشهر كنت قد بعت مؤسسة الخشب التي كانت على ملكي إلى شركة سويدية، وانسحبت إلى هذا الركن من الجنوب الشرقي الفرنسي، وهو صقع منعزل يُطلّ على واد مخضوضر، معتدل المناخ. ولكن، في هذا الوقت من السنة، كانت الأشجار تجهد؛ لتستعيد نضارتها. لقد كانت تشبه مراهقين نحيفين يخرجون مرتجفين من حمام الرشاش بعد درس في الرياضة البدنية. حين لا يكون الطقس ممطراً، كانت ريح غربية شديدة تبسط الغيوم وتبيّض

(1) اليشم (Jade) حجر كريم، وتستخدم الكلمة للدلالة على مجموعة من المعادن الصلدة التي تتدرج ألوانها من الأبيض تقريباً إلى الأخضر الداكن. وهو يستعمل في الزينة والمجوهرات. يقال إنه علاج لأمراض الكلى والمغص الكلوي ويبعد الأرواح الشريرة. (المترجم).

السماء حيث تتسكّع شمس كسول. كان الشتاء يتلكأ بصورة لا تطاق، ولكن الأمل كان يولد من جديد مع ظهور البراعم الأولى. منذ أقمت هنا، وحيداً، كنت أفرض على نفسي أن أذهب إلى المدينة مرة كل أسبوع. ثلاثون دقيقة ذهاباً ومثلها إياباً. لم أحبّ هذه المدينة أبداً. فقد كانت، على الرغم من تراثها الثري وآثارها النادرة، توحي بالضيق والسأم. كنت أجلس في مقهى «سبورتينق»، ساعة الخروج من فترة السينما الأخيرة في أغلب الأحيان. وبعد انقضاء ساعة، لا يكون قد بقي في الحانة إلا الزبائن القدامى وبعض الظرفاء الذين يُزْجُون الوقت. وبعدها أعود إلى ريفي المعتم في الليالي الغائمة. كانت ليالي اكتمال البدر منيرة بصورة لا مثيل لها، نورها قطبي تقفز فيه النجوم في سماء صافية، كما يقفز الحبار في مقلاة تحميص هائلة.

وفّر لي بيعُ مؤسّستي ما به أعيش إلى نهاية أيامي، شريطة ألا أسرف في شيء. في هذه السنة أقفرت الدنيا من حولي. مضى الأبناء كل في طريق. وكذلك فعلت «باولا»، معتبرة أنها، إذ صار الأبناء بعيدين عن البيت، لم يعد هناك ما يدعوها إلى البقاء معي. هجرَتْني؛ لتعيش مع رجل أكبر مني سناً وفي مظهر أقل لياقة من مظهري، وهو أمر يحتاج إلى حديث مطول عن صورتي الماضية، إلى درجة تجعلني عاجزاً حتى عن الكلام. إن النساء قادرات على الاستغناء عن الرجال، وهذا هو السر الحقيقي للمنزلة التي يتميّزن بها. وحتى حين يكون ذلك مؤلماً، فإنهن ينجحن فيه. أما الرجال فأمرهم مختلف. وأكاد أكون على يقين من أن ذلك السبب هو الذي كان يدعوني للذهاب إلى المدينة، مرة كل أسبوع. لم أكن حقاً أفكر في أن أعثر لنفسي على شخص، وإنما كنت على الأرجح أريد أن أقنع نفسي بأنني قمتُ بما عليّ حتى ألتقي بامرأة. لم أكن أعود إلى بيتي من تلك الزيارات أكثر اطمئناناً. وكنت أعلم أيضاً أنني لو ارتبطت مجدداً بإحداهن، لما شعرت، مع ذلك، بنفسي في وضع أَفْضَل. بين الرغبة وإلغائها، هناك أصقاع شاسعة غير مقدّرة يستكشفها عدد جم من الناس في صمت.

تردّدتُ في أن أطلب جعة ثالثة. فلو احتُجِزتْ رخصة سياقتي لكان لذلك نتائج مدمرة. وإذا حيل بيني وبين السياقة، فلن يكون بوسعي أن أزور المدينة مرة كل أسبوع. نظرتْ إليّ المرأةُ الشابة نظرة خاطفة، وحين رفعتُ عيني في اتجاهها، رمقتني بقسوة. فكرتُ في الذهاب. ولكن، في نهاية المطاف، ظللت بضع عشرات أخرى من الدقائق في «السبورتنق». أشعلتُ ما اعتقدتُ أنها السيجارة الأخيرة. وفي تلك اللحظة بالذات جاءت تسألني إن كنت أستطيع أن أعطيها سيجارة. كان كل شيء في هيئتها محسوباً حتى لا تُسوّل لي نفسي أن أستغلّها.

قلت لها:

– يمكننا أن نتحادث دون أن يلزمك ذلك بشيء.

أخذتِ السيجارة وولاعتي، أشعلتْها، وجذبت طرف تنورتها، وأجابتني:

– إن كان الأمر على هذه الصورة، فبإمكاني أن أجيء إلى طاولتك.

أردفتُ لطمأنتها:

– لي من السنوات ضعفُ ما لديك.

– من الناس من لا يزعجهم ذلك.

ابتسمتُ. أنا أيضاً، ممن لا يزعجهم ذلك. ندمتُ على ما تفوّهتُ به للتوّ: لقد كان ذلك بالنسبة إليها دليلاً على نفاقي– وهو عيب خفي نحمله معنا على نحو أخرق ولا يفوّت فرصة ليفرض نفسه.

أخذتْ حقيبتها وجاءت إلى طاولتي. بذلتُ جهداً كبيراً لكيلا أتفرّس في وجهها. وعلى الرغم من ذلك، فقد رأيت على رأسها العريض شعراً قصيراً لم يكن يتلاءم أبداً وقسماتها الرقيقة. لاحظتُ أن أحد خديها كان أشدّ حمرة من الآخر، ولكن الأمر لم يكن مزعجاً. ما إن جلستْ، حتى نظرتْ أمامها مباشرة وعندما أدركت أن ذلك كان مثيراً للسخرية، وجّهتْ نظراتها إليّ وكافأتني بابتسامة أشرق بها وجهها. كنت أوحي لها بالثقة. الأمر مؤكد، بناء

على طريقتها في النظر إليّ رأساً في عينيّ، وعلى صوتها المصمّم. لم يكن في وجودي ولا في تصرّفي ما يشي بخطر داهم. غير أن بدء الحديث فنٌّ برأسه، ولم يكن أحدنا ولا الآخر فناناً.

*

– هل أنتِ من هنا؟ ومع ذلك فإن لهجتكِ ليست لهجة هذه الجهة.

– كلا، أنا من الشمال، من «دياب»[1]. جئت مع والديّ إلى هذا المكان، منذ ثماني سنوات. والآن والداي مفترقان، وقد غادرا الجهة، كل في طريق. وأنا لم أعد قادرة على فراق هذه المدينة.

– إن المدن الصغيرة لا توفّر الكثير للشبّان ممن هم في سنّك.

تردّدتْ قبل أن تجيب:

– أجل، ولكن المدن الكبرى مكلفة وليست لدي الإمكانيات.

– ماذا تشتغلين؟

– أعمل في قاعة تجميل واستجمام. أعني، مؤقتاً، لأنني أعوّض بنتاً في إجازة ولادة.

– ومن بعد؟

– من بعد؟ لا أدري، ليس لي شهادة في هذا النوع من الشغل، ولذلك فلا شيء يدفعهم إلى أن يعطوني وظيفة. سنرى، لن أقلق إلا إذا استدعى الأمر ذلك.

كانت ابتسامتُها تنضح صدقاً.

– وهل تعيشين وحدك هنا؟ أعني، إنني أطرح عليك السؤال، وليست لدي أية غاية من ورائه فليس الأمر من شأني...

– كلا، لقد كنت أعيش مع شخص، حتى هذا المساء.

(1) «دياب» (Dieppe) بلدة فرنسية تقع في مقاطعة «سان ماريتيم» في جهة «النورماندي العليا» تعرف بنشاطها البحري والاقتصادي والسياحي. (المترجم).

– لقد انتهى كل شيء إذاً.

– لم يعلم بالأمر بعد. أنا صبورة جداً، ولكن، وإن كنت عاشقة جداً، فللأشياء حدود.

– أفهم ذلك.

ولستُ أرجو أكثر من ذلك. غير أنها واصلت حديثها على أية حال.

– أول مرة، عدتُ إلى شقتي كالعادة، حيث يقيم معي. ولكن قبل موعدي بقليل. كانت توجد فتاة في سريرنا. وكانا عاريين كليهما. حاولت أن أكون متسامحة. وبما أن الشقة ليس فيها إلا غرفة واحدة، فقد ظللت جالسة على الأريكة ريثما ينتهيان. وبعد ذلك، وعدني بأن الأمر لن يتكرر أبداً. وفي هذا المساء، أعاد الكرّة مع فتاة أخرى. ولّما زعقتُ قليلاً وجّه إليّ صفعة. ليست قوية، ولكنها صفعة عل كل حال. خرجتُ طالبة منه أن يذهب في حال سبيله. تلك هي الحكاية كاملة. ولحسن الحظ أن «السبورتنج» ما زال مفتوحاً في هذه الساعة، ولولا ذلك؛ لتعيّن عليّ أن أضرب وحدي في المدينة وأن أعرّض نفسي للمعاكسات. خصوصاً أن اليوم ليس اليوم المناسب.

ثم أومأتْ برأسها إيماءة خفيفة كما لو أنها كانت تريد أن تتخلص من شيء يضايقها.

– هكذا تجري الأمور دائماً، حين نعشق شخصاً لا يستحق حبنا.

– هل ما زلت عاشقة؟

– لا أدري، ولكني أعتقد أنه يحسن بي ألا أظل عاشقة.

– وهذا رأيي أيضاً، وإن كان الأمر لا يخصّني. إن هذا الشخص ليس على حظ كبير من الاستقامة...

– أجل، ولكنه عانى الأمرّين في طفولته بحيث إنني أميل إلى أن ألتمس له عذراً. إنه بحاجة إلى أن يُثبِتَ لنفسه أشياءَ لم يعطه أحد إياها. في هذه المرة، أنا متأكدة الآن أن كل شيء قد انتهى، وأنه نادم على فعلته. لا بد أنه الآن يبحث

عني. ولكنني هذه المرة، لن أنسى. لقد كنتُ رئيفة بما فيه الكفاية، ألا تعتقد ذلك؟

– بلى، لقد سامحتِهِ أكثر مما ينبغي.

– وأنتَ، ماذا تشتغل؟

– لا شيء مهماً. أعيش في الريف، على بعد ثلاثين كيلومتراً من هنا.

– وأين تشتغل؟

– لم أعد أشتغل في الحقيقة. كانت لدي مؤسسة، بِعتُها، والآن أنا أهتمّ ببيتي.

– فأنت تعيش من دخلك على نحو ما.

– تقريباً، إن شئت.

– على كل، هذا غير مزعج لمن هم في مثل سنك. وهل تعيش وحدك؟

– أجل، وحدي وسط الغابات.

– يا لك من محظوظ!

– أي نعم. أعني... الأمر يختلف، ثمة أيام يكون فيها الإنسان أكثر حظاً منه في أيام أخرى.

– ولكن، هل أنتَ الذي قرّرتَ ذلك؟

– نعم.

– إن قدرة الإنسان على اتخاذ قرار في شأن ما هو في ذاته حظ. أما أنا فلا أقرّر شيئاً أبداً.

– بلى، إنك ستتّخذين قراراً هذه المرّة.

– ليتني كنت متأكدة من ذلك.

كلما أدمتُ النظر إليها بدت لي قالباً واحداً. قالباً من الحجارة اللينة، التي أخذت بَعْدُ تتآكل. وصلنا إلى نهاية محادثتنا، على الأقل في الوقت الراهن. سألتُها إن كانت تناولت عشاءها. فأجابت بأنها في حالة الذعر التي مرّتْ

بها نَسِيَتْ حافظة أوراقها، وأنها لا تملك إلا ما به تدفع مقابل ما استهلكته. طلبتُ طعاماً لكلينا فأكلتْ منه بشهية. خلال فترة الطعام كلها، أبدت اهتماماً بأسفاري، تلك التي قمتُ بها في إطار شغلي وقادتني إلى كل بلدان العالم التي فيها خشب للبيع. قرأتُ في عينيها أنها تجد لذة في مرافقتي في ذكرياتي. فهي تقاسمني إياها كما لو أنها كانت على نحو ما ذكرياتها. لم تطرح عليّ في أي لحظة أسئلة تتعلق بحياتي الخاصة. فكأنها تخشى على تلك السرعة التي تستوي فيها علاقتنا أن تخفت، وقد أضرّ بها فرطُ الحميمية. حين انتهى العشاء، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. عرضتُ عليها أن أوصلها إلى بيتها، ولكنني رأيتُ في نظرتها أن العودة مستحيلة بالنسبة إليها. اقترحتُ عليها أن أؤويها تلك الليلة. فقبلتْ بلا شروط، وهو ما دعاني إلى أن أعِدَها بأنني لن أضايقها. في السيارة، سألتُها عن والدها، ربما لأنه يمكن أن يكون في مثل سنّي. ولكنه اختفى، منذ زمن بعيد، بعد أن أبدى شيئاً من التودّد لأختها الصغرى. هي لا تعلم غير هذا، لأن أختها لا تتحدث أبداً عمّا جرى. وحين رغبتْ في إنهاء الموضوع، زانته بابتسامة، هي سلاحها ضدّ الحزن. يبدو أنها أبرمت مع الحزن اتفاقاً حتى لا ينال منها.

بعد ربع ساعة أو يزيد من السير، غادرنا الطريق الوطنية؛ لندخل متوغّلَيْن في عمق الريف. يمكن للمرء أن يعيش في مدينة زراعية صغيرة دون أن يقترب أبداً من الطبيعة. قالت إنها لم تذهب إلى الطبيعة منذ سنة. عند كل مفترق، كنا نغادر الطريق الذي نسير فيه؛ لنسلك طريقاً فرعية أصغر، إلى أن وصلنا إلى مدخل طريق ترابية.

في الليل، في طرف الغابة، كانت عيون اليحامير تلتمع بسبب أضواء السيارة، كما لو أنها كانت حُباحب من اليشْم. تتلوّى الطريق طويلاً قبل أن تفضي إلى بيتي. لا يُرَى لأول وهلة إلا جدار حجري من ذلك النوع الذي كان يشيّده في القرن التاسع عشر البورجوازيّون المترفون الذين عادوا إلى الفلاحة. وقبل أن أنزل

من السيارة وأفتح البوابة، استرقتُ إليها النظر، خشية أن أقرأ في وجهها علامات قلق. وبدلاً عن ذلك، وجدتُها منشرحة، متطلّعة إلى اكتشاف المكان. في تلك الليلة التي يلفّها القمر المتناقص بنوره الخفيف، طُفْتُ بها في أرجاء الملكية في أول زيارة تؤدّيها لها. انبهرتْ أمام البناية المربعة الشكل التي تقوم مقام بيت السيّد، وأمام مستودعات الحصيد المشرعة للريح. ارتقت سدّة حجرية؛ لتتمثل المشهد بـ360 درجة، ثم قفزتْ منها كأنها طفلة. ولكن لم يُثِرْ دهشتَها شيءٌ بقدر ما أثارها داخلُ ذلك المسكن الفسيح وغير المريح – كما لو كان في أيّامه الأولى. أعجبتْ بعناصر الديكور القديمة واحداً واحداً: البلاط الآجرّي للطابق الأرضي، الجدران ذات الحجارة المكلسة، الأسقف على الطراز الفرنسي، المدافئ بعوارضها الأمامية المزخرفة الصقيلة. لم تستغرب أن يقيم المرء وحيداً في بيت متسع كهذا، وكان استغرابها أقلّ؛ لانطوائي في حجرتين، مطبخ وغرفة، مدفّأتين بسخّانين كهربائيين يجهدان لإزالة رطوبة المكان العريقة. لم يفاجئها أيضاً أنني لا أنوي تهيئة الغرف الأخرى. دخّنّا بعد ذلك سيجارة أمام مدفأة تسعى نارها إلى حتفها، وقد اندسّ كل منا في معطفه الشتائي. تطرقنا إلى عدد من المواضيع العاديّة، إذ أننا، في النهاية، يكاد لا يعرف أحدنا الآخر، غير أنها عالجت كل موضوع بنباهة غير متوقعة من شخص في سنها. كان الفجر قد بزغ باحتشام شديد حين أخذنا نتأهب للنوم.

قالت حينها:

– ليس لك إلا غرفة واحدة، إذاً.

– كلا، هناك ثماني غرف، ولكن أنت على حق، غرفة واحدة...صالحة للاستخدام.

شعرتُ أنها كانت مرتبكة أكثر مما كانت مستاءة.

تساءلتُ بلا أدنى مكر:

– كيف سنتصرّف، إذاً؟ إنني أتعجّل النوم حتى أستيقظ وأكتشف الملكية

في النهار.

فكرتُ قليلاً، وقلتُ:

– في الغرفة كنبة وسرير. سآخذ الكنبة وأترك لك السرير.

– يمكنني أنا أيضاً أن آخذ الكنبة.

– بصدق، أظن أن الكنبة لن يأخذها أي منا، فهي لا تُفتَح. لا تقلقي، سأجد حلاً.

– لستُ قلقة.

ما إن صعدتُ إلى الغرفة الكائنة فوق المطبخ، حتى أخرجتُ من خزانةٍ كيسَ نوم قديماً كنت أستخدمه أيام الجندية.

شرحتُ لها بكامل الجد، منتزعا ابتسامة متعبة، وهو ما أفعله حين لا يطيب لي أن أضحك من دعاباتي:

– سأنام في كيس النوم هذا، وتنامين في الأغطية. سيكون كيس النوم ضربا من الواقي الضخم، وبهذه الصورة لن تخشي شيئاً.

وبعد أن اتخذتُ تلك الإجراءات، تمدّدنا بملابسنا وأطفأتُ النور. ظلّتْ على ظهرها لا تريم، رجلاها متلاصقتان، ويداها مشدودتان إلى جسدها، وهي تتنفس بعمق.

وبعد قليل، لامست أصابعي شعرها. فلم تتحرّك. وفي الخارج سُمِعَ نباح واحد أجشّ مزّق الليل الذي قارب نهايته.

سألتْ:

– ما هذا؟

– لعلها خنزيرة بريّة تؤنّب خنانيصها. إنها تأتي كل ليلة تفحص الأرض قرب مستودع الحصيد.

مسّدتُ لها رقبتها مدخلاً يدي اليمنى بين رأسها والمخدة. ظلّت دون حراك.

قلت لها فجأة:

– هل تؤاخذينني إن التصقتُ بك؟

أجابت بصوت محايد فيه مراعاة للصمت الرطب الذي يغمر الحجرة ذات السقف العالي:

– كلاّ، ولكن لا تقبّلني، إن سمحت.

– ولماذا؟

تردّدتْ قليلاً، ثم شرحتْ لي بأسًى:

– لأنني لا أودّ أن أكون الشخص الذي يقبّل فتاة مثلي.

– وإن كنتُ أنا ذلك الشخص الذي يودّ أن يقبّل فتاة مثلك؟

ردّت عليّ بتؤدة:

– لم أسمح لأحد بأن يقبّلني سوى الشابّ الذي كنت أحبّه. والنتيجة، إنه لأمر مثير للسخرية، ولكن...

احتضنتُها. كانت حرارة ذلك العناق الأول قريبة إلى حدّ ما من الحرارة التي يُفترَض أن يحسّ بها عالِمُ مصريّات وهو يداعب مومياءه المفضلة. أفضيتُ لها بتلك الفكرة الغريبة، فضحكتْ بطيب خاطر. ثم ضمّتني بدورها، واعترفتْ قائلة:

– لا أعرف رجلاً استمتع بجسدي أكثر من مرة واحدة.

– ولماذا؟

– لأنني لست نحيفة جداً، ومن ثم فأنا بعيدة عن المقاييس الراهنة.

– المقاييس ضبطها رجال لا يشتهون النساء.

– ربّما، ولكن، مع ذلك... الشبّان الذين ألتقي بهم، أشعر أنهم يشتهونني. ولكن ما إن تنتهي العملية، حتى أحس أنني أثير اشمئزازهم.

– ذاك لأنهم لا يفقهون من الأمر شيئاً.

لقد مرّ عليّ زمن طويل لم أشعر فيه بمثل تلك الشهوة تتدفق في عروقي.

لم تكن تلك الشهوة؛ لتستيقظ من أجل امرأة كسائر النساء، بل تستيقظ حقاً لها هي، لا لغيرها. تسلّلتْ إليّ ذكرى زوجتي. لم تكن تمارس الجنس معي إلا لتكافئني، وكانت تمتنع عنه إن أرادت أن تعاقبني. ومن ثم فإننا لا نمارس الجنس أبداً. لذلك كنت أذهب إلى المومسات. ولكني لم أكن قادراً على أن أشتهي امرأة لا تشتهيني. كنت أدخل، نتحادث قليلاً، أدفع، وأخرج. ولو جمعتُ كل ما أنفقتُه عليهن لشيّدتُ به كنيسة.

*

بعد لأي قبّلتْني، في ساعة من الليل متأخرة شيئاً ما. لعلها كانت تريد أن تكافئ مثابرة فمي الذي وهبها اللذة التي كانت جديرة بها. وحين هلّ الصباح من خلل مغالق النوافذ النخرة، اكتشفتُ من جديد وجهها المتألق. كنت أشعر بالسعادة وبالتعب. تخلصتُ بسرعة من هذا الشعور الأوّل، كما يفعل المرء بثوب مبلل بماء المطر. إن خشية السعادة طريقة لائيكية في خشية الإله.

حينما سألتني عن سنّي، قلت لها إنه مع الهالات المحيطة بالعينين صباحاً ليس الوقت مساعداً على الكذب. لم أقل لها إنني بلغت السن التي يدعو العقلُ فيها إلى الاستعداد للموت. وفي الحقيقة، لم يكن بلوغي الخمسين الشاحبة بأقلّ إثارة لاستغرابي من اكتشافي أن رغبتي كانت على ما يرام، وكأنّ الطبيعة لم تكن تريد أن تساعدني على أن أشيخ.

عندئذ أعدنا الكرّة مرّة أخيرة قبل أن تقفز من السرير؛ لتتمتع بالريف تحت شمس الشتاء الواهنة.

# مارك دوقان

حياته:

مارك دوقان كاتب فرنسي من مواليد 3 مايو (أيار) سنة 1957 بالسنغال حيث كان يشتغل أبوه. عاد إلى فرنسا في السابعة من عمره. تخرج في معهد الدراسات السياسية في مدينة «قرونوبل» واشتغل في الشؤون المالية بوصفه خبيراً في أحد البنوك. ثم اشترى شركة ملاحة جوية باعها بعد ذلك إلى شركة فرنسا الجوية. بدأ مسيرته الأدبية حين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره. وكانت روايته «غرفة الضباط» التي شرع في كتابتها سنة 1998 بدايته الحقيقية، إذ نالت في أوساط النقاد والقراء حظوة شجعت صاحبها على أن يتفرغ للكتابة الأدبية. خاض منذ سنة 2011 مجال الإخراج المسرحي من خلال اقتباس قصة «حكاية تافهة» لأنطون تشيخوف.

يهتم في رواياته وقصصه بتصوير الإنسان المعاصر في وحدته العميقة وفي بحثه عن المعنى. ويميل إلى ربط عوالمه التخييلية بوقائع عامة من قبيل آثار الحروب وكارثة الغواصة «كورسك» أيام «فلاديمير بوتين»، وحياة «جون إدقار هوفر» الذي ترأس مكتب التحقيقات الفدرالي 48 عاماً وأحداث 11 سبتمبر 2001.

أعماله:

- «غرفة الضباط» (1999)، نالت هذه الرواية قرابة عشرين جائزة أدبية، واقتبست في السينما سنة 2001.
- «الريف الإنقليزي»، (2000).
- «سعيد كالإله في فرنسا»، (2002).
- «لعنة إدغار»، (2005).

- «إعدام عادي»، (2007).
- «في الأسفل، الغيوم»، (2008)، وهي مجموعة قصصية.
- «أرق النجوم»، (2010).

# في الأسفل، الغيوم

مجموعة قصصية أو «سبع حكايات» كما يقول «مارك دوقان» تروي لنا قصص شخصيات متنوعة سناً وموطئاً وثقافة، ولكنها شخصيات يجمع بينها شعور بالضياع في هذا العالم لأنها لم تستطع أو لم ترد أن تنخرط فيه.

تكمن طرافة هذا الكتاب في أنه يمكن أن يقرأ بوصفه مجموعة من القصص المنفصل بعضها عن بعض، وبوصفه رواية ذات فصول مترابطة ترابطاً يتراوح بين القوة والضعف بحسب الأحوال. تلك المرأة العجوز التي انعزلت في جزيرة نائية بعد حياة مليئة بالنجاح والإحباط، وذلك الناشر الذي يفر بأسرته من باريس إلى الريف بعد إشاعة عن انتشار وباء خطير، وذلك الفتى الذي يولد في المأساة ويسعى إلى مجاوزتها فتأتي أحداث سبتمبر لتقلب حياته رأسا على عقب، وذلك المسرحي الذي يغادر فرنسا بحثاً عن سكينة لا يجدها، وذلك الناقد في فن الطهي الذي يعيش عزلته القاتلة بين الصحيفة والصديقة والعشيقة، وذلك الرسام الذي يعيش قطيعة مع عالم الناس وينوء تحت ركام من المآسي الموروثة من عهد الطفولة، وذلك الرجل الذي يطلق حياته المهنية والأسرية ويعيش في بيت ريفي فيقيض له لقاء بفتاة يافعة يدفعه دفعاً إلى أن يصغي إلى أصوات الحياة في عروقه.

إنها شخصيات متنوعة ومتشابهة تعيش في إحدى جزر المحيط الهادي أو في فرنسا أو الولايات المتحدة أو في المكسيك أو في المغرب، لا فرق، مادامت تحمل هموماً واحدة وتقدم صورة عن عالمنا الذي أفقدنا الروح ولم يعوضنا عنها بالسعادة. إننا نكتشف في حميمية تلك الشخصيات أنها لا ترى من أنفسها إلا الظاهر، أما الباطن فقد غطاه زيف الحضارة المادية وانتحى منها ركناً قصياً لم تعد هي نفسها قادرة على استشفافه.

وقد استطاع «مارك دوقان» بأسلوب مرهف شغوف بالتفاصيل أن يدخلنا

عوالم تلك الشخصيات التي تبدو لنا أول الأمر بعيدة عنا، ولكنها لا تلبث أن تدنو منا، وتتلبسنا فإذا هي نحن في سعينا إلى فهم عالمنا وانطوائنا أمام قسوة الحياة وانبهارنا بطاقة الأمل التي يمكن أن تتفجر في أي لحظة. إنه عمل لا يقرأ مرة واحدة؛ لأنه لا يبوح بأسراره إلا بعد عناء، فهو كالمرأة التي تغري وتتمنع، وفي تلك المراوحة بين التخفي والانكشاف سر من أسرار الأدب الحق.

## نبذة عن المؤلف:

كاتب فرنسي من مواليد 1957 بالسنغال حيث كان يشتغل أبوه. عاد إلى فرنسا في السابعة من عمره. تخرج في معهد الدراسات السياسية في مدينة "قرونوبل". بدأ مسيرته الأدبية حين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره. وكانت روايته "غرفة الضباط" التي شرع في كتابتها سنة 1998 بدايته الحقيقية، إذ نالت في أوساط النقاد والقراء حظوة شجعت صاحبها على أن يتفرغ للكتابة الأدبية. خاض منذ سنة 2011 مجال الإخراج المسرحي من خلال اقتباس قصة "حكاية تافهة" لأنطون تشيخوف.

## نبذة عن المترجم:

أستاذ التعليم العالي في بجامعة منوبة، تونس، كلية الآداب والفنون والإنسانيات. متعاقد حالياً مع جامعة الإمام، الرياض، كلية اللغة العربية، قسم الأدب.

مهتم بنظرية الأدب وبالسرديات النظرية وتطبيقاتها على الأدب العربي قديمه وحديثه.

صدرت له عدة كتب، علاوة على دراسات وترجمات منشورة في مجلات عديدة منها: "حوليات الجامعة التونسية" (تونس) و"الحياة الثقافية" (تونس) و"دراسات أندلسية" (تونس) و"فصول" (القاهرة) و"علامات" (جدة) و"الفكر العربي المعاصر" (بيروت) و"المؤلف الأدبي" (دمشق) و Studia Lslamica (Leiden)

## فوق الغيوم.. سبع حكايات

مجموعة قصصية أو "سبع حكايات" كما يقول "مارك دوقان" تروي لنا قصص شخصيات متنوعة سناً وموطناً وثقافة، ولكنها شخصيات يجمع بينها شعور بالضياع في هذا العالم لأنها لم تستطع أو لم ترد أن تنخرط فيه.

تكمن طرافة هذا الكتاب في أنه يمكن أن يقرأ بوصفه مجموعة من القصص المنفصل بعضها عن بعض، وبوصفه رواية ذات فصول مترابطة ترابطاً يتراوح بين القوة والضعف بحسب الأحوال. تلك المرأة العجوز التي انعزلت في جزيرة نائية بعد حياة مليئة بالنجاح والإحباط، وذلك الناشر الذي يفر بأسرته من باريس إلى الريف بعد إشاعة عن انتشار وباء خطير، وذلك الفتى الذي يولد في المأساة ويسعى إلى أن يستمر في حياته، فتأتي أحداث سبتمبر لتقلب حياته رأسا على عقب.

لقد استطاع "مارك دوقان" بأسلوب مرهف شغوف بالتفاصيل أن يدخلنا عوالم تلك الشخصيات التي تبدو لنا أول الأمر بعيدة عنا، ولكنها لا تلبث أن تدنو منا، وتتلبسنا فإذا هي نحن في سعينا إلى فهم عالمنا وانطوائنا أمام قسوة الحياة وانبهارنا بطاقة الأمل التي يمكن أن تتفجر في أي لحظة. إنه عمل لا يقرأ مرة واحدة؛ لأنه لا يبوح بأسراره إلا بعد عناء، فهو كالمرأة التي تغري وتتمنع، وفي تلك المراوحة بين التخفي والانكشاف سر من أسرار الأدب الحق.










